الكتاب : مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي (ع)
المؤلف : الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ع)

مجموع رسائل

الإمام الهادي إلى الحق القويم

يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم

عليهم السلام

من إصدارات

مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية

ص.ب. 1135، عمان 11821

المملكة الأردنية الهاشمية

www.izbacf.org

مقدمة السيد العلامة مجدالدين بن محمد المؤيدي

قال والدنا ومولانا وحجة عصرنا شيخ الإسلام وإمام أهل البيت الكرام مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي أيده الله تعالى وأطال بقاه:

أروي مؤلفات إمام اليمن الهادي إلى الحق المبين، أمير المؤمنين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام، الأحكام، والمنتخب، والمجموع[هذا الذي بين يديك]، وغيرها؛ بالطرق المذكورة في كتابنا الجامعة المهمة لأسانيد كتب الأئمة؛ وكتابنا لوامع الأنوار وجوامع العلوم والآثار إلى الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين عليه السلام التي منها:

عن والدي العلامة محمد بن منصور المؤيدي رضى الله تعالى عنهما سماعاً فيما سمعت فيه منها بقراءتي عليه رضي الله عنه وبالإجازة العامة، وهو عن والدنا الإمام المهدي لدين الله محمد بن القاسم، عن شيخه السيد الإمام محمد بن محمد الكبسي، عن شيخه السيد الإمام محمد بن عبد الرب.

ويروي الإمام المهدي محمد بن القاسم ذلك وغيره، عن شيخه الإمام المنصور بالله محمد بن عبدالله الوزير، عن شيخه السيد الإمام أحمد بن زيد الكبسي، عن شيخه السيد الإمام محمد بن عبد الرب.

والسيد الإمام محمد بن عبد الرب يروي ذلك وغيره عن عمه العلامة إسماعيل، عن أبيه العلامة محمد، عن أبيه العلامة زيد، عن أبيه الإمام المتوكل على الله إسماعيل، عن أبيه الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، عن السادة الأعلام إبراهيم بن المهدي القاسمي؛ وأمير الدين بن عبد الله المطهري، وصلاح بن أحمد بن عبد الله الوزير، ثلاثتهم عن السيد الإمام أحمد بن عبد الله الوزير، عن الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين عليه السلام ؛ عن القاضي العلامة علي بن أحمد، عن القاضي العلامة علي بن زيد رضي الله عنهم؛ عن الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي، عن الفقيه نجم الدين يوسف بن أحمد، عن الفقيه شرف الدين الحسن بن محمد النحوي، عن الفقيه عماد الدين يحيى بن حسن البحيبح رضي الله تعالى عنهم؛ عن الأمير الخطير المؤيد بن أحمد؛ عن الأمير الكبير الناصر للحق الحسين بن بدر الدين محمد عليه السلام ، عن الشيخ محيي الدين عطية بن محمد، عن الأميرين الداعيين إلى الله تعالى شيبتي الحمد شمس الدين وبدره يحيى ومحمد ابني أحمد بن يحيى بن يحيى عليهم السلام، عن القاضي شمس الدين جعفر بن أحمد رضي الله تعالى عنه، عن القاضي أحمد بن أبي الحسن الكني، عن أبي الفوارس توران شاه، عن أبي علي بن آموج، عن القاضي زيد بن محمد، عن علي خليل، عن القاضي يوسف الخطيب رضي الله تعالى عنهم؛ عن الإمام المؤيد بالله، والإمام أبي طالب، عن السيد أبي العباس، عن السيد الإمام علي بن العباس الحسني، عن الإمام الهادي إلى الحق، جميع مؤلفاته.

ويروي الإمامان المؤيد بالله، وأبو طالب، وأبو العباس الحسني عن السيد الإمام يحيى الهادي بن الإمام المرتضى محمد بن يحيى، عن عمه الإمام الناصر للدين أحمد بن يحيى، عن والده إمام اليمن محيي الفرائض والسنن، أمير المؤمنين الهادي إلى الحق القويم، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام.

وأروى أيضاً مؤلفات الإمام الهادي إلى الحق القويم يحيى بن الحسين عليهما السلام عن والدي رضي الله عنه عن الإمام المهدي لدين الله محمد بن القاسم، عن الإمام المنصور بالله محمد بن عبد الله الوزير، عن مشائخه السادة الأعلام، أحمد بن زيد الكبسي، وأحمد بن يوسف زبارة، ويحيى بن عبدالله الوزير، ثلاثتهم عن السيد الإمام الحسين، عن أبيه يوسف، عن أبيه الحسين بن أحمد زبارة الحسني، عن السيد العلامة عامر بن عبد الله بن عامر، عن الإمام المؤيد بالله محمد، عن

أبيه الإمام القاسم بن محمد، عن السادة الأعلام أمير الدين بن عبد الله، وإبراهيم بن المهدي؛ وصلاح بن أحمد بن عبد الله الوزير، عن السيد الإمام أحمد بن عبد الله الوزير، عن الإمام شرف الدين، عن الإمام محمد بن علي السراجي، عن الإمام عز الدين بن الحسن، عن الإمام المطهر بن محمد، عن الإمام المهدي أحمد بن يحيى عليهم السلام، عن أخيه الهادي بن يحيى، وشيخه محمد بن يحيى، عن القاسم بن أحمد بن حميد الشهيد، عن أبيه عن جده، عن الإمام المنصور بالله عز وجل عبد الله بن حمزة عليه السلام ، عن محيي الدين محمد بن أحمد القرشي رضي الله تعالى عنهم، عن الإمام المتوكل على الرحمن أحمد بن سليمان عليه السلام ، عن الشيخ الأجل إسحاق بن أحمد، عن عبد الرزاق بن أحمد، عن الشريف علي بن الحارث، وأبي الهيثم يوسف بن أبي العشيرة، عن الحسن بن أحمد الضهري إمام مسجد الهادي، عن محمد بن أبي الفتح رضوان الله عليهم، عن الإمام المرتضى لدين الله محمد، عن أبيه إمام الأئمة وهادي الأمة أمير المؤمنين وسيد المسلمين الهادي إلى الحق المبين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم رضوان الله وسلامه عليهم.

فسائل الشهب عنه في مطالعها

سل سنة المصطفى عن نجل صاحبها

والفجر حين بدا والصبح حين أضا

من علم الناس مسنوناً ومفترضاً

(5/1)

فالله تعالى نسأل، أن يمن لنا وللمؤمنين بمرافقتهم، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين؛ وحسن أولئك رفيقاً.

نعم وكل من تقدم في هذا الإسناد المبارك من مشاهير علماء الزيدية، وأعلام الثقاة الأثبات من العصابة المرضية، ولو نقلت فضائلهم وأحوالهم لضاق المقام.

هذا واعلم أنه يلزمك أيها المكلف طلب الحق وعرفانه، ويتوجه عليك تحقيقه وإتقانه، حتى تكون على بصيرة من ذلك في الدين، غير مرتبك في حبائل المقلدين، ولا مرتطم في ضلال المضلين، من الجاهلين والمعاندين، فترتوي من معين برهانه، وتعرفه بالدليل، وتقتفي بتوفيق الله تعالى أوضح سبيل، إن لم تكن والعياذ بالله ممن غطى الرين على قلبه، وغشى الزيغ أنوار بصره ولبه، وأخذ دينه عن أفواه الرجال وقلّدهم؛ فمالوا به من يمين إلى شمال، فكان من دين الله على أعظم زوال، كما ورد به الخبر عن سيد البشر، صلى الله عليه وعلى آله خير آل؛ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم

إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ؟وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ؟[الأنفال:23].

(6/1)

هذا وقد كثرت في هذه الأعصار الضلالات، وانتشرت كل الانتشار الجهالات، وصار يدعي اتباع الحق والدليل - ويموه على الرعاع من الأتباع بالوقوف على منهاج السنة ورفض التقليد، ليصدهم عن السبيل - مَنْ ليس من ذلك القبيل، بل هو رافض للحجج النيرة، مفرق لعمى بصره بين ما جمع الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات المتكاثرة والأخبار المتواترة، من الكتاب والسنة والعترة المطهرة، واقف في حومة الدعوى، داع إلى تقليد أرباب الزيغ بمجرد الأهواء ؟وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ؟[الحج: 8-9] ووقعت شبههم هذه الباطلة، وتأثرت تمحالاتهم المضمحلة الماحلة في قلوب كثير ممن لا ثبوت لأفهامهم في مجال العلوم؛ ولا رسوخ لأقدامهم في مقام المنطوق والمفهوم، ولا اطلاع لهم على الحقائق؛ ولا تمييز بالنظر الصحيح بين مخالف وموافق.

وصار الحال كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلبا فارغاً فتمكنا

(7/1)

وأكد هذا أن مؤلفات المخالفين منشورة؛ قد امتلأت بها جوانب المعمورة، وأسفار الهداة من سفن النجاة عن الانتشار محصورة ومهجورة، حتى صار الذين لا هوى لهم في مجانبة الحق، يطلعون على نقولات الباطل المختلق، ولا يهتدون إلى أقوال أئمتهم، وردود أعلام ملتهم، ويروون الروايات عن الرواة، فلا يفرقون بين معدّل ومجروح، ومقبول ومطروح، ولا يعرفون من هو في حزب المضلين الغواة، ومن هو في حزب المهتدين الهداة، مع سفن النجاة، - وهنا أغتنم الفرصة لأحث المؤمنين الأخيار من العلماء الأبرار وطلبة العلم الشريف كثر الله سوادهم على الاهتمام بإخراج كتب أئمتهم الأطهار، وشيعتهم الأبرار إلى حيّز الوجود، سليمة نقية صافية خالية من الدغل والزلل، وتوخي الأمانة والنزاهة في النقل من الأصول المأمونة.

هذا ومن العجائب وما عشت أراك الدهر عجباً أن أناساً من رؤساء هؤلاء الفريق، صاروا يموهون على الأغمار، بأن العترة الأطهار عليهم السلام، وأتباعهم الأبرار رضي الله عنهم، ينهون عن اتباع الدليل، ويأمرون بالتقليد، ويَسِمون – من خالف آل محمد صلوات الله عليه وعليهم ورفض الأدلة المعلومة من الكتاب والسنة – بالاجتهاد المطلق، والاتباع للحق.

ويا سبحان الله ومن الذي دعا الخلق إلى الحق، واتباع الكتاب والسنة، وهدى العباد، وسنّ لهم الجهاد والاجتهاد، والأخذ ببرهان الأدلة؛ غير أهل بيت النبوة؛ ومعدن الرسالة، قرناء التنزيل، وأمناء التأويل صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد علم كل ذي علم أنها ما تأسست التقليدات إلا لصد الناس عن العترة المطهرة عن الأرجاس، المنزهة عن الأدناس، وهي من البدع المحدثة في الأديان، التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد علم أولوا العلم أن هؤلاء الأئمة الذين أمروا الناس بتقليدهم، كانوا من أنصار أئمة العترة، القائمين بما أمرهم الله تعالى لهم من المودة والنصرة، وأقوالهم وأفعالهم معلومة، وحاشاهم عن رفض التمسك بالثقلين وتنكب سفينة النجاة، وترك المودة لمن أمرهم الله تعالى بمودته، وألزمهم بموالاته وطاعته، من أعلام أهل بيت نبيهم الهداة.

قال: المحدث الكبير يحي بن أبي بكر العامري في الرياض المستطابة:

وقد ذكر ابن الجوزي وغيره أن الأئمة المتبوعين في المذاهب بايع كل واحد منهم لإمام من أئمة أهل البيت، بايع أبوحنيفة لإبراهيم ابن عبد الله بن الحسن، وبايع مالك لأخيه محمد، وبايع الشافعي لأخيهما يحيى. انتهى المراد.

ومتابعة أبي حنيفة للإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام مشهورة.

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء صفحة (243) طبعة سنة 1408 هجرية: وفي سنة (45)كان خروج محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى قوله: وآذى المنصور خلقاً من العلماء ممن خرج معهما، أو أمر بالخروج، قتلاً وضرباً وغير ذلك، منهم أبو حنيفة وعبدالحميد بن جعفر، وابن عجلان.

وممن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور، مالك بن أنس رحمه الله. انتهى.

هذا فكيف ينسب المبتدعون ذلك إلى ورثة الكتاب والسنة، وكل إمام منهم عليهم السلام يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ كلَّ من بلغته الدعوة، ومؤلفاتهم مشحونة بالأدلة على وجوب اتباع الأدلة، ولكن لا بد لكل مبتدع من دعوى كلمة حق يراد بها باطل، أو تلفيق شبهة

زيغ يستهوي بها الجاهل الغافل، وهذا هو لبس الحق بالباطل الذي ينهى عنه الملك العادل، بأمثال قوله عز وجل:؟وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟[البقرة:42].

(9/1)

ولهذا تعين البيان بحسب الإمكان لما أخذ الله تعالى من الميثاق في منزل الفرقان، وسنة سيد ولد عدنان، ولسنا والحمد لله نستنكر من غلبة الباطل وكثرة أهله، ولا نستوحش لانقباض الحق وقلة حزبه، فإن سنة الله عز وجل في عباده، وعادته المستمرة في بلاده، التخلية بين خلقه في هذه الدار، ليتمكن الجميع من الاختيار، وقد أخّر الجزاء لدار القرار، واقتضت حكمته الربانية قبض الدنيا عن خاصة أوليائه، وانزواءها عن خلاصة أصفيائه، ليكون الاتباع لخالص الدين، والطاعة لمحض اليقين.

وتالله لقد غرست في صدور المتمردين شجرات، يجتنى من زيغها وضلالها ثمرات، ولله حكمة بالغة، وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون.

وعلى كل حال فحزبه المنصورون وإن قُهروا، وجنده الغالبون وإن غُلبوا، كما قصه عز وجل في الكتاب المبين ؟وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ؟[الأعراف:128] وقد قال عمار الذي يدور مع الحق حيثما دار رضوان الله عليه، لما أُخّر عن المقام الذي اختاره الله تعالى له ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم إمامه وإمام الأبرار:

يا ناعي الإسلام قم فانعه .... قد مات عرف وبدا منكر

ما لقريش لا علا كعبها .... من قدموا اليوم ومن أخروا

وذلك في صدر الإسلام فكيف بمثل هذه الأيام، التي هي من أعلام النبوة، بتصديق مواعيد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ من اغتراب الإسلام، وتغيير الأعلام، واقتراب ظهور دينه الحنيف، وتجديد شرعه الشريف، بقيام خاتم الأئمة ومقيم الحجة من أهل بيت نبيه، مهدي هذه الأمة، كاشف الظلمة، ومفرج الغمة ؟فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ؟[المائدة:52]، إنه على كل شيء قدير وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(10/1)

قال بعض علماء العترة عليهم السلام: إني لأكثر التعجب، وما عشت أراك الدهر عجباً، من رجل عالم بمصادر الأمور ومواردها، وكيفية الاستدلال ومقاصدها، ودلالات الألفاظ على معانيها، وتراهم

وهم كثير، يوردون ويروون عن الله عز وجل؛ وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تلك الأدلة والنصوص، والقواطع في حق أهل البيت عليهم الصلاة والسلام على الخصوص؛ بما لا يمكن دفعه لفظاً ولا معنى، ولا سنداً ولامتناً، حتى إذا استنتجت منهم فائدتها، وطلبت منهم عائدتها، بوجوب اتباعهم الذي هو مقتضاه في علم أو عمل؛ أنكر وبرطم، ولوى عنقه وتجهم، وإن ذكرت عنده خلافتهم رآها نكراً، أو رأى من يتابعهم في مقالة أو مذهب عده مبتدعاً، أو سمع بقراءة في كتبهم ومؤلفاتهم اتخذها هزواً ولعباً، فما أدري مابقي لهم من معاني تلك الأدلة والنصوص، وأي فضل ترك لهم على الناس إذ أوجب عليهم أن يكونوا تبعاً والله قد جعلهم متبوعين، ومؤخرين والله قد جعلهم مقدمين، وأجل النظر فيما تجده في كتب كثير من محدثي العامة وفقهائها، فلا تلقاها إلا على هذا النهج، ما ذاك إلا لإرادة الله عز وجل إظهار الحق على ألسنتهم وأيديهم، حجة عليهم وإن راموا إنكارها. انتهى.

قلت: فقد صار الأمر في حالهم ما قصه الله تعالى من أمثال قوله تعالى:؟وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ؟[النمل:14]، وأصل كل ضلالة وفتنة، ومنبع كل فرقة ومحنة في هذه الأمة، والأمم السالفة اتباع الأهواء، والإخلاد إلى الدنيا.

(11/1)

وقد علم كل ذي علم وفهم، وفَهِمَ كل ذي فهْم، ما جرى لأهل بيت النبوة في هذه الأمة، وما فعله الطغاة مع العترة المطهرة، وما ساعدهم به علماء السوء، وفقهاء الضلال؛ من اتباع أهوائهم على كل حال، ورفض أهل بيت نبيهم، وطرح ما يدينون به من دين ربهم، حتى غيروا معالم دين الله، وافتروا على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لترويج ما يهوونه من الصد عن سبيل الله في الأفعال والأقوال، كل ذلك معارضة للآل، ومخالفة لما أمرهم به في شأنهم ذو الجلال.

وقد قصدوا استئصال السلالة النبوية، وإبادة الذرية العلوية، وإزالتهم عن وجه البسيطة بالكلية، وأبلغوا مجهودهم في طمِّ منارهم، وطمْس أنوارهم، فأبى الله تعالى لهم ذلك، وغلبهم على ما هنالك، كيف وهم قرناء الكتاب، والحجة على ذوي الألباب، والسفينة المنجية من العذاب، والثقل الأصغر الذين خلّفهم الرسول مع الثقل الأكبر في الأرض، ولن يفترقا إلى يوم العرض ؟يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ؟[التوبة: 32].

وتهافت في أثرهم الأتباع من العوام، والهمج الرعاع من الطغام، أتباع كل ناعق، وسيقة كل سائق، وركضوا في ميادين الدول، كما وصفهم الله عز وجل؟إن هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ؟[الفرقان:44]، وهم الجم الغفير، والجمع الكثير ؟وإن تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهِ؟[الأنعام:116] ؟وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ؟[يوسف: 103]، فعظمت الفتنة، واشتدت المحنة، وتمت الفرقة المنهي عنها في الكتاب المبين، وعلى لسان الرسول الأمين.

(12/1)

هذا واعلم أن الله جل جلاله قال:؟فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟[يونس:32]، وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((افترقت أمة أخي موسى إلى إحدي وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والباقون في النار، وافترقت أمة أخي عيسى إلى اثنتين وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والباقون في النار، وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والباقون في النار))، وهذا الخبر متلقى بالقبول، فكلام من شكك فيه غير مقبول، وقال وصيه علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: ((ما وحده من كيفه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا إياه عنى من شبهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه))، وغير ذلك مما هو معلوم بين الأمة، ثم إنه معلوم بضروريات المعقول عدم صدق المتناقضات وما إليه تؤول، وقد قال جل ذكره:؟فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إذ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ؟[الزمر:32]، فكيف تكون هذه الفرق كلها ناجية على اختلاف أهوائها وتباين آرائها؟ ؟وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؟[المؤمنون:71].

(13/1)

وقد أوضح لهم الدليل، وأنهج لهم السبيل، بما ركب فيهم من العقول، وأتاهم به الرسول، فلم يكن خلاف من خالف، وشقاق من شاقق، فيما هذا حاله، إلا إخلالاً بما كلفه الله تعالى من معرفته، أوعناداً لما احتج به عليه من حجته، ألم ينههم عن التفرق في الدين، والاكتفاء بالظن فيما لا بد فيه من اليقين؟ قال جل ذكره: ؟وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ؟[الأنعام:153]، وقال عز وجل:؟شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ؟[الشورى:13]، وغير ذلك مما احتج به على الخلق، وأرشدهم به إلى الحق.

(14/1)

وقد طرحت هذه الفرق حجة الله الكبرى عليها، وهي العقول التي ميّز الله تعالى بينها وبين البهائم بها، فألهمها فجورها وتقواها، فمنهم من شبّه الله بخلقه، ومنهم من أثبت قدماء مع الله، ولو شابهها لشاركها فيما لأجله قضت العقول بحدوثها، واستدلت به على موجدها، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وقد قال تعالى نفياً للمثل بطريقة الكناية أو مجاز الزيادة في الذكر المنير: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى:11]، وقال تعالى فيما أفاد عموم السلب من الأخبار: ؟لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟[الأنعام:103]، وقال تعالى: ؟وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص:4]، فانحط صاحب هذه المقالة عن دائرة التوحيد، وتفكر في خالقه وهو لا يعرف ماهية نفسه، وتركيب حقائقه، التي هي مخلوقة موضوعة؛ مقدرة مصنوعة، وكيف يطمح بجهله إلى التفكر في رب العالمين، المتعالي بجلال العزة والعظمة عن المخلوقين، ؟قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إذا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنْظُرْ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا؟[عبس:17-26]، سبحان الله الملك الحق المبين، ما أوضح آياته، وأصرح بيناته، وأبلغ نعماءه، وأسبغ آلاءه.

(15/1)

هذا وقد أرشدنا ذو العزة القاهرة، والعظمة الباهرة، إلى النظر في عجائب مصنوعاته، وغرائب مبتدعاته، التي حارت فيها العقول، مثل قوله عز وجل:؟إن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ؟[البقرة:164].

(16/1)

ومنهم من دخل في ظلال الجبر والظلمة، ونبذ العدل والحكمة، وزاغ عن الهدى والرحمة، وقد قرع سمعه قوله تعالى:؟شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ؟[آل عمران:18]، وقوله تعالى:؟وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعالَمِينَ؟[آل عمران:108]، ؟وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ؟[غافر:31]، ؟وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ؟[البقرة:205]، ؟وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ؟[الزمر:7]، وقالت الجبرية: بل أراده وشاءه وخلقه وارتضاه، فأبطلوا حجة الله على خلقه، بإنزال كتبه، وإرسال رسله، ونهيه وأمره، وتهديده وزجره، وأسقطت عن أنفسها التكليف، وتلعّبت

بالدين الحنيف، وقالوا كما قال الله في الذكر الحكيم: ؟سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إن تَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وإن أَنْتُمْ إلا تَخْرُصُونَ؟[الأنعام:148]، ولما كان في قولهم إسقاط الحجة ردّ عليهم بقوله:؟قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ؟[الأنعام:149]، أي إذا ثبت أنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم، وألا علم عندهم، وما يتبعون إلا الظن، وما هم إلا يخرصون، فقد ثبتت الحجة لله على خلقه، وأنه سبحانه ما شاء إتيانهم القبائح، وارتكابهم الفضائح، ؟فلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ؟[الأنعام:149].

(17/1)

فأخبر أنه لوشاء أن يجبرهم بالقهر والقسر لهداهم أجمعين، ولكنه جل وعلا مكّنهم من الأمرين، وبين لهم النجدين، وركّب فيهم العقول، وأرسل إليهم الرسول، ولو أكرههم لسقطت حكمة التكليف، وبطل مراده، وكانت الحجة عليه لا له على عباده، ؟وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ؟[الزمر :60].

ثم إنهم في زعمهم ليس لهم على صحة دينهم برهان قاطع، ولا بيان ساطع، يجوّزون الكذب الصراح في كل ما أتى به الشارع، لقولهم: إنه لا يقبح منه قبيح، ولنفيهم التحسين والتقبيح بالعقل، موادهم سقيمة، وأشكالهم عقيمة، طرق عاداتهم منسدة، وكم قاعدة لهم منهدة، إن لم يفعل الله شيئاً لشئ – أيتها الجبرية بزعمكم أنه يلزم الاستكمال تبعاً للفلاسفة الملحدين الجهال – فما معنى تعليل نفي الحجة عليه بالإرسال.

وكم آية في الكتاب هم عنها عمون، تنادي بالرد عليهم إن كانوا يعقلون،؟وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ؟[الذاريات:56]، وقال تعالى:؟هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ؟[آل عمران:7]، فسمى الله تعالى المحكمات أم الكتاب، ترد إليهن المتشابهات؛ أو المؤولات من الخطابات، أنزلها الله زيادة في التكليف، وتعريضاً للابتلاء، ومضاعفة للثواب، هذا كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يدية ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(18/1)

هذا وبيان شبه هذه الفرق وتقرير الرد عليها وتحرير الدلائل وما خالفت فيه من المسائل لا يحتمل مدار رحاه هذه السواقط، وإنما أردنا التنبيه لمن غفل عن مهاوي التلف، ومداحض المساقط.

وحجج الله تعالى واضحة المنهاج، بينة الفجاج، ودينه قويم، وصراطه مستقيم ؟لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وإن اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال:42]، وإليك النظر أيها المطلع، المتبع لكتاب ربه، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، إن كنت عن طريق الحق غيرحائد ولا لضروري المعقول والمنقول بجاحد؛ فالمقصود بالخطاب أرباب النظر والاعتبار؛ من ذوي الأبصار ؟إنما يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ؟[الرعد:19]، فأما من أعمى بصائرهم الهوى، وأغشى أبصارهم الردى؛ من طائفتي المتمردين والمقلدين؛ الذين ألفوا آبائهم ضالين فليسوا بمقصودين ؟إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إن تُسْمِعُ إلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ؟[النمل:80-81].

اللهم صل على محمد وآله؛ وأتمم علينا نعمتك في الدارين، واكتب لنا رحمتك التي تكتبها لعبادك المتقين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، واجعلنا هداة مهتدين، ؟رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمان وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ؟[الحشر: 10]، ؟رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ؟[النمل: 19].

مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي

كَتَب بأمره ولده/ إبراهيم مجدالدين المؤيدي

(19/1)

مركز أهل البيت عليه السلام للدراسات الإسلامية – صعدة

(20/1)

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

أما بعد: فإن الله خلق الخلق في هذه الدنيا لعبادته، وأوجب عليهم معرفته، وأرسل رسله إليهم لتبليغ

أحكامه، وإقامة الحجة على عباده، وكان آخرهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فأمره الله بتبليغ رسالته، وأداء أمانته، وأنزل معه قرآناً يتلى على عباده، وكان من أعظم مهماته – كما أنها من أعظم مهمات الأنبياء عليهم السلام من قبله – دحض الشبه، ورد الأباطيل، وبيان بطلانها، لا سيما في العقائد، لا سيما في ما يتعلق بمعرفة الله عز وجل، وإذا تصفحنا آيات القرآن الكريم وسوره، وجدنا صدْق ما قلناه، فمعظم آياته في رد شبه المشركين، ودحض شبه اليهود والنصارى، والرد على المجبرة، والدهرية، والرد على مرجئة اليهود، وقد قام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طوال حياته يدعو إلى الله، ويبين حججه وآياته، ويبين بطلان ما عليه المشركون ويكشف عوار عقائدهم، حتى أُلجئ إلى المحاربة العسكرية، فهزمهم عسكرياً ومعنوياً حتى صار كل من في الجزيرة يتبرأ من دينهم بعد أن كان مفخرة لهم، ولم يمت صلى الله عليه وآله وسلم إلا بعد أن علا صرح الدين، وشمخ بنيانه، وتقوّت أركانه، وسطع نوره.

ولضمان بقاء الدين، وحذراً من دغل المندسين، ولأن ظهور الإسلام لم يقضِ نهائياً على حزب الشيطان، بل ظهوره وسيطرته جعلتهم يتخذون النفاق وسيلة أخرى لحرب الدين وأهله، ولكون الأهواء ستظل تنتج أفكاراً ورجالاً تحارب الحق وتحاول طمسه واستبداله بما يشابهه من الباطل، من أجل هذا كله، ومن أجل بقاء نور الحق ساطعاً، ومشعله متوقداً ليهتدي به من أحب معرفة الحق، جعل الله نصاب ذلك النور وموضعه – وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته – أهل بيت محمد عليه وعليهم السلام.

(21/1)

يقول مولانا وحجة عصرنا سليل الهدى والحكمة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي أبقاه الله في كتابه (التحف شرح الزلف) الطبعة الثالثة ص22 في أهل البيت عليهم السلام: ((وكفاهم ما أثنى عليهم الله تعالى في الذكر المنزل، وعلى لسان جدهم المرسل، فهم أهل التنزيل والتأويل، والتحريم والتحليل، خيرة الله من ذؤابة إبراهيم الخليل، وحملة حجته من سلالة إسماعيل، وورثة خاتم النبيين، وسيد الوصيين، قال عز وجل: ؟إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ؟[آل عمران:33،34]، وقال تعالى: ؟إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟[البقرة:124]، وقال عز من قائل: ؟وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ؟[الحديد:26]، وقال جل ذكره: ؟أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا؟[النساء:54].

(22/1)

ثم بين جل وعلا موضع حجته ومنبع حكمته، من هذه الشجرة المطهرة من ذرية الرسول والوصي صلى الله عليهما وعلى آلهما، لُباب هذه الذرية المصطفاة، وخيار الخيار من الصفوة المجتباة، فقال عز من قائل: ؟ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا؟[فاطر:32]، وقال سبحانه وتعالى: ؟إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا؟[الأحزاب:33]، وقال عز من قائل: ؟قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى؟[الشورى:23]، وقال تبارك وتعالى: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ؟[النساء:59]، وقال تعالى: ؟فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ؟[النحل:43]،وقال جل وعلا ؟إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ؟[الرعد:7].)) انتهى.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد نصب بعده علماً للهداية، وإماماً للأمة ودليلاً للمسترشد، أخاه وصنوه ونفسه بنص الكتاب، علياً عليه السلام، وجعله فاروقاً بين الحق والباطل.

فقام عليه السلام بالحفاظ على الدين، وإيضاح المشكل، ورد الشبه، فهذه خطبه عليه السلام التي جمع الرضي بعضها في كتاب نهج البلاغة، مليئة بذكر تنزيه الله عن مشابهة خلقه وذكر عدله وحكمته، وإيضاح الحجج على أن الله لم يقدّر على أحد معصيته، مثل قوله عليه السلام:

(23/1)

((أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم؟ فقد ضمّنه، ومن قال: علام؟ فقد أخلى عنه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير شيء لا بمزايلة)).

ويقول عليه السلام: ((لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً)).

وقال عليه السلام: ((لا شبح فيتقضى، ولا محجوب فيحوى، لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق)).

قال المولى العلامة الحجة / مجد الدين بن محمد المؤيدي أيده الله في كتابه لوامع الأنوار ج1/ص247 في كلامه على القضاء والقدر:

((قلت: وقد أبانه وصرح به على مقتضى ما دانت به العدلية في الوجهين، وأوضح مَن الفرقة

الموسومة بالقدرية المجوسية من الفريقَيْن، مع ما تقدم من الدلالات القاطعة، والبراهين الساطعة، إمام الموحدين، باب مدينة علم سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، المبين للأمة ما اختلفوا فيه من بعد أخيه، أمير المؤمنين وسيد الوصيين في جوابه للشامي الذي سأله، رواه الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام في الشافي بإسناده إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، وقد سأله الشيخ الشامي عن مسيره إلى الشام: أكان بقضاء وقدر؟.

فقال علي عليه السلام : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما قطعنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر.

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي، ما أرى لي من الأجر شيئاً.

(24/1)

فقال علي عليه السلام : بلى أيها الشيخ قد عظم الله لكم الأجر على مسيركم وأنتم سائرون، وعلى منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين.

فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا.

فقال علي عليه السلام للشيخ: لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدراً حتماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والأمر من الله والنهي، ولما كانت تأتي من الله محمدة لمحسن، ولا مذمة لمسيء، ولما كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة الإساءة أولى من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وخصماء الرحمن، وشهود الزور، وأهل العما عن الصواب في الأمور، قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الرسل هزؤاً، ولم ينزل القرآن عبثاً، ولم يخلق السماوات والأرض وعجائب الآيات باطلاً، ؟ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ؟[ص:27].

فقال الشيخ: ما القضاء والقدر اللذان ما وطئنا موطئاً إلا بهما؟

فقال عليه السلام: الأمر من الله والحكم، ثم تلى:؟وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إلا إِيَّاهُ؟[الإسراء:23].

فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وهو يقول شعراً:

أنت الإمام الذي نرجوا بطاعته .... يوم النشور من الرحمن رضواناً
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً .... جزاك ربك عنا فيه إحساناً
نفسي الفداء لخير الناس كلهم .... بعد النبي علي الحَبْر مولانا
نفى الشكوك مقال منك متضح .... وزاد ذا العلم و الإيمان إيماناً
فليس معذرة في فعل فاحشة .... يوماً لراكبها ظلماً و عدواناً

لا لا ولا قائل ناهيه أوقعهُ .... فيها عبدت إذا ياقوم شيطاناً

انتهى.))

ولو تتبعنا ذلك لطال الكلام، ومن أراد الاستكثار راجع كتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي رحمه الله من كلامه عليه السلام.

(25/1)

وبعده عليه السلام كان سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القائمين بهذا الدور، حتى استشهدا على أيدي شرار خلق الله.

وبعدهما عليهما السلام كان لذريتهما الدور الذي رضيه الله منهم في تبليغ أحكام الله ورد الضلال، وهذا علي بن الحسين عليه السلام في أشد المحنة، يتصدى لرد قول المجبرة، الذي ورد على لسان أميرهم في ذلك الوقت عندما قال ابن زياد لعلي بن الحسين عليهما السلام: ما اسمك؟.

قال: أنا علي بن الحسين بن علي.

قال: ابن زياد: أولم يقتل الله علياً مع أبيه؟

فقال له علي بن الحسين: ذاك أخي قتله الناس.

ذكر هذا الإمام عبدالله بن حمزة عليه السلام في الشافي ج1/ص 63.

وكذلك الحسن بن الحسن عليهما السلام، الذي حاول في أيام الحجاج إرجاع الحق إلى نصابه، وإبادة الظلم، وإشعال أنوار الحق، فمال عنه ابن الأشعث، ومات مسموماً، سمه الوليد بن عبدالملك بن مروان.

يقول مولانا وحجة عصرنا/ مجد الدين بن محمد المؤيدي أيده الله تعالى في كتابه (التحف شرح الزلف) الطبعة الثالثة ص67 في ترجمته للإمام زيد بن علي عليهم السلام:

(26/1)

((ولما ظهرت الضلالات، وانتشرت الظلمات، وتفرقت الأهواء، وتشتت الآراء في أيام الأموية – وإن كان قد نجم الخلاف في هذه الأمة من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنها عظمت الفتن، وجلت المحن في هذه الدولة – وصار متلبساً بالإسلام من ليس من أهله، وادعاه من لا يحوم حوله، وقام لرحض الدين، وتجديد ما أتى به رسول رب العالمين، الإمام زيد بن علي، يقدم طائفة من أهل بيته وأوليائهم، وهي الطائفة التي وعد الله الأمة على لسان نبيها صلى الله عليه وآله

وسلم، أنها لن تزال على الحق ظاهرة، تقاتل عليه إلى يوم الدين، أَعْلَن أهل البيت صلوات الله عليهم الاعتزاء إلى الإمام زيد بن علي؛ بمعنى أنهم يدينون الله بما يدينه من التوحيد والعدل والإمامة، ليظهروا للعباد ما يدعونهم إليه من دين الله القويم، وصراطه المستقيم، وكان قد أقام الحجة، وأبان المحجة، بعد آبائه صلوات الله عليهم، فاختاروه علماً بينهم وبين أمة جدهم.

قال الإمام الكامل عبدالله بن الحسن بن الحسن: ((العَلَم بيننا وبين الناس علي بن أبي طالب، والعلم بيننا وبين الشيعة زيد بن علي)).

وقال ابنه الإمام محمد بن عبدالله النفس الزكية: ((أما والله لقد أحيا زيد بن علي ما دثر من سنن المرسلين، وأقام عمود الدين إذ اعوجّ، ولن نقتبس إلا من نوره، وزيد إمام الأئمة)) انتهى، فلم يزل دعاء الأئمة، ولا يزال على ذلك إن شاء الله إلى يوم القيامة.)) انتهى.

وقال أيده الله في التحف أيضاً تحت عنوان الرافضة ص 68 الطبعة الثالثة:

(27/1)

((وحالُ الإمام الرضي، السابق الزكي الهادي المهدي، زيد بن علي، وقيامه في أمة جده، طافح بين الخلق، ولم يفارقه إلا هذه الفرقة الرافضة التي ورد الخبر الشريف بضلالها، وسبب مفارقتهم له مذكور في كتاب معرفة الله للإمام الهادي إلى الحق وغيره من مؤلفات الأئمة والأمة، فإن الأمة اجتمعت على أن الرافضة هم الفرقة الناكثة على الإمام زيد بن علي ولكنها اختلفت الروايات في سبب نكثهم عليه، وأهل البيت أعلم بهذا الشأن إلى آخر ما ذكره أيده الله فيها.))

وقد كان للإمام زيد عليه السلام الفضل الكبير، والجهد العظيم، في إنارة الحق، وكشف شبه الضلال، وله مناظرات مهمة ومؤلفات عظيمة مثل:

كتاب المناظرات.

المجموعان الحديثي والفقهي.

كتاب الرد على المرجئة.

كتاب الخطب والتوحيد.

كتاب الاحتجاج في القلة والكثرة جمع فيه الآيات القرآنية في مدح القلة وذم الكثرة، واحتج به على الشامي لما ناظره واحتج بأنهم الكثير.

كتاب الإيمان.

كتاب الرسالة في إثبات الوصاية، وغيرها.

وكذلك كان في عصره أخوه باقر علم الأنبياء عليهم السلام، وكذلك كامل أهل البيت عبدالله بن الحسن وأخوته وأولاده السابقون إلى الله بالجهاد في سبيله، والقائمون بفريضة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وقد أُزهقت أرواحهم في سبيل الله عليهم رحمة الله وسلامه، وكذلك الإمام يحيى بن زيد، والإمام الصادق جعفر بن محمد عليهم السلام، كل هؤلاء كان لهم ما تعجز عن صفته الأقلام في نشر الدين وإيضاح الحق، وذلك معروف عند من له علم بالتاريخ.

وكذلك الإمام الحسين بن علي الفخي عليه السلام.

وكذلك الإمام أبو عبدالله أحمد بن عيسى بن زيد فقيه آل محمد صاحب الأمالي المعروفة بعلوم آل محمد.

وكذلك الإمام السابق محمد بن إبراهيم الذي ورد فيه عن الباقر عليه السلام: إن الله يباهي به الملائكة.

(28/1)

وكذلك الإمام نجم آل الرسول، وإمام المعقول والمنقول، القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام قام بالدعوة إلى الله، وتشرّد في البلاد هرباً من الظالمين فلم يعقه ذلك عن نشر العلوم، وإبانة الحق، بل كان ينشرها في حال التشرد والخوف، كما في مناظرته مع الملحد، وقد استقرّ في بلاد الرس فملأ الدنيا علوماً، وقصد محل هجرته كثير من طلاب العلم النبوي، فأرشد الكثير وأفادهم، وتخرج عليه الكثير من العلماء والفقهاء.

وإنما ذكرت لك فيمن ذكرت لتعلم أنهم صلوات عليهم سلسلة متصلة بسيد الأوصياء، وخاتم الأنبياء صلوات الله عليهم، لم يختلط بها جهل ولا انقطاع، بل كانت علومهم يلقيها الأول إلى الآخر تلقيناً في الصغر واستدلالاً في الكبر.

من قولهم مسند عن قول جدهم .... عن جبرئيل عن الباري إذا قالوا

فهم كما ترى في كل عصر كوكبة تنير الظلم، وتحفظ الدين، وترد كيد الكائدين، لا تحتاج إلى التنقيب عن عدالتهم، بل هم مشهورون بالعلم والزهد والفضل، ولم يتجهوا إلى الدنيا مع اقتدارهم عليها، بل أعرضوا عنها، فلم يُظن بهم اتباع هوى، ولا اقتراف ذنب، ولا ميل عن حق.

ومع ذلك شهادة الصادق المصدوق لهم صلوات الله عليه وعليهم في حثه للأمة في الخبر المتواتر على التمسك بهم حين قال: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى)).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أهل بيتي كالنجوم كلما أفل نجم طلع نجم)).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن عند كل بدعة يكاد بها الإسلام ولياً من أهل بيتي موكلاً، يعلن الحق وينوره ويرد كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار وتوكلوا على الله)).

(29/1)

وفيهم من كلام الله وكلام رسوله ما قد ملأ الأسفار، واشتهر اشتهار الشمس وسط النهار، ولمعرفة المزيد من ذلك عليك بمراجعة:

كتاب الشافي للإمام عبدالله بن حمزة عليه السلام.

تخريج كتاب الشافي للمولى العلامة الحسن بن الحسين الحوثي رحمه الله.

كتاب ينابيع النصيحة للأمير الحسين عليه السلام.

لوامع الأنوار لحجة عصرنا المولى مجد الدين بن محمد المؤيدي أيده الله تعالى وأطال بقاه.

شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني.

كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة.

وغيرها كثير، فإنك إذا تصفحتها رأيت ما يبهرك من كثرة المناقب والفضائل والدلائل الدالة على حجيتهم، ووجوب اتباعهم.

وبذلك علمت أنه لا يعرض عنهم إلا معرض عن دين الله، ولا يعاديهم إلا محادّ لله.

قال مولانا الحجة شيخ الإسلام وإمام أهل البيت الكرام/ مجد الدين بن محمد المؤيدي أيده الله في كتابه (التحف شرح الزلف) في أثناء ترجمته للإمام الهادي عليه السلام [ص 178، الطبعة الثالثة] بعد تعديده مؤلفات الإمام الهادي عليه السلام ما لفظه: ((قلت فانظر إلى هذا مع اشتغاله بإظهار الدين الحنيف، وضربه بذي الفقار رؤوس أهل الزيغ والتحريف، وقد كان ابتداؤهم في التأليف من عصر الوصي عليه السلام، فقد كانوا يكتبون ما يمليه عليهم من العلوم الربانية والحكم البالغة التي خص الله بها أهل هذا البيت الشريف، ومؤلفاتهم بين ظهراني الأمة قد ملؤوها بحجج العقول، وأكدوها بصحاح المنقول، أما التوحيد والعدل فإمامهم فيه والدهم الوصي، الذي خطب به، وبلغ الخلق على رؤوس المنابر، ولقنه أولاده الوارثين له كابراً عن كابر، وأمّا سنّة جدهم فمن باب المدينة دخلوا، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه، ولقد حفظ بعضهم عن باقر علم الأنبياء محمد بن علي سبعين ألف حديث.

(30/1)

وأما علوم اللغة فمنها ارتضعوا، وفيها دبّوا ودرجوا، ومن زلالها كرعوا، يتلقونها أباً عن أب، لم تدنسها ألسنة العجم، ولا غيرتها تحاريف المولّدين، بل تربّوا في حجور آبائهم الطاهرين ليس لهم همّ إلا تعريفهم ما أنزل الله من الفرائض، وتبيين ما ضل عن الخلق من الغوامض، لم يكن بينهم وبين أبيهم أمير المؤمنين، وأخي سيد المرسلين – من كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، من احتذت على آثاره فصحاء الأمة، واقتبست من أنواره بلغاء الأئمة – إلا إمام سابق ومقتصد لاحق، وهم العرب الصميم، وأرباب زمزم والأباطح والحطيم، فلولا أن ما نقلته النقلة من أهل اللغة موافق لكلام الله وكلام رسوله، وأهل بيته لما قبلناه منهم، ولما أخذناه عنهم، فهو معروض على هذه الأصول الحكيمة، والقواعد الراسخة القويمة، ومن له عناية في اقتفاء آثار أهل بيت نبيه أمكنه أن يأخذ من كلامهم متون اللغة وإعرابها، وتصريفها، ومعانيها، وبيانها، وبديعها، وتأليفها، وحقائق التأويل، وطرائق التنزيل، فلم يأتمنهم الله على دينه إلا وهم أهل لحمله وتلقينه، ؟اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ؟[الأنعام:124].)) انتهى.

ومن هنا يظهر لنا سبب تفرّق الأمة، وأنه تَرْكها لقادتها، واتباعها لغيرهم، بل وقتلهم إياهم، وتشريدهم وتطريدهم. ومن خالف دليله أو قتله في وسط المفازة المغوية ضلّ بلا شك ولا ريب، وقد أنبأنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن التمسك بهم أمان من الضلال. ويظهر أيضاً السبب الذي يمكن للأمة لو تركت الأهواء أن تتوحد حوله، لا ما يُرَوّقه البعض من أن الدوافع للوحدة تساهل الناس في دينهم، وإهمالهم لبعض عقائدهم، لأن الاعتصام يجب أن يكون بحبل الله، وهم والقرآن حبلُ الله، وهم تراجمة كتابه، فيجب على كل دعاة الوحدة الإسلامية الدعوة إلى الالتفاف حول كتاب الله وحول تراجمته، ليكون التوحد على الحق، وعلى ما أراد الله.

(31/1)

ولو أننا نظرنا في تاريخهم وسيرهم بغض النظر عن ما جاء فيهم، لكان ذلك كافياً لنا في أنهم أهل الدين وحرّاسه، وعموده وأساسه، وأن من أراد الحق كان تابعاً لهم صلوات الله عليهم، وأن من جانبهم أو عاداهم ما جانبهم ولا عاداهم إلا اتباعاً لهواه، طاعة لحقد دفين عليهم، أو حسداً في صدره عليهم ؟أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا؟[النساء:54].

وبهذا يظهر لك عدم صحة ما يتقوله من ينسبهم إلى المعتزلة، مع أن المعتزلة يفتخرون بانتسابهم إليهم، ويسندون مذهبهم إلى علي عليه السلام، وهؤلاء المتقولون ليس لهم دليل ولا ما يشبهه على نسبة مذهب أهل البيت عليهم السلام إلى المعتزلة إلا توافقهم في العدل والتوحيد.

ويكفي في الرد عليهم تصريح المعتزلة بإسنادهم لمذهبهم إلى علي علي السلام، وأيضاً السلسلة التي

ذكرناها من أهل البيت متصلة إلى علي عليه السلام، يأخذ كل عالم من عالم أو علماء من أهله، لم تحصل فترة انقطاع حتى يأخذوا فيها عن غير أهلهم.
يقول الإمام أبو طالب عليه السلام في كتابه (الدعامة) – الذي طبعه الدكتور ناجي حسن تحت عنوان الزيدية للصاحب بن عبّاد وهو للإمام أبي طالب عليه السلام – ص(242) الطبعة الأولى (1986م)، طبع (الدار العربية للموسوعات) في الاستدلال على إمامة الإمام زيد عليه السلام ما لفظه:

(32/1)

((فمنها [أي من خصال الإمامة فيه عليه السلام] اختصاصه عليه السلام بعلم الكلام، الذي هو أجلّ العلوم وطريق النجاة، والعلم الذي لا ينتفع بسائر العلوم إلا معه، والتقدم فيه والاشتهار عند الخاص والعام. هذا أبو عثمان الجاحظ يصفه في صنعة الكلام ويفتخر به، ويشهد له بنهاية التقدم فيه، وجعفر بن حرب يصفه في كتاب الديانة، وكثير من معتزلة بغداد كمحمد بن عبدالله الإسكافي، وغيره ينتسبون إليه في كتبهم ويقولون: نحن زيدية، وحسبك في هذا الباب انتساب المعتزلة إليه مع أنها تنظر إلى سائر الناس بالعين التي تنظر بها ملائكة السماء إلى أهل الأرض مثلاً، فلولا ظهور علمه وبراعته وتقدمه عليه السلام كل أحد في فضيلته لما انقادت المعتزلة له، وإذا أردت تحقيق ما قلناه فَسُمْ بعض تلامذتهم أو متوسطيهم أن ينسب إلى غيره من أهل البيت عليهم السلام ممن بعد، ممن لا تحصيل له في رتبة زيد عليه السلام، لتسمع منه العجائب.)) انتهى.

(33/1)

المؤلف
وامتداداً لهذا النور وتواصلاً لهذه السلسلة المباركة كان وجود الإمام الأعظم، إمام اليمن، محيي الفرائض والسنن، وليس محتاجاً إلى تعريف فهو أعرف من المعرفة وأشهر من نار على علم، عَرَفه الخاص والعام، والعالم والجاهل، والمخالف والمؤالف، قام في اليمن باحياء الفرائض والسنن، وأباد البدع والمبتدعين، مقارعة بالحجة والبيان، وجهاداً بالسيف والسنان، لم تزل كراماته إلى هذا الزمن تترى، يعرفها العامة والعلماء، ونحن سنذكر هنا شيئاً من أحواله وفضائله تبركاً بذلك فنقول:
هو الإمام الهادي إلى الحق أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

أمه أم الحسن بنت الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ولد بالمدينة المنورة سنة خمس وأربعين ومائتين.

وكان له أهمية كبيرة بين أهله عليهم السلام منذ مولده لما فيه من الأخبار والبشارات به لديهم.

فقد حمل حين ولد إلى جده القاسم عليه السلام فوضعه في حَجْره المبارك وعوّذه وبرّك عليه، ودعا له، ثم قال لأبيه بم سميته؟.

قال يحيى، وقد كان للحسين أخ لأبيه وأمه يسمى يحيى توفي قبل ذلك، فبكى القاسم عليه السلام حين ذكره وقال: هو والله يحيى صاحب اليمن.

قال الإمام أبو طالب عليه السلام في كتابه الإفادة في تاريخ الأئمة السادة بعد حكاية هذه القصة: وإنما قال ذلك [يعني القاسم عليه السلام] لأخبار رُويَت بذكره وظهوره باليمن، وقد ذكرها العباسي المصنف لسيرته عليه السلام.

(34/1)

وكذلك في حال كبره كانت له بين أهله المكانة المرموقة، يروي مصنف سيرته علي بن محمد العباسي العلوي عن أبيه محمد بن عبيدالله رضي الله عنهم أنه كان مع الهادي عليه السلام ومعه أبوه الحسين بن القاسم وعمّاه محمد والحسن وأخوه عبدالله بن الحسين عليهم السلام وجماعة فتيانهم، وأنه كان في مسجد قدّام المنزل الذي كانوا فيه قال: فلما حضرت صلاة العَتَمة قمنا إلى الصلاة، فقال الهادي إلى الحق لعمه محمد بن القاسم: تقدم ياعم صلّ بنا، فقال: سبحان الله يا بني لا يجوز أن أتقدم عليك!

فقال الهادي إلى الحق: قد جعلت الأمر إليك، فتقدم فصل بنا.

فتقدم محمد بن القاسم صلى الله عليه، فصلى بنا العَتَمة، فلما فرغ من صلاته وسلم، التفت إلى الهادي إلى الحق، فقال له: يا ابن أخي استغفر لي، فإني قد تقدمت عليك، وصلّيت بك، وكنتَ أحقّ بالتقدم مني، فقال له الهادي إلى الحق: غفر الله لك ياعم. انتهى من سيرة الهادي عليه السلام ص 37 بتصرف.

ومن الأخبار الواردة فيه صلوات عليه ما نقله صاحب الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية تأليف الفقيه الأجل العالم حسام الدين حميد بن أحمد المحلي، قال: وقد رُوينا عن بعض علمائنا رحمهم الله تعالى رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((يخرج في هذا النهج – وأشار بيده إلى اليمن – رجل من ولدي اسمه يحيى الهادي، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يحيي الله به الحق ويميت به الباطل)) انتهى.

هذا وورعه وشجاعته وزهده وعبادته شهيرة ظاهرة بين أهل النقل، حتى بين المخالفين، ولو نقلنا ذلك لاحتجنا إلى نقل كلام كثير، ومن أراد الاطلاع على ذلك فليراجع:

سيرته عليه السلام، تأليف علي بن محمد بن عبيدالله العلوي تحقيق الدكتور سهيل زكار طبعة دار الفكر.

الشافي للإمام عبدالله بن حمزة عليه السلام.

شرح أنوار اليقين للإمام الحسن بن بدر الدين.

(35/1)

الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية تأليف حميد بن أحمد المحلي رحمه الله.

الإفادة في تاريخ الأئمة السادة للإمام أبي طالب عليه السلام.

التحف شرح الزلف للمولى الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي أيده الله.

وغيرها فإنك إذا راجعت سيرته، وعرفت أحواله، عرفت أنها سيرة أئمة الهدى الذين يسيرون سيرة علي المرتضى، والنبي المصطفى، عليهم صلوات الله وسلامه.

أما علمه عليه السلام فلا يحتاج إلى استشهاد، لانتشار مؤلفاته وأقواله، بل لقد كان سباقاً في معرفة علوم المخالفين وفقههم، مبرزاً فيه حتى على علمائهم، يقول أبو بكر بن يعقوب عالم أهل الري وحافظهم، حين ورد عليه اليمن فيما رواه عنه الإمام أبو طالب عليه السلام في كتاب الإفادة في تاريخ الأئمة السادة:

((قد ضل فكري في هذا الرجل – يعني يحيى بن الحسين عليه السلام – فإني كنت لا أعترف لأحد بمثل حفظي لأصول أصحابنا، وأنا الآن إلى جنبه جذع، بينا أجاريه في الفقه وأحكي عن أصحابنا قولاً، إذ يقول: ليس هذا يا أبا بكر قولكم فأرادُّه، فيخرج إليّ المسألة من كتبنا على ما حكى وادعى، فقد صرت إذا ادعى شيئاً عنّا أو عن غيرنا لا أطلب معه أثراً.)).

(36/1)

جهاده

أما جهاده عليه السلام فقد قام في أرض اليمن وظهر سلطانه، وطرد جنود المسودة بعد وقعات كثيرة كانت اليد له فيها عليهم سنة ثمانين ومائتين.

وله عليه السلام مع القرامطة نيف وسبعون وقعة، كانت له اليد فيها عليهم، وله ليلة معهم تشبه ليلة

جده علي بن أبي طالب عليهم السلام التي تسمى ليلة الهرير، لم يحص هو ولا غيره كم قتل فيها، وكان موصوفاً من حال صباه بفضل القوة والشدة والبأس والشجاعة، وكان يضرب ضربات جده أمير المؤمنين عليه السلام.

(37/1)

صفته عليه السلام

كان أسدياً أنجل العينين، غليظ الساعدين، بعيد ما بين الصدر والمنكبين، خفيف الساقين والعجز، كالأسد.

(38/1)

مؤلفاته عليه السلام

أما مؤلفاته ففيها العلوم الواسعة في شتى فنون العلم منها غير ما في هذا المجموع:

الأحكام في بيان الحلال والحرام جزآن مطبوع.

المنتخب مما سأل عنه محمد بن سليمان الكوفي يحيى بن الحسين عليه السلام مطبوع.

وكتاب المزارعة.

وكتاب أمهات الأولاد.

وكتاب العهد.

وكتاب تفسير القرآن ستة أجزاء.

ومعاني القرآن سبعة أجزاء.

وكتاب الفوائد جزآن.

وكتاب مسائل نصارى نجران.

وكتاب بوار القرامطة.

وكتاب الرد على الإمامية.

وكتاب الخشية.

وكتاب النهي.

وكتاب تثبيت الإمامة.

وكتاب الفنون.

وكتاب الرضاع.

قال المولى الحجة العلامة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي في كتاب التحف شرح الزلف ص 172 الطبعة الثالثة:

((وما نشر الله في أقطار الدنيا أنواره، وبث في اليمن الميمون بركاته وآثاره منذ أحد عشر قرناً، إلا لشأن عظيم، ولقد ملأ اليمن أمناً وإيماناً وعلماً وعدلاً، ومساجد ومعاهد، وأئمة هدى، وما أصدق قول القائل فيه عليه السلام:

فسائل الشهب عنه في مطالعها

سل سنة المصطفى عن نجل صاحبها

والفجر حين بدا والصبح حين أضا

من علم الناس مسنوناً ومفترضاً

وكراماته المنيرة، وبركاته المعلومة الشهيرة، مشرقة الأنوار، دائمة الاستمرار على مرور الأعصار، وما أحقه بقول القائل في جده الحسين السبط صلوات الله:

أرادوا ليخفوا قبره عن وليه

فطيب تراب القبر دل على القبر

(39/1)

وفاته عليه السلام

قبضه الله إليه شهيداً بالسم وعمره ثلاث وخمسون سنة، ليلة الأحد لعشر بقين من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين ومائتين، ودفن يوم الإثنين في قبره الشريف المقابل لمحراب جامعه الذي أسسه بصعدة.

(40/1)

الكتاب

أما الكتاب فهو جنة كثيرة الأشجار، متنوعة الثمار، دانية القطوف، فيه كتب كثيرة الفائدة، وهذه الكتب تحف مرصعة بجواهر الأدلة العقلية والنقلية، وفيها شفاء لكثير من أدواء هذه الأمة، التي كان أهل هذا البيت عليهم السلام أحرص الناس على وقايتها من ما وقع عليها منها، وعلى شفائهم مما أصيبوا به منها، أسوة منهم صلوات الله عليهم بجدهم صلى الله عليه وآله، وكتب هذا المجموع هي:

كتاب البالغ المدرك:

وفيه يشرح الإمام عليه السلام ما يجب على البالغ المدرك من النظر بعقله في أعاجيب المخلوقات، ليعرف أن لها مدبراً حكيماً، ثم يعرف نعمه عليه، ثم وجوب شكرها عليه، ثم معرفة أن داراً بعد هذه الدار يثاب فيها المطيعون، ويعاقب العاصون، ثم معرفة أنه لا بد من رسول مؤيد بالمعجزات لينبيء عن الله بما يجب شكره به، ثم ما يلزم من أدرك الرسل، وما يلزم من تراخت به الأيام عن عصرهم، وبيّن فيه أقسام الأخبار، ثم بين فيه الفترات التي بين الرسل التي يتحير في مثلها الضلال، وذكر أيضاً النظر الصحيح وشروطه، وجعل الاستدلال فيها عقلياً.

وكتاب معرفة الله عز وجل من العدل والتوحيد وإثبات النبوة في النبي عليه وآله السلام:

شرح فيه عليه السلام هذه الأصول وذكر أدلتها، وشروط الإمام، وذكر فيه سبب رفض الرافضة للإمام زيد بن علي عليه السلام، وذكر فيه مفاهيم متفرقة يوردها المجبرة شبهاً للقول بالجبر ؛ مثل: الهدى والضلال والإثم والإرادة ونحوها، وكذلك فسّر عليه السلام فيه معاني متفرقة للكفر ؛ والشرك؛ والمحكم؛ والمتشابه؛ وغيرها، وذكر فيه أيضاً تنزيه الأنبياء عليهم السلام.

كتاب التوحيد:

وفيه يذكر وحدانية الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، وعن أن يرى بالأبصار ، وذكر فيه العلم والقدرة والسمع والبصر ، وما يوصف الله به، ونفي البدا عنه، وأن العقل حجة على أهل الفترة، وأنه لا يغضب على من لم يغضبه، ولا يرضى على من لم يرضه.

(41/1)

جواب مسألة الرجل من أهل قم:

وفيها سأله عن معرفة الله تبارك وتعالى ما تصرفها في الخلق، وكيف تكوينها في العباد، وما محلها في الأجساد، وهل هي من أفعال المخلوقين، أم هي خلق لأحسن الخالقين.

وأجابه عليه السلام بأنها كمال العقل، وأنها متفرعة منه، محتاجة إليه، وأطال في الاستدلال على ذلك، وأورد إيرادات وأجاب عنها، وسأله عن الدليل على أن الله خلق الأشياء لا من شيء، وعن العلة في بعثة الرسل.

وجواب مسائل الحسين بن عبدالله الطبري:

وحاصلها التباس على السائل في وجه بعض ما فعله الهادي عليه السلام من السيرة؛ من الزيادة على الحد، وخرص الثمار ، وأخذ المال من الرعية، وكذلك سأله عن جواز العشر لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك كيفيه قسم الزكاة على أصنافها، وسأله بم تثبت الإمامة في الإمام من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فأجاب عن ذلك، وكشف المشكل وحله، وضرب الأمثال، وكذلك الدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه وجه الكلام إلى من يقر بالتوحيد، وذكر معجزات له صلى الله عليه وآله وسلم وتواترها، وأنه يحصل العلم بالمتواتر.

وكتاب الجملة وفيه ذكر جملة أصول الدين:

وأصول الشرائع، وكثير من الشرائع على سبيل التعديد والجمل.

(42/1)

وكتاب المنزلة بين المنزلتين:

وفيه ذكر الدليل على أن الحق في يديه هو ومن معه دون غيرهم، فقسم الأمة إلى أصنافها، ثم ذكر كل أصل خُولف فيه، فأثبت شهادتهم على كل أصل وبقاءه عليه، وخروج المخالف عن الأصل بأسلوب عجيب.

ثم ذكر فيه أبواباً يبين ذكر الله لكل أصل منها في كتابه، ويورد في ذلك الباب ما في ذلك الأصل من الآيات مثل: التوحيد، وخلق القرآن، وعدل الله في كتابه، وذكر قضاء الله في كتابه، وذكر قدر الله في كتابه، وذكر الإرادة في الكتاب، وذكر المشيئة في الكتاب، وذكر المحبة في الكتاب، وذكر الرضى في الكتاب، وذكر أعمال العباد في كتاب الله، وذكر مشيئة العباد وإرادتهم في كتاب الله، وذكر العبادة في الكتاب، وذكر أن الله لم يفعل فعل عباده في الكتاب، وذكر الاستطاعة في الكتاب، وذكر عدم تعذيب الله الأطفال والمجانين ولا من ليس له ذنب في الكتاب، وذكر حسن نظر الله لعباده في الكتاب، وذكر المؤمنين في الكتاب، وذكر الأعمال الصالحة في الكتاب، وباب ذكر الوعيد في الكتاب، وباب ذكر أهل الكبائر وبراءتهم من الكفر، وباب ذكر الأحكام في الكفار، وباب ذكر المنافقين في كتاب الله، وباب ذكر المنزلة بين المنزلتين في الكتاب، وباب ذكر القيام بالقسط في الكتاب.

وكتاب تفسير العرش والكرسي:

وفيه يذكر المشبهة، وشيئاً من أقوالهم، ثم يذكر تفسير العرش والكرسي، وشرح ذلك، واستدل عليه.

وجوابه لأهل صنعاء على كتاب كتبوه إليه عند قدومه البلد:

وفيه يذكر جملة ما يدين الله به في كثير من مسائل الشريعة.

وكتاب أصول الدين:

وفيه يذكر ما يدين الله به مع الأدلة من التوحيد، وعدل الله، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وفيمن تكون الإمامة.

وكتاب الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه:
وفيه يفند قول هذا القائل، ويورد عليه الإلزام.

(43/1)

وكتاب فيه جواب مسائل متفرقة سأله عنها ابنه المرتضى عليهما السلام:
وفي آخره مسألتان من مسائل علي بن محمد العلوي.
ومسائل محمد بن عبيدالله:
فيها مسائل متفرقة.
ومسألة في الرد على سليمان بن جرير في الرضى والسخط.
وله موعظة عند آخر حروبه بنجران:
وفيها من الوعظ وضرب الأمثال الكثير الطيب، وفيها من الوعظ ما يذكّر بكلام جده علي عليهما السلام. وفي آخره وصف لبعض سيرة الهادي عليه السلام من محمد بن سعيد اليرسمي وزير الهادي عليه السلام.
وكتاب دعوة وجه بها إلى أحمد بن يحيى بن زيد:
ومن قبله، وفيه مواعظ، وحث على الجهاد، وتبيين لمن يكون معه الجهاد من الأئمة، ومعرفة الإمام.
ومسألة لأبي القاسم محمد بن يحيى عليهما السلام:
سأله عمن قذف مملوكة هل حده كحد من قذف حرة، وعن معنى: ؟مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ...؟[المائدة:103].
وكتاب القياس:
وفيه يورد تساؤلاً عن سبب افتراق الأمة في الحلال والحرام، وأنه مخالفتهم لأهل البيت عليهم السلام، وضرب في ذلك مثالاً، وتكلم وبين معنى أن كل شيء موجود في الكتاب والسنة، ويذكر شروط العالم، وكيف يكون علمه حتى يتمكن من الاستنباط.
والذي يظهر من كلامه عليه السلام أنه لم يرد بالقياس هنا القياس المصطلح عليه عند الأصوليين، بل استخراج كل ما ليس فيه نص صريح سواء كان بالقياس أو غيره، وفيه يذكر تفاضل العلماء في علمهم، وأن أهل البيت عليهم السلام أولى الناس بفهم أحكام رب العالمين، ويذكر فضلهم وعلمهم ووجوب الرد إليهم، والأدلة على اصطفائهم واختيارهم.
وبيّن القياس الباطل، ثم بين من يجب اتباعه من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبيّن أين يقع الاختلاف بينهم، وكيف المخرج منه، وكيف يميز ؟

(44/1)

ومسائل أبي القاسم الرازي رحمه الله تعالى:

وفيه يجيب عن سؤال في المساواة والتفضيل في العقل، وعن كيفية أخذ الوحي عن الله، وعن كيفية الحساب، ومعناه يوم المعاد، وعن معنى يوم القيامة، وعن من تجب عليه الهجرة في سبيل الله، وعن معنى كلام الله لموسى عليه السلام، وعن معنى النفخ في الصور، وعن الروح ما هي؟ وعن فضل الملائكة على الأنبياء، وعن معنى قول الله سبحانه: ؟وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ؟[الزمر:67] وعن معنى قول الله سبحانه: ؟كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ؟[المدثر:38] وعن الفرق بين الاسم والمسمى، وعن وسوسة إبليس كيف تكون منه إلى الآدمي، وعن خلق الملائكة والشياطين من أي شيء خلقت؟ وعن معنى قول الله سبحانه: ؟يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟[إبراهيم:48] وعن أهل القبلة من أين يلزمهم الكفر، وعن إقامة الحق عن من لم يشمله عطاء الإمام، وعن معنى قول الله سبحانه: ؟وإِن مِّن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ؟[الإسراء:44] وعن متى يعلم العبد أنه صادق عند ربه، وعن العقل ما هو؟ وعن رياضة النفس ما هي؟ وكيف تكون؟ وعن متى يعلم العبد أنه مجتهد في رضاء الله، وعن علم العبد أنه قد استوجب الجنة، وعن مساواة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحق بين الغني والفقير، وعن أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجزية من العروض، وعن كيفية تكليم أهل الجنة لأهل النار، وعن اجتماع أهل البيت الواحد في الجنة، وعن المناصفة بين العباد في الآخرة، وعن خروج أكثر من إمام في عصر واحد، وعن قول الله سبحانه: ؟وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ...؟[الأعراف:46]، وعن رفع اليدين في الصلاة، وعن صلاة التراويح في شهر رمضان، وعن الرجل يتزوج امرأة لاتعرف الدين، ومذهبها على خلاف مذهبه، وعن مصالحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنصارى بني تغلب، وعن معراج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء، وعن قول

(45/1)

الله سبحانه: ؟فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؟[النجم:9]، وعن الأعجمي لا يحسن إلا سورة أو سورتين، وعن تعلم النساء.

وكتاب خطايا الأنبياء عليهم السلام:

وفيه يذكر الهادي عليه السلام خطايا الأنبياء التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن، ويورد قصصها ويبين فيه نزاهة الأنبياء عليهم السلام عما رماهم به الجاهلون، وفي آخره مسائل عن آيات

موسى التسع، وعن معنى قوله تعالى: ؟وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ؟[الصفات:96] وعن ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة، وعن تفسير: لاحول ولا قوة إلا بالله، وعن تفسير: العرش والكرسي، وعن الرجل يكتفي باليسير ولا يطلب العلم، وعن الرجل لا يستطيع الهجرة مخافة التلف، وعن معنى قول الله سبحانه: ؟تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء؟[آل عمران:26].

وكتاب الرد على المجبرة القدرية:

وفيه يفنّد قول أهل الجبر، ويورد عليهم آيات من كتاب الله يسألون عنها، ويلزمهم فيها القول بالعدل أو الكفر بما أنزل الله ورده.

وكتاب العرش والكرسي للهادي عليه السلام:

يبين فيه معنى العرش والكرسي، مع ما فيه من الصعوبة.

وكتاب الرد على الحسن بن محمد بن الحنفية:

رد الإمام عليه السلام على ثلاثة وأربعين مسألة أورد فيها السائل كل ما يمكن للمجبرة أن يوردوه، فرد الإمام عليه السلام وبين التفسير الصحيح للآيات التي استدل بها السائل داعماً تفسيره بآيات القرآن الكريم واللغة العربية والعقل، ولم نعرف أحداً رد على هذه المسائل غير الإمام الهادي عليه السلام.

وكتاب الرد على المجبرة القدرية:

مما أجاب به صلوات الله عليه ابنه المرتضى لدين الله محمد بن يحيى، وهو كتاب ذكر فيه ما تحتج به المجبرة، وأبطل احتجاجها، وبين التفسير الصحيح للآيات التي احتجوا بها، وذكر الآيات التي تشهد بعدل الله ونفي الجبر، ثم ذكر شواهد العقل على نفي الجبر وإثبات العدل.

هذا، وقد حاولنا إخراج هذا الكتاب سليماً من الأغلاط قدر الجهد، وقد اعتمدنا على أربع نسخ، وهي:

نسخة وقع الصف عليها، وقد رمزت إليها بـ(أ)، وهي واضحة الخط قليلة الأغلاط، ويظهر أنها قد قرأت على مولانا العلامة المجتهد/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي أيده الله تعالى عام 1359هـ، إذ فيها تعليق في الهامش من إملائه مؤرخ بهذا التاريخ، وهي مصورة على نسخة من مكتبة السادة آل الهاشمي، وهي بخط أحمد بن عبدالله بن أحمد بن علي مشحم، نسخها للسيد إسماعيل بن عبدالله الهاشمي رحمه الله، وتاريخ الانتهاء من كتابتها هو سنة 1335هـ.

نسخة صورتها مكتبة اليمن الكبرى عنوانها (المجموعة الفاخرة) وهي جيدة الخط، وفيها بعض التصحيف، وشيء من النقص في بعض الجمل أو بعض الكلمات، وفي آخرها ما لفظه: (كان تمام

زبر هذا الكتاب المبارك في يوم الجمعة لعله ثامن شهر الحجة الحرام سنة ألف وسبعة وتسعين، وذلك بعناية سيدي الصنو القاضي ضياء الدين يحيى بن الحسين السحولي حفظه الله تعالى بخط العبد الفقير إلى الله الفقيه حسين بن علي حثيث وفقه الله) وقد رمزت إليها بـ(ب).

ونسخة مخطوطة من كتب السادة آل العنثري وهي واضحة الخط قليلة الأغلاط.

ونسخة مصورة من مكتبة السيد العزيز عبد الحميد سراج الدين عدلان حفظه الله تعالى، وهي جيدة الخط قليلة الأغلاط.

هذا بالإضافة إلى رسائل العدل والتوحيد دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة.

هذا وقد جعلنا ما كان منا إضافته بين معكوفين، هكذا [ ]، ولم نزد فيها شيئاً، ولم ننقص. وقد نقلنا هوامش من نسخة ((أ))، ونبهنا على ذلك بقولنا: تمت هامش ((أ)).

وأرجو من كل من وجد خطأ أن ينبهني عليه أو يصلحه، فالنقد عمل إيجابي لا يجوز أن ندعو الناس إلى تركه ونتَّهِم مَنْ مارسه بأنه صار عبئاً على المجتمع؛ كما يقوله بعض المحققين الذين عمدوا إلى التلاعب بكتب الزيدية –حرسها الله – بدعوى التحقيق.

(47/1)

هذا، وأتقدم بجزيل الشكر إلى كل من قدم لي العون والمساعدة من المشائخ، والطلاب، والزملاء، والأصدقاء حفظهم الله، وجزاهم الله خيراً كثيراً.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله أولاً وآخراً.

عبدالله بن محمد الشاذلي
مركز أهل البيت عليه السلام للدراسات الإسلامية
اليمن – صعدة – ص ب (91064)

(48/1)

كتاب البالغ المدرك

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

آمين

قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم:

(49/1)

النظر للعلم بوجود المدبر الحكيم

يجب على البالغ المدرك في بلاد الكفر وغيرها أن ينظر إلى هذه الأعاجيب المختلفات المدركات بالحواس من السماء والأرض، وما بثّ فيهما من الحيوان، المجتلبة إلى أنفسها المنافع، النافرة عن المضار، أنها محدثة؛ لظهور الإحداث فيها، معترفة بالعجز على أنفسها، أنها لم تصنع أنفسها ولم تشاهد صنعتها، وتعجز أن تصنع مثلها، وتعجز أن تصنع ضدها.

فلما شهدت العقول على أن هذا هكذا، ثبت أن لها مُدَبراً حكيماً دبرها، ومعتمداً اعتمدها، وقاصداً قصدها، ليس له شبيه ولا مثيل؛ إذ المثل جائز عليه ما جاز على مثله: من الانتقال، والزوال، والعجز، والزيادة، والنقصان؛ وأن بإحداثه إياها له المنَّة عليها ببقائها، إذ كانت الرغبة منها في البقاء ونفورها عن الفناء دالة على المنة عليها بالبقاء، وأن الممتن عليها ببقائها هو المنعم عليها بإحداثه إياها.

(50/1)

وجوب شكر المنعم

فإذا علم البالغ المدرك أن هذا هكذا، كان عليه أن يشكر المنعم عليه، فإذا علم أن شكر المنعم عليه واجب، كان عليه أن يشكر المنعم، وشكر المنعم عليه هو الطاعة له.

(51/1)

معرفة الآخرة

وفي الحكمة التقويم بين المطيع والعاصي، وفي ذلك إيجاب الثواب والعقاب. فلما تصرمت أعمار المطيعين ولم يثابوا، وتقضت آجال العاصين ولم يعاقبوا، وجب على قود التوحيد واطراد الحكمة أن داراً بعد هذه الدار يثاب فيها المطيعون، ويعاقب فيها المسيئون. وهذه أمور أوجبتها الفطرة،

واستحقت بالإيمان. وقليل من تقررت المعرفة في قلبه إلا باستقرار أدلتها، وشهادة بعضها على بعض، وتضمين كل شيء منها ما قبله وبعده، واستطراد ذلك كله في العقول.

(52/1)

معرفة أنه لا بد من رسول

فلما أن كان ذلك كذلك، كان في ضرورة العقل أن لا سبيل له إلى علم كيفية الطاعة من دون الخبر من عند المنعم بكيفية الطاعة، إذ لا يمكن الخبر من الله ملاقاةً لله. فإذا علم أن الخبر لا يمكن من الله مشافهة لله، علم أن خبر الطاعة لا يمكن إلا برسولٍ من عند المنعم، باين من البشر في أعلامه وأفعاله. فمن ههنا لزم البالغ المدرك أن يعلم أن لله رسولاً لا من قبل إخبار الناقلين.

فلما لم يجز إلا بعثة الرسل، وكانت الرسل من البشر وفي مثل تركيب المبعوث إليهم، وعباداً لله مثلهم لم يجز تصديقهم على الله إلا بدلالة بينة وحجة قاطعة، يعلم الخلق بعجزهم عنها أن الله تولى ذلك على أيديهم، فجاءت الرسل بالآيات التي ليس في قوى الخلق المجيء بمثلها، فوجب تصديقهم على الله بعد الحجة والبيان.

فمن أدرك أزمنتهم وشاهدهم في عصورهم، وقامت عليه حجتهم، لزمه الإقرار بهم والتسليم لأمرهم، والقبول لما جاءوا به، وسقط عنه كثير من الكلفة في تمييز الأخبار، وامتحان الناقلين، وبحسب ما قامت عليه الحجة، كلفه الله الذب عن دينه والقيام بحجته.

ومن تراخت به الأيام عن لقائهم، وكان في غير أعصارهم، كانت الحجة عليه في معرفتهم، والتصديق لما جاؤا به، والديانة لما دعوا إليه، تواتر الأخبار التي في مثلها يمتنع الكذب، ولا يتهيأ بالاتفاق، ويكون سامعها مضطراً في فطرته إلى أن ناقليها لا يمكن مثلهم الكذب، ولا التواطؤ على مقالة: كقوم مختلفي الأجناس، متبايني الديار، متقطعي الأسباب، متفاوتي اللقاء، متراخي الأزمنة، ينقلون خبراً واحداً، متسق النظام، محروساً من الغلط، محصناً من الوهم، ولعله يخرج في مال أحدهم وبدنه، لا يعارضهم فيه معارض بتكذيب، قد كاد يكون ولما أن يكون عياناً.

(53/1)

ورود الأخبار الكاذبة

وقد يجيء بين ذلك أخبار، بعضها مستحيل كونه في العقول، ويبعد أن يجيء بمثلها رسول، لما

فيها من الكذب والزور، ولن تجيء هذه الأخبار مجيء إجماع أبداً، وإنما سبيلها: الشذوذ والغلط في التأويل، وفي معرفة مخرج الخاص من العام، وفي معرفة المحكم من المتشابه.

(54/1)

أقسام الأخبار

فمن هذه الأخبار ما هو في أصله منسوخ، ومنها ما هو في مخرجه عام، وفي معناه خاص، ومنها متشابه يحتاج إلى بيان، ومنها ما حفظ أوله ونسي آخره، ومنها ما روي مرسلاً بلا حجة فيه ولا تبيان لمتدبريه، ومنها ما دلس على الرواة في كتبهم. فيا لله كيف حارت العقول، وقلّدت الأتباع، وتقسمت الأهواء، وتفرقت الآراء، ونبذ القرآن، وغيرت السنن، وبدلت الأحكام، وخولف التوحيد، وعاد الإسلام غريباً، والمؤمن وحيداً خائفاً، والدين خاملاً!

فتسديدك اللهم وعونك، فإنا لم نؤت في تفرقنا من قبلك، ولا في اختلافنا من قدرك، كذب المدعون ذلك فيك، وهلك المفترون ذلك عليك، ونحن الشهود لك على خلقك، والناصبون لكل من عَنَدَ عن دينك، واتهم قضاءك، وجانب هداك، وأحال ذنبه عليك، ونسب جوره إليك، أو قاسك بمقدار، أو شبهك بمثال، وقد قطعت العذر بكتابك المنزل، وأكملت دينك على لسان نبيك المرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أمَّا بعد: فإن الدين لما عفت آثاره، وانطمست أعلامه، واضمحلت أنباؤه، وسدت مطالعه عندما فقد من أنصاره والقائمين بحفظه وحياطته نطق الكاظمون، وظهر المرصِدُون، ولله جل ذكره إلى كل رصد من الباطل طلائع من الحق، ومع كل داع إلى الضلال بينات من الهدى، وإلى جنب طريق كل حيرة سبب واضح من الإرشاد، وفي كل شيء حجة قاطعة.

فأمَّا رسل الله صلوات الله عليهم فقد قاموا بحجج البلاغ، وأدوا وظائف الحقوق، وبلغوا ما عليهم من فرض النصيحة، وأنفذوا شرائط الله عليهم في خلقه، ووقفوا العباد على سبيل النجاة، وسلكوا بهم منهاج السلامة، وحذروهم طرق الحيرة، واحتملوا في جنب مرضاته الصبر في البأساء والضرَّاء، صلوات الله عليهم ورحمته.

(55/1)

ذكر الفترة والعمل فيها

وفيما بين أزمنة الرسل فترات في مثلها يتحير الضُلاَّل، ويدفن الحق، ويغمض البرهان بتظاهر

الجبارين على أولياءِ الله، وهنالك يندب الشيطان ولاته، ويبث دعاته، وينصب حبائله، ويدخل على الناس الشبهة، ويضطرهم إلى الحيرة، وليست فترة من الهدى، ولكنها فترة من الرسل، وفيها كتبه وحججه، وبقايا من أهل العلم، يُحْيُون العلم ويَحْيَون به، قد وجهوا لله من رغبتهم، وامتحنهم الله بأهل دهرهم، قد تمسكوا بنور كتابه، وعرفوا مواقع حججه في كل بدعة حدثت، أو شبهة نزلت، فهم من الناس في أذى وجهد، ومن الله في كلاءة وحفظ، فهم الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، ولن تخلو أمة من مغتال لها مفرق لجماعتها، وآخر داعٍ إلى هداها وصلاحها.

(56/1)

فمن نظر ، فاعتدلت فطرته، وصفت طبيعته، وكان نظره بعين النصيحة لنفسه، قد مَلَّك عقله الحكم على هواه، وقيّد شهواته بأسار الذل تحت سلطان الحكمة، فأسلمه ذلك إلى مباشرة اليقين بربه، فاستلان ما استوعر منه المترفون، واستأنس إلى ما استوحش منه الجاهلون، وصحب الدنيا أيام حياته، وقلبه معلق بالمحل الأعلى، لا تعتريه سآمة ولا فتور من طلب ما أمّل من عيش مقيم، قد أيقن بالخَلَف فجاد بالعطية، دله الله فاستدل، وخاطبه ففهم عنه أحسن الإرشاد، طيبةً نَفْسُه بكل ما بذل في جنب الله، لأنه هجم على اليقين، وأنس بالتقوى، فضمنت له النجاة، وخرج من غمرات الشكوك إلى روح الاستيقان، فأقام الدنيا مقامها الذي أقامها الله [عليه]، واستهان بالعاجلة وآثر العاقبة، ومهَّد لطول المنقلب... ولن يعدم أن يكون في الخلق من قد استبهم عن الفهم، وولج في مضايق الحيرة، أعمى حيران يدعو إلى العمى ويقول: أعتزل البدع؛ وفيها اضطجع، ويقول: أجتنب الشبهات؛ وفيها وقع، متبع لآثار أوليه، مقتدٍ بآبائه، أكثر ما عنده تقليد أسلافه، وائتمان أكابره، والإنسان على ما جرت به تربيته، والإلف إلى ما سبق إلى اعتقاده، ضنين بفراق عادته، لم يتقسم التفتيش قلبه ولم يجتز في طرق البحث فكره، ولم تميّزه المناظرة، فلم يعتوره الاحتجاج، ولم يتنسم روائح اليقين، ولا نظر في العلل التي معرفتها نهاية الاستبصار ، متوسد غمرة الاختلاف، وحيرة الفرقة، غفل عن تمييز الأمور؛ فهو عقيم القلب عن لقاح الهدى، ظمآن إلى مرشد يحسن تبصرته، ويريه الحق من وجوهه، وليس على اليقين مما اعتقد، والظن مستول على قلبه، والشبهة دواؤه، والحيرة ثمرته، نتاج إرادته كثرة الاختلاط. ولكل أمر سبب، والعلل كثيرة، والأسباب متفاوتة مجتمعة ومفترقة، لا يميزها إلا من وطي أوائل الأمور التي بها يهجم على معرفتها، ولكل شيء منها حدٌّ متى تعدي سلّم متعديه إلى الهلكة؛ لأنه جزء الحدود المضروبة له.

(57/1)

ذكر شروط النظر

فواجب على كل بالغ عاقل أن ينظر في نجاته، ولن ينتفع ناظر بنظره إلا بسلامة قلبه من الزيغ، وطهارته من الهوى، وبرأته من إلف العادة التي عليها جرى. والقصد بإرادته ونيته إلى العدل والنَّصَفة، وإعطائه كل أمر من الأمور بقسطه، والحكم عليه بقدره، وأخذ نفسه بالوظائف المؤدية له إلى النجاة، وحراسة قلبه من الأمور المسلِّمة له إلى الضلال، والحائلة بينه وبين حسن الاصطفاء، واختيار الصواب، وترك التقليد، ويكون طالباً لقيام الحجة لازماً لمنازل القرآن، متمسكاً به، مؤثراً له على ما سواه، ملتمساً للهدي فيه، فلن يعدم الهدى من قصد قصده، لأن الله جل ذكره ضمن لمن اتبع هداه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

فبمثل هذه الشروط يستنير البرهان، ويستشف الغامض من الصواب، ويستبين دقائق العلوم، ويهجم على مباشرة اليقين بربه، فيهتك الشكوك عن قلبه، يؤيد بنيته ويصعد في درجات اليقين بربه، أولئك أهل العقول الراجحة، والفطر الصحيحة، والآراء السليمة، وأولئك بقيه الله في خلقه، وخيرته من عباده، وخلصاؤه من بريته، وأوتاد أرضه، ومعادن دينه.

تم الكتاب

كتاب فيه معرفة الله عزَّ وجلَّ

من العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد وإثبات النبوة والإمامة في النبي وآله عليهم السلام رواية الإمام المرتضى لدين الله عن أبيه الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات الله عليهم أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن رسول الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وسلامه:

التوحيد ونفي التشبيه

أول ما يجب على العبد أن يعلم أن الله واحد أحد، صمد فرد، ليس له شبيه ولا نظير، ولا عديل، ولا تدركه الأبصار في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك أن ما وقع عليه البصر فمحدود ضعيف، محويٌّ محاط به، له كُلٌّ وبعضٌ، وفوقٌ وتحت، ويمين وشمال، وأمامٌ وخلفٌ، وأن الله لا يوصف بشيء من

ذلك، وهكذا قال لا شريك له: ؟لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟[الأنعام:103]، وقال: ؟قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص:1-4]، والكفو فهو المِثل والنظير والشبيه، والله سبحانه ليس كمثله شيء، وقال: ؟وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ؟[الحديد:4]، وقال: ؟وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؟[ق:16]، وقال: ؟مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا؟[المجادلة:7]، وقال: ؟وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ؟[الأعراف:7]، يعني في جميع ذلك أن علمه محيط بهم، لا أنه داخل في شيء من الأشياء كدخول الشيء في الشيء، ولا خارج من الأشياء بائن عنها فيغبى عليه شيء من أمورهم، بل هو العالم بنفسه، وأنه عز وجل شيء لا كالأشياء؛ إذ الأشياء من خلقه وصنعه، وقال عز وجل: ؟قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ؟[الأنعام:19]، فذكر سبحانه أنه شيء؛ لإثبات الوجود ونفي العدم، والعدم لا شيء.

(60/1)

العدل

ثم يَعْلَم أنَّه عز وجل عدل في جميع أفعاله، ناظر لخلقه، رحيم بعباده، لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يسألهم ما لا يجدون، و؟لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا؟[النساء:40]، وأنه لم يخلق الكفر ولا الجور ولا الظلم، ولا يأمر بها، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يظلم العباد، ولا يأمر بالفحشاء، وذلك أنه من فعل شيئاً من ذلك، أو أراده أو رضي به، فليس بحكيم ولا رحيم، وإن الله لرؤوف رحيم، جواد كريم متفضل، وأنه لم يحل بينهم وبين الإيمان، بل أمرهم بالطاعة، ونهاهم عن المعصية، وأبان لهم طريق الطاعة والمعصية، وهداهم النجدين، ومكنهم من العملين، ثم قال: ؟فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ؟[الكهف:29]، وقال: ؟فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ؟[الانشقاق:20]، وقال: ؟وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؟[النساء:39]، أو يأمرهم بالكفر؛ ثم يقول: ؟وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ؟[آل عمران:101]؟ أو يصرفهم عن الإيمان، ثم يقول: ؟فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟[يونس:32]؟ أو يقضي عليهم بقتل الأنبياء صلى الله عليهم؛ ثم يقول: ؟فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؟[البقرة:91]؟

(61/1)

والله عز وجل بريء من أفعال العباد، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿إن اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحسان وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:90]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إن اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:28]، ثم قال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا ءَابَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إن تَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وإن أَنْتُمْ إلا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام:148]، فأكذبهم الله في قولهم، ونفى عن نفسه ما نسبوه إليه بظلمهم. وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56]، فذكر أنه خلقهم للعبادة لا للمعصية، وكذلك نسب إليهم فعلهم حيث يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾[القمر:52]، يقول: فعلوه، ولم يقل: فعله، بل نسبه إليهم؛ إذ هم فعلوه. وقال عز وجل في فعله هو: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الرعد:16، الزمر:62]، يقول: هو خالق كل شيء يكون منه، ولم يقل: إنه خلق فعلهم، بل قال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت:17]، يقول: تصنعون وتقولون إفكاً، كما قال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾[النحل:67]، يقول: أنتم تجعلونه.

(62/1)

وتبيين الكفر والإيمان من الله عز وجل، وفعلهما من الآدميين، ولولا أنه عز وجل بين لخلقه الكفر والإيمان؛ ما إذا عرفوا الحق من الباطل، ولا المعتدل من المائل، و لكن عرَّفهم بذلك، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في بعض مواعظه: ((خلقنا ولم نك شيئاً، وأخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، فغذانا بلطفه، وأحيانا برزقه، وأطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، ووضع عنا الأقلام، وأزال عنا الآثام، فلم يكلفنا معرفة الحلال والحرام، حتى إذا أكمل لنا العقول، وسهل لنا السبيل، نصب لنا العَلَم والدليل، من سماء ورفعها، وأرض وضعها، وشمس أطلعها، ورتوق فتقها، وعجائب خلقها، فعرفنا الخير من الشر، والنفع من الضر، والحسن من القبيح، والفاسد من الصحيح، والكذب من الصدق، والباطل من الحق، أرسل إلينا الرسل، وأنزل علينا الكتب، وبين لنا الحلال والحرام، والحدود والأحكام، فلما وصلت دعوته إلينا، وقامت حجته علينا؛ أمرنا ونهانا، وأنذرنا وحذرنا، ووعدنا وأوعدنا، فجعل لأهل طاعته الثواب، وعلى أهل معصيته العقاب، جزاء وافق أعمالهم، ونكالاً بسوء فعالهم، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[فصلت:46])).

وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل، حيث يقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[الأعراف:43]، وقال النبي صلى الله عليه وعلى أهل بيته: ((صنفان من أمتي لا

تنالهم شفاعتي، قد لعنوا على لسان سبعين نبياً: القدرية والمرجئة. قيل: وما القدرية يا رسول الله ؟ وما المرجئة ؟ فقال: أما القدرية فهم الذي يعملون المعاصي ويقولون: إنها من الله قضى بها وقدرها علينا. وأما المرجئة فهم الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل.)) ثم قال صلى الله عليه وآله: ((القدرية مجوس هذه الأمة)).

(63/1)

الوعد والوعيد

ثم يجب عليه أن يعلم أن وعده ووعيده حق، من أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار أبد الأبد، لا ما يقول الجاهلون من خروج المعذبين من العذاب المهين إلى دار المتقين، ومحل المؤمنين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: ؟خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا؟، ويقول: ؟وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا؟[المائدة:37]، ففي كل ذلك يخبر أنه من خل النار فهو مقيم فيها غير خارج منها، فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسأله العون والهدى، فإنه ولي كل النعماء، ودافع كل الأسواء.

(64/1)

الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

ثم يجب عليه أن يعلم أن محمداً بن عبدالله بن عبد المطلب، عبد الله ورسوله، وخيرته من خلقه، وصفوته من جميع بريته، خاتم النبيين لا نبي بعده، قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ثم قبضه الله إليه حميداً مفقوداً. فصلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين وسلم.

(65/1)

إمامة علي عليه السلام

ثم يجب عليه أن يعلم أن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، ووصي رسول رب العالمين، ووزيره وقاضي دينه، وأحق الناس بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأفضل الخلق بعده، وأعلمهم بما جاء به محمد، وأقومهم بأمر الله في خلقه، وفيه ما يقول الله تبارك وتعالى: ؟إنما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

رَاكِعُونَ؟ [المائدة:55]، فكان مؤتي الزكاة وهو راكع علي بن أبي طالب دون جميع المسلمين. وفيه يقول الله سبحانه: ؟وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟[الواقعة:10-12]، فكان السابق إلى ربه غير مسبوق، وفيه يقول الله عز وجل: ؟أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟[يونس: 35]، فكان الهادي إلى الحق غير مهدي، والداعي إلى الصراط السوي، والسالك طريق الرسول الزكي، ومن سبق إلى الله، وكان الهادي إلى غامض أحكام كتاب الله؛ فهو أحق بالإمامة؛ لأن أسبقهم أهداهم، وأهداهم أتقاهم، وأتقاهم خيرهم، وخيرُهم بكل خيرٍ أولاهم، وما جاء له من الذكر الجميل في واضح التنزيل؛ فكثير غير قليل.

(66/1)

وفيه أنزل الله على رسوله بغدير خم: ؟يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ؟[المائدة:67]، فوقف صلى الله عليه وآله وسلم وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة حتى ينفذ ما عزم عليه في علي، فنزل تحت الدوحة مكانه، وجمع الناس، ثم قال: ((أيها الناس، ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: اللهم اشهد، ثم قال: اللهم اشهد، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.))، والناس كلهم مجتمعون يسمعون كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو رافع بيد علي حتى أبصر بياض آباطهما وهو ينادي بهذا القول.
وفيه يقول صلى الله عليه وآله وسلم: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي))، ويقول: ((علي مع الحق، والحق معه.)) ، ويقول: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها.)) ، وقال: ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما.)) ، وقال: ((أنت أخي يا علي في الدنيا والآخرة.)) ، وقال: ((علي أقضى الخلق وأعلمهم.)) .

(67/1)

إمامة الحسنين عليهما السلام

ثم يجب عليه أن يعلم أن الحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحبيباه، وأنهما إماما عدل، واجبة طاعتهما، مفترضة ولايتهما، وفيهما وفي جدهما وأبيهما وأمهما يقول الله تبارك وتعالى: ؟إن الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا؟[الإنسان:5]، إلى قوله: ؟فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا؟[الإنسان:29]، وفيهما ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كل بني أنثى

ينتمون إلى أبيهم، إلا ابني فاطمة فأنا أبوهما وعصبتهما.)). فهما ابناه وولداه بفرض الله وحكمه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه في إبراهيم الخليل صلى الله عليه: ؟وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ؟[الأنعام:84-85]، فذكر أن عيسى من ذرية إبراهيم، كما موسى وهارون من ذريته، وإنما جعله ولده وذريته بولادة مريم، وكان سواء عنده في معنى الولادة والقرابة، ولادة الابن وولادة البنت؛ إذ قد أجرى عيسى وموسى مجرى واحداً من إبراهيم صلى الله عليه. وفيهما وفي أبيهما وأمهما ما يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وآله؛ إذ أمره بالمباهلة للنصارى؛ فقال له: ؟فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ؟[آل عمران:61]، فحضر صلى الله عليه وآله بعلي وفاطمة والحسن والحسين صلى الله عليهم أجمعين.

(68/1)

إمامة أهل البيت عليهم السلام، وصفات الإمام

ثم يجب عليه أن يعلم أن الإمامة لا تجوز إلا في ولد الحسن والحسين؛ بتفضيل الله لهما، وجعله ذلك فيهما، وفي ذريتهما، حيث يقول تبارك وتعالى: ؟وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟[البقرة:124].

فكانت النبوة والإمامة والوصية والملك في ولد إبراهيم صلى الله عليه، إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وعلى آله فأفضت النبوة إليه، وختم الله الأنبياء به، وجعله خاتم النبيين وسيد المرسلين، وقال: ؟رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟[هود:73]، وقال: ؟وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ؟[الزخرف:28]، وقال: ؟أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا؟[النساء:54]، وقال موسى صلى الله عليه لقومه: ؟يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ؟[المائدة:20]، وقال: ؟وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ؟[الجاثية:16]، وقال: ؟إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إبراهيم وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[آل عمران:33،34]، فكانت النبوة في إبراهيم ثم أفضت إلى إسماعيل، ثم إلى إسحاق، ثم إلى ابنه يعقوب، ثم إلى ابنه يوسف، ثم في بني إسرائيل - وهو يعقوب - الأول فالأول، حتى كان آخرهم عيسى صلى الله عليهم أجمعين، ثم

(69/1)

حول الله النبوة إلى محمد خاتم النبيين، فقال سبحانه: ؟مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؟[الفتح:29]، ثم قال: ؟وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا؟[الحشر:7]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: ((إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.)) ، وقال سبحانه: ؟إنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا؟[الأحزاب:33]، فبين الأمر سبحانه فيهم وأوضحه، ؟لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا؟[النساء:165]، ومحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وكذلك ذريته.

ثم قال سبحانه: ؟ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا؟، فورثة الكتاب: محمد، وعلي، والحسن، والحسين، ومن أولدوه من الأخيار. ثم قال في ولدهم: ؟فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ؟[فاطر:32] ، ففيهم إذ كانوا بشراً ما في الناس.

وقال: ؟وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ؟[هود:113]، كما قال في ولد إبراهيم وإسحاق صلى الله عليهما: ؟وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ؟[الصافات:113].

وكان فيما بين الله عز وجل لخليله إبراهيم صلى الله عليه؛ إذ قال إبراهيم: ؟وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ فقال له ربه: ؟لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟، ثم قال: ؟أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ؟[هود:18]، وقال: ؟وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ؟[المائدة:44]، و ؟الظَّالِمُونَ؟[المائدة:45]، و ؟الْفَاسِقُونَ؟[المائدة:47].

(70/1)

وأن الإمام من بعد الحسن والحسين من ذريتهما من سار بسيرتهما، وكان مثلهما، واحتذى بحذوهما، فكان ورعاً تقياً، صحيحاً نقياً، وفي أمر الله سبحانه مجاهداً، وفي حطام الدنيا زاهداً، وكان فهماً لما يحتاج إليه، عالماً بتفسير ما يرد عليه، شجاعاً كمياً، بذولاً سخياً، رؤوفاً بالرعية، متعطفاً متحنناً حليماً، مساوياً لهم بنفسه، مشاوراً لهم في أمره، غير مستأثر عليهم، ولا حاكم بغير حكم الله فيهم قائماً شاهراً لنفسه، رافعاً لرايته مجتهداً، مفرقاً للدعاة في البلاد، غير مقصر في تأليف العباد، مخيفاً للظالمين، مؤمناً للمؤمنين، لا يأمن الفاسقين ولا يأمنونه، بل يطلبهم ويطلبونه، قد باينهم وباينوه، وناصبهم وناصبوه، فهم له خائفون، وعلى إهلاكه جاهدون، يبغيهم الغوائل، ويدعو إلى جهادهم القبائل، متشرداً عنهم، خائفاً منهم، لا يردعه عن أمور الله ولا يمنعه عن الاجتهاد عليهم كثرة الإرجاف، شمري مشمر، مجتهد غير مقصر.

فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهو الإمام المفترضة طاعته، الواجبة على الأمة نصرته، مثل من قام من ذريتهما من الأئمة الطاهرين، الصابرين لله المحتسبين، مثل زيد بن علي بن

الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إمام المتقين، والقائم بحجة رب العالمين، ومثل ابنه يحيى المحتذي بفعله، ومثل محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي جاء فيه الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، أنه خرج ذات يوم إلى باب المدينة، فوقف في موضع ومعه جماعة من أصحابه، فقال لهم: ((ألا إنه سيقتل في هذا الموضع رجل من ولدي، اسمه كاسمي، واسم أبيه كاسم أبي، يسيل دمه من هاهنا إلى أحجار الزيت، وهو النفس الزكية، على قاتله ثلث عذاب أهل النار.)).

(71/1)

ومثل أخويه إبراهيم ويحيى ابني عبدالله، ومثل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو صاحب فخ، ومثل محمد والقاسم ابني إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهو إمام لجميع المسلمين، لا يسعهم عصيانه، ولا يحل لهم خذلانه، بل يجب عليهم موالاته وطاعته، ويعذب الله من خذله، ويثيب من نصره، ويتولى من يتولاه، ويعادي من عاداه.
ومما روى الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، قال: أخبرني أبي، قال: قال جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: ((إنه سيخرج منا رجل يقال له زيد، فينتهب ملك السلطان، فيقتل، ثم يصعد بروحه إلى السماء الدنيا، فيقول له النبيون: جزى الله نبيك عنا أفضل الجزاء كما شهد لنا بالبلاغ، وأقول أنا: أقررت عيني يا بني، وأديت عني، ثم يذهب بروحه من سماء إلى سماء حتى ينتهي به إلى الله عز وجل، ويجيء أصحابه يوم القيامة يتخللون أعناق الناس بأيديهم أمثال الطوامير، فيقال: هؤلاء خلف الخلف، ودعاة الحق إلى رب العالمين.)).
وفيه، عن محمد بن الحنفية، أنه قال: ((سيصلب منا رجل يقال له زيد في هذا الموضع – يعني موضعاً بالكوفة يقال له الكناس –، لم يسبقه الأولون ولا الآخرون فضلاً)).
وفيه عنه محمد بن علي بن الحسين باقر العلم، أن قوماً وفدوا إليه فقالوا: يا ابن رسول الله، إن أخاك زيداً فينا، وهو يسألنا البيعة، أفنبايعه ؟ فقال لهم محمد: بايعوه، فإنه اليوم أفضلنا.
وعنه أيضاً أنه اجتمع زيد ومحمد في مجلس فتحدثوا، ثم قام زيد فمضى، فأتبعه محمد بصره، ثم قال: لقد أنجبت أمك يا زيد.

(72/1)

وفيه ما قال جعفر بن محمد الصادق رحمة الله عليه، لما أراد زيد الخروج إلى الكوفة من المدينة؛ قال له جعفر: أنا معك يا عم. فقال له زيد: أو ما علمت يا ابن أخي أن قائمنا لقاعدنا وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت أنا وأنت فمن يخلفنا في حرمنا، فتخلف جعفر بأمر عمه زيد.

وعن جعفر أيضاً لما أراد يحيى بن زيد اللحوق إلى أبيه، قال له ابن عمه جعفر: أقرئه عني السلام، وقل له: فإني أسأل الله أن ينصرك ويبقيك، ولا يرينا فيك مكروهاً، وإن كنت أزعم أني عليك إمام فأنا مشرك.

وعنه أيضاً لما جاءه خبر قتل أبي قرة الصقيل بين يدي زيد بن علي، تلا هذه الآية: ؟وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ؟[النساء:100]، رحم الله أبا قرة.

وعنه أيضاً لما جاءه خبر قتل حمزة بين يدي زيد بن علي تلا هذه الآية: ؟رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا؟[الأحزاب:32].

وعنه لما جاءه قتل عمه زيد وأصحابه، قال: ذهب والله زيد بن علي كما ذهب علي بن أبي طالب والحسن والحسين وأصحابهم شهداء إلى الجنة، التابع لهم مؤمن، والشاك فيهم ضال، والراد عليهم كافر.

وإنما فرَّق بين زيد وجعفر قوم كانوا بايعوا زيد بن علي، فلما بلغهم أن سلطان الكوفة يطلب من بايع زيداً ويعاقبهم، خافوا على أنفسهم فخرجوا من بيعة زيد ورفضوه مخافة من هذا السلطان، ثم لم يدروا بم يحتجون على من لامهم وعاب عليهم فعلهم، فقالوا بالوصية حينئذ، فقالوا: كانت الوصية من علي بن الحسين إلى ابنه محمد، ومن محمد إلى جعفر، ليموهوا به على الناس، فضلوا وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل، اتبعوا أهواء أنفسهم، وآثروا الدنيا على الآخرة، وتبعهم على قولهم من أحب البقاء وكره الجهاد في سبيل الله.

(73/1)

ثم جاء قوم من بعد أولئك فوجدوا كلاماً مرسوماً في كتب ودفاتر، فأخذوا بذلك على غير تمييز ولا برهان، بل كابروا عقولهم، ونسبوا فعلهم هذا إلى الأخيار منهم؛ من ولد رسول الله عليه وعليهم السلام، كما نسبت الحشوية ما روت من أباطيلها وزور أقاويلها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليثبت لهم باطلهم على من اتخذوه مأكلة لهم، وجعلوهم خدماً وخولاً، كما قال الله عز وجل في أشباههم: ؟فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وإن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ؟[الأعراف:169].

وكذلك هؤلاء الذين رفضوا زيد بن علي وتركوه، ثم لم يرضوا بما أتوا من الكبائر؛ حتى نسبوا ذلك إلى المصطفين من آل الرسول؛ فلما كان فعلهم على ما ذكرنا، سماهم حينئذ زيد روافض، ورفع يديه فقال:))اللهم اجعل لعنتك ولعنة آبائي وأجدادي ولعنتي على هؤلاء الذين رفضوني، وخرجوا من بيعتي، كما رفض أهل حروراء علي بن أبي طالب عليه السلام حتى حاربوه.))

فهذا كان خبر من رفض زيد بن علي وخرج من بيعته.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال لعلي بن أبي طالب: ((يا علي، إنه سيخرج قوم في آخر الزمان، لهم نبز يعرفون به، يقال لهم: الرافضة، فإن أدركتهم فاقتلهم، فإنهم مشركون، فهم لعمري شر الخلق والخليقة.)).

وأما الوصية فكل من قال بإمامة أمير المؤمنين ووصيته، فهو يقول بالوصية، على أن الله عز وجل أوصى بخلقه على لسان النبي إلى علي بن أبي طالب والحسن والحسين، وإلى الأخيار من ذرية الحسن والحسين، أولهم علي بن الحسين وآخرهم المهدي، ثم الآئمة فيما بينهما.

(74/1)

وذلك أن تثبيت الإمامة عند أهل الحق في هؤلاء الأئمة من الله عز وجل على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، فمن ثبت الله فيه الإمامة، واختاره واصطفاه، وبين فيه صفات الإمام؛ فهو إمام عندهم مستوجب للإمامة، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يقول: ((من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر من ذريتي فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة كتابه، وخليفة رسوله.)) قال: من ذريتي، فولد الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قال: ((عليكم بأهل بيتي، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن يدخلوكم في باب ردى.))، وقال: ((مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى.))، وقال: ((النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم من السماء أتى أهل السماء ما يوعدون، وإذا ذهب أهل بيتي من الأرض أتى أهل الأرض ما يوعدون)) يعني في جميع ذلك: الصالحين من ولده، وقال صلى الله عليه وعلى أهل بيته: ((من سمع واعيتنا أهل البيت فلم ينصره لم يقبل الله له توبة حتى تلفحه جهنم.)) ثم قال: ((من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية.)).

(75/1)

والله عز وجل قد جعل الأمر والنهي في خيار آل محمد عليه وعلى آله السلام، وزواه عن ظالميهم وظالمي غيرهم، ومكن أهل الحق منهم وأجازه لهم، وذلك قوله تبارك وتعالى: ؟الَّذِينَ إن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ؟[الحج:41]، ثم قال: ؟وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ؟[النور:55]، وقال سبحانه لرسله: ؟فَأَوْحَى إليهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ؟[إبراهيم:13-14]، وقوله لإبراهيم صلى الله عليه: ؟لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟[البقرة:124]، وعلى هذا النحو قال تبارك وتعالى: ؟قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ؟[آل عمران:26]، يعني الأنبياء ومن تبعهم من الأئمة الصادقين، كقوله: ؟اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ؟[التوبة:119]، وكقول إبراهيم عليه السلام: ؟فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي؟[إبراهيم:36]، ثم قال: ؟وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ؟[آل عمران:26]، فقد نزع الملك من الفراعنة والجبابرة، وإنما الملك هو الأمر والنهي، لا المال والسعة والجدة، كما قال عز وجل عندما قالوا: ؟أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ

(76/1)

قَالَ إن اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ؟[البقرة:247]، فقد بين عز وجل في هذه الآية أن الملك هو الأمر والنهي، لا سعة المال، ثم قال: ؟وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ؟ [آل عمران:26]، فقد أعز الأنبياء ومن تبعهم من الأئمة الصادقين وأوليائهم الصالحين، وذلك قوله سبحانه: ؟وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ؟[المنافقون:8]، والمؤمن لا يملك من متاع الدنيا شيئاً، فسماه الله عزيزاً؛ إذ فعله ذلك يوصله إلى دار العز أبد الأبد، ثم قال: ؟وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ؟[آل عمران:26]، فقد أذل الفراعنة ومن تبعهم من الظالمين؛ لأنهم معتدون غير محقين.

فكل من كان في يده أمر ونهي، وكان فعله مخالفاً للكتاب والسنة فهو فرعون من الفراعنة، وكل عالم متمرد فهو إبليس من الأبالسة، وكل من عصى الرحمن من سائر الناس فهو شيطان من الشياطين، وذلك قوله: ؟شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ؟[الأنعام:112]، ثم قال: ؟مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ؟[الناس:6].

والظالم وإن اتسع في هذه الدنيا من مال غيره، وأكثر من مظالم الناس، ووقع عند الجاهل أنه عزيز، فهو عند الله عز وجل وعند أوليائه ذليل ؛ لأن فعله ذلك يورده إلى دار الذل أبد الأبد، كما قال الله

عز وجل: ؟مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ؟[آل عمران:197]، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأمراء الظالمين: ((طعمة قليلة وندامة طويلة.)).

(77/1)

أعوان الظلمة

وفعل هؤلاء الظالمين وأمرهم وسلطنتهم إنما تقوم بأعوانهم الذين يتبعونهم، ويعينونهم على ظلمهم، وإذا تفرق الأعوان منهم وأسلموهم لم تقم لهم دولة، ولا تثبت لهم راية، فمتى كثرت جماعتهم تقووا بهم على باطلهم، واستضعفوا المستضعفين من خلق الله، وأمهل لهم ربهم وتركهم، ولم يَحُل بينهم وبين من يظلمونهم؛ إذ كلٌّ ظالم، القوي والمستضعف، وذلك قوله عز وجل: ؟وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ؟[الأنعام:129]، وقال: ؟أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا؟[مريم:83]، يقول: خليناهم عليهم، كما قال: ؟بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ؟[الإسراء:50]، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله: ((لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم، حتى إذا بلغ الكتاب أجله كان الله المنتصر لنفسه، فيقول: ما منعكم إذ رأيتموني أُعصى أن لا تغضبوا فيّ.)).

فمن هذه الجهة ترك الظالمين ولم يأخذهم؛ لأن الرعية في ظلمهم وتظالمهم فيما بينهم أصناف:

(78/1)

فقوم يقولون على الله بالجبر والتشبيه، وينفون عنه العدل والتوحيد، وينسبون إليه عز وجل أفعال العباد، ويقولون: إن هذا الذي نزل بهم بقضاء وقدر، ولولا أن الله قضى عليهم بهذا الظلم الذي نزل بهم من هؤلاء الظالمين ما إذا قدر الظالم أن يظلمهم، غير أن هذا الظلم مقدر عليهم عند الله على يدي هذا الظالم. فإذا كانت معرفتهم هذه المعرفة، وكان معبودهم الذي يزعمون أنهم يعبدونه هذا فعله بهم؛ فمتى يصل هؤلاء إلى معرفة الخالق، ومتى يدعونه ويستعينون به على ظالمهم؟ إنما هم يدعون هذا الذي يزعمون أنه قضى عليهم بهذا الظلم وقدره، ولهذا يصلّون، وله يصومون ويحجون، وبه في جميع ما ينزل بهم من الظلم والجور والمصائب في المال والولد والبدن يستغيثون به على دفع هذه المضار والبلوى التي نزلت بهم. فهم يعبدون صورة مصورة، وعلى هذا النحو أسلمهم ربهم، وتركهم من التوفيق والتسديد، وخذلهم ولم ينصرهم على ظالمهم، وكيف ينصرهم على ظالمهم وهو

المقدر لهذا الظالم عليهم الذي نزل بهم؟ فهو الذي يدعونه بزعمهم.

أما إنهم لو أنصفوا عقولهم، وعرفوا الله عز وجل حق معرفته، ونفوا عنه ظلم عباده، كما نفاه عز وجل عن نفسه، ثم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا ربهم حينئذٍ على ظالمهم؛ إذا لاستجاب لهم دعوتهم، وكشف ما بهم من الظلم والجور، وذلك قوله عز وجل: ؟ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ؟[غافر:60]، وقال: ؟وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ؟[الروم:47]، ؟كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ؟[يونس:103].

(79/1)

الهدى

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

الهدى من الله عز وجل هديان: هدى مبتدأ، وهدى مكافأة.

فأما الهدى المبتدأ: فقد هدى الله به البَرّ والفاجر، وهو العقل والرسول والكتاب. فمن أنصف عقله وصدق رسوله وآمن بكتابه وحلل حلاله وحرم حرامه؛ استوجب من الله الزيادة بالهدى الثاني؛ جزاء على عمله، ومكافأة على فعله، كما قال عز وجل: ؟وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ؟[محمد:17]، وقال: ؟وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى؟[مريم: 67].

ومن كابر عقله وكذب رسوله ورد كتابه؛ استوجب من الله الخذلان، وتركه من التوفيق والتسديد، وأضله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، وذلك قوله تبارك وتعالى: ؟فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ؟ عني الهدى الثاني، ؟وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ؟، يقول: ومن يرد أن يوقع اسم الضلال عليه، بعد أن استوجب بفعله القبيح: ؟يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ؟[الأنعام:125]، فقد بين عز وجل في آخر الآية أنه لم يضله، ولم يضيق صدره إلا بعد عصيانه وكفره وضلاله؛ لأنه يقول: ؟كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ؟، ولم يقل إنه يجعل الرجس على الذين آمنوا.

ثم قال: ؟أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً؟[الجاثية:23]، (كما اتخذ إلهه هواه أوقع عليه اسم الضلال، وسماه ودعاه بعد أن اتخذ إلهه هواه وختم على سمعه)، وتركه من التوفيق والتسديد وخذله، ولم يؤيده ولم يسدده كما أيد وسدد الذي عبده، عز وجل.

ثم قال: ؟يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ؟[النحل:93، فاطر:8].

(80/1)

ثم قال: ؟وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ؟[البقرة:26]، وقال: ؟كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ؟[غافر:74]، ؟كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ؟[غافر:34]، ؟كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ؟[غافر:35].

(81/1)

الضلال

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

الضلال في كتاب الله عز وجل على وجوه:

فوجه منها: قول الله تبارك وتعالى: ؟غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ؟[فاتحة الكتاب:5]، يقول: إنهم ضلوا عن سواء السبيل، وهم النصارى.

والوجه الثاني: قوله سبحانه: ؟وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى؟[الضحى:7]، يقول عن شرائع النبوة، فهداك الله. وقال موسى: ؟فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ؟[الشعراء:20]، يقول: من الجاهلين بعاقبة فعلي. وقال أولاد يعقوب: ؟إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ؟[يوسف:8]، يقولون: جاهل عندما يؤثر يوسف علينا، ونحن أنفع له من يوسف صلى الله عليه.

والوجه الثالث: قوله: ؟أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا؟[البقرة:282]، أي تنسى إحداهما الشهادة فتذكر إحداهما الأخرى.

والوجه الرابع: قوله: ؟أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ؟[محمد:1، 8]، يقول: أبطل أعمالهم.

والوجه الخامس: قوله سبحانه، في قصة فرعون والسامري، حيث يقول: ؟وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى؟[طه:79]، يقول: أغواهم وأرداهم ولم يرشدهم.

والوجه السادس: قوله سبحانه: ؟وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ؟[الجاثية:23]، وقوله: ؟يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ؟[النحل:93، فاطر:8]، و ؟وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ؟[إبراهيم:27]، و ؟كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ؟[غافر:34]، ونحو هذا في القرآن كثير، يعني في جميع ذلك: أنه يوقع عليه اسم الضلال، ويدعوه به بعد العصيان والطغيان، لا أنه يغويهم عن الصراط المستقيم، كما أغوى وأضل فرعون قومه.

(82/1)

وإن اشتبه اللفظ فمعناه متباين مفترق عند أهل العلم، إذ الله عز وجل رحيم بعباده، ناظر لخلقه، وفرعون لعين ملعون مُضل غوي، وهو عز وجل قد عذب فرعون على فعله وضلاله، وقبح سوء فعله بنفسه وقومه، وكيف يغوي خلقه ويضلهم ولا يرشدهم، ثُمَّ يعذبهم على فعله؟ إذا لكان لهم ظالماً، وعليهم متعدياً، وهو مع ذلك يعيب على من فعل مثل هذا الفعل، إذ يقول عز وجل: ؟وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا؟[النساء:112]، وبعث إليهم الرسول، وأنزل عليهم الكتاب، ثم قال: ؟يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً؟[البقرة:208]، فأمرهم أن يدخلوا كلهم في الإسلام والإيمان. فلو كان كما يقول الجاهلون إنه هدى قوماً وأضل قوماً ولم يهدهم؛ لم يكن لقوله: ؟ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً؟ معنى، إذ كان عز وجل بزعمهم أدخل قوماً في الإسلام، وحال بين قوم وبين الدخول في الإسلام، فما معنى قوله لقوم داخلين في الإسلام: ادخلوا؛ وهم داخلون، كما لا يقول لقائم: قم؛ وكما لا يقول لجالس: اجلس. ويقول لقوم حال بينهم وبين الدخول في الإسلام: ادخلوا؛ فكيف يقدرون على ذلك، وهو قد حال بينهم وبين الدخول في الإسلام، كما لم يقل لمُقْعَد: قم؛ ولا لأعمى: أبصر.

وهو عز وجل قد فرض الجهاد على جميع الناس، فقال: ؟انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا؟[التوبة:41]، ثم قال لمن أعمى بصره ولم يعطه من القوة ما أعطى غيره: ؟لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ؟[النور:61، الفتح:71]، فعذره في تخلفه عن الجهاد؛ إذ لم يُقْدِره على ذلك.

(83/1)

وقال سبحانه: ؟لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا؟[البقرة:286]، فلو كان عز وجل فعل لهم ما يقول المبطلون، لكان من عصى وكفر وظلم وقتل أنبياءه وأولياءه، وقال عليه بالزور والبهتان معذوراً عنده سبحانه، ساعياً في قضائه وقدره، ولم يكن يوجد على الأرض عاص، إذ كان المطيع يسعى بقضاء الله وقدره، وكان العاصي كذلك يسعى ببعض قضائه وقدره؛ إذ يزعمون أنه خلق قوماً للجنة وخلق قوماً للنار، كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراناً مبيناً.

(84/1)

العبادة

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

تفسير العبادة على ثلاثة أوجه:

فوجه منها: قول الله تبارك وتعالى: ؟يَابَنِي ءَادَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ انه لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ؟، يقول: لا تطيعوه ؟وَأَنِ اعْبُدُونِي؟[يس:60]، يقول: أطيعوني، وليس على وجه الأرض أحد يصلي للشيطان ولا يصوم له، بل كلهم يجمعون على لعنته، غير أنهم يعملون عمله، ويسعون في مرضاته، ويساعدونه على إرادته، فجعل الله عز وجل فعلهم ذلك للشيطان طاعة وعبادة، وذلك أن كل مطاع عنده عز وجل معبود.

وكذلك قال رب العالمين في قصة إبراهيم الخليل صلى الله عليه حيث يقول لأبيه: ؟لاتَعْبُدِ الشَّيْطَانَ؟[مريم:44]، وقال فرعون اللعين: ؟أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ؟[المؤمنون:47]، يقول: مطيعون.

وقال: ؟وإن الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ؟[الأنعام:121]، فكل من أطاع عدواً من أعداء الله وعاضده أو كاتفه فقد أشرك بعبادة ربه غيره.

وقال عز وجل: ؟إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ؟[الأنبياء:89]، يعني: العابد والمعبود من الجن والإنس، لا أنه يعني أنه يعبد المعبودات من الجماد، وذلك أن الجماد هو كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه: ؟لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا؟[مريم:42]، فضرر عبادة الصنم لا يعدو صاحبه، وهو مأخوذ بفعله مُعاقَب على عمله، وضرر عبادة شياطين الإنس والجن على عابده وعلى الإسلام والمسلمين، وذلك أن الصنم جماد، والجماد لا يفتق ولا يرتق، ولا يأمر ولا ينهى، وشيطان الإنس يأمر من تبعه وأطاعه بقتل المسلمين، وهتك حرمتهم، وأخذ أموالهم، ويأمرهم بالفسق والفجور، والقول على الله بالزور والبهتان وبطاعة إبليس اللعين.

(85/1)

الإرادة

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

الإرادة من الله عز وجل في خلقه على معنيين:

إرادة حتم وجبر وقسر: وهي إرادة الله عز وجل في خلق السماوات والأرض وما بينهما من الخلق من الملائكة والجن والإنس والطير والدواب وغير ذلك. إرادة حتم وجبر، فجاء خَلْقُه كما أراد، لم يمتنع منه شيء، ولم يغلبه شيء من الأشياء كما قال عز وجل: ؟مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ؟[الملك:3]، وقال: ؟ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ؟[فصلت:11]، يقول: كوَّنهما فكانتا، من غير مخاطبة ولا أمر، وذلك أن الله عز وجل لم يخاطب أحداً من خلقه إلا ذوي العقول من الملائكة والجن والإنس، وسائر خلقه حيوان لا

عقول لها، وجماد لا روح فيه، وإنما خاطب الله عز وجل أهل العقول، وأمرهم ونهاهم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وبين لهم الحلال والحرام، فمن أطاع وائتمر بأمره وانتهى عن نهيه استوجب من الله الحفظ والحياطة في دنياه الفانية، والثواب الجزيل في آخرته الباقية، ومن عصاه منهم عذبه في الدنيا والآخرة. والذي لا عقل له من خلقه لا يجب له ثواب ولا عليه عقاب.

قال عز وجل: ؟إنما قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ؟[النحل:40]، يقول: إذا كوناه كان بلا كلفة ولا اضطراب، ولا تحيل ولا إضمار ولا تفكر، ولا تتقدم إرادته فعله، ولا فعله إرادته، بل إرادته للشيء إيجاده وكونه، وإذا أراده فقد كونه، وإذا كونه فقد أراده، لا وقت بين إرادته للشيء وكونه.

(86/1)

والإرادة الثانية من الله عز وجل: إرادة تخيير وتحذير، معها تمكين وتفويض، أراد من خلقه الإيمان على هذا الوجه؛ لأنه لو أراد منهم الإيمان على نحو ما أراد خلْقهم؛ ما إذا قَدَر واحد من خلقه أن يخرج من الإيمان إلى الكفر، كما لا يقدرون أن يتحولوا من صورهم إلى صور غيرهم من الخلق، ولكن ركب فيهم العقول، وأرسل إليهم الرسول، وهداهم النجدين، ومكنهم من العملين، ثم قال: ؟فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ؟[الكهف:29]، وقال: ؟إنا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا؟[الإنسان:3]، وقال: ؟وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى؟[فصلت:17]، فدل على أنه هداهم، واستحبوا هم العمى على الهدى اختياراً من أنفسهم واستحباباً، ثم قال: ؟اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؟[فصلت:40]، لولا أن لهم مشيئة لم يقل: ؟اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؟ ثم قال: ؟لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا؟[الكهف:77]، لولا أن موسى صلى الله عليه علم أن للعالم فيما يريد مشيئة ما قال: ؟لَوْ شِئْتَ؟، ثم قال: ؟ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ؟[النحل:107]، قال: استحبوا هم لأنفسهم، ثم قال: ؟يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهمْ؟[الحشر:9]، وقال: ؟يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ؟[المائدة:54]، وقال: ؟تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا؟[الأنفال:67]، ؟يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ؟[التوبة:32]، ؟يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ؟[النساء:91].

(87/1)

ثم قال سبحانه: ؟وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ؟[التوبة:42]، فرد عليهم رب العالمين: ؟يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟[التوبة:42]، فبين عز وجل أنهم قادرون على الخروج مع

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا القرآن من هذا النحو كثير.
ثم قال الله عز وجل: ؟إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ؟، لولا أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يقدر على أن يحب لم يقل له ربه: ؟مَنْ أَحْبَبْتَ؟، ثم قال: ؟وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ؟[القصص:56]، وقال: ؟وَلَوْ شِئْنَا لاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا؟[السجدة:13]، وقال: ؟وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لامَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟[يونس:99]، وقال: ؟وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً؟[هود:113]، وقال: ؟وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى؟[الأنعام:35]، وقال: ؟فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ؟[الأنعام:149]، يعني عز وجل في هذه الآيات كلها وما أشبهها أنه سبحانه لو شاء أن يجبرهم على الإيمان والهدى مشيئة حتم وجبر ويقسرهم عليه لأمكنه ذلك، وما قدر واحد من خلقه أن يخرج مما حتم عليه وجبره وقسره؛ إذ كان محمد يعجز عن قسرهم على الإيمان، فقال له ربه: ؟فإنما عَلَيْكَ الْبَلاغُ؟[آل عمران:20]، فقد أبلغت وأديت ونصحت، وعرفتهم بما ينفعهم، ؟لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟[الشعراء:3]، فتريد أن تقتل نفسك: ؟إن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا؟[الكهف:6]، يقول: حزناً عليهم وشفقة، فذرهم: ؟وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ؟[النحل:127]، فقال: مما يمكرون، ولولا أنهم يقدرون على المكر والخديعة والمعصية ما قال: يمكرون.

(88/1)

ثم قال في أهل الجنة: ؟وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا؟[الأنعام:182]، ؟وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟[الواقعة:22-24]، ثم قال: في أهل النار: ؟الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ؟[الأنعام:93]، وقال: ؟جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ؟[فصلت:28]، و ؟يَصْنَعُونَ؟، و ؟يَمْكُرُونَ؟، و ؟يَسْتَهْزِئُونَ؟، و ؟يَسْخَرُونَ؟، و ؟يَخْدَعُونَ؟، و ؟يَكْذِبُونَ؟، و ؟وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ؟، و ؟وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ؟، كل هذا اختيار من أنفسهم.

(89/1)

الإذن

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

الإذن في كتاب الله على وجهين: علم، وأمر:

[الإذن الأول]: قال الله عز وجل: ؟مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ؟[التغابن:11]، يقول: بعلم الله، ويقول: ؟وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ؟[البقرة:102]، يقول: بعلم الله، ويقول: ؟فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ؟[الأنبياء:109]، يقول: أعلمتكم، وقال: ؟فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؟[البقرة:279]، يقول: اعلموا أنكم إن لم تقلعوا من الربا صرتم حرباً لله ولرسوله.

والإذن الثاني: إذن أمر، قال الله عز وجل: ؟وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ؟[يونس:100]، يقول: بأمر الله، لولا أن الله أمرها بالإيمان لم تؤمن، ولكن جعل في الإنسان العقل ثم أمره بالإيمان فآمن بإذن الله وأمره.

(90/1)

الكفر

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

الكفر في كتاب الله على معنيين:

أحدهما: كفر جحود وإنكار وتعطيل، وذلك قول الله سبحانه يحكي عن قوم من خلقه: ؟وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ؟[الجاثية:24]، فهؤلاء الدهريون المعطلون، الزنادقة، الملحدون.

والكفر الثاني: كفر النعمة، وذلك قوله سبحانه: ؟وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لازِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إن عَذَابِي لَشَدِيدٌ؟[إبراهيم:7]، يقول: حكم الله لشاكر النعمة بالزيادة، ولكافر النعمة بالعذاب الأليم.

ثم قال: ؟وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ؟[المائدة:44]، والكافر فهو كل من ارتكب معاصي الله وخالف أمره وضاد حكمه، فهو كافر لنعم الله معاند لله تجب البراءة منه والمعاداة له، كما قال الله سبحانه: ؟لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ؟[المجادلة:22]، فحرم الله موادة من كان لله عاصياً وله معانداً.

(91/1)

الشرك

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

الشرك في كتاب الله على وجوه.

[الوجه الأول]: قال الله عز وجل: ؟فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ؟[التوبة:5]، فالمشرك من عبد مع الله غيره كائناً ما كان، من الجمادات والحيوان، فالجماد مثل ما كان المشركون يعبدون في الجاهلية من الأصنام، من حجر أو عود أو نجم، ويقولون إذا سئلوا عن عباداتهم: ؟مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى؟[الزمر:3]، وقوم منهم على وجه التقليد يقولون: ؟إنا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ؟[الزخرف:23].

والوجه الثاني من الشرك: فهو كما قال الله عز وجل: ؟وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ؟[فصلت:6،7]، فسماهم مشركين بتركهم لأداء زكاتهم.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((مانع الزكاة وآكل الربا حرباي في الدنيا والآخرة))، ومن كان حرباً للنبي فهو مشرك، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا يقبل الله صلاة إلا بزكاة، كما لا يقبل صدقة من غلول.))، يعني أنه إذا غل الإنسان زكاة ماله ثم تصدق ببعض ماله أو بكله أن تلك الصدقة لا تقبل، وقال: ((لا تقبل صلاة إلا بزكاة.)) وقال: ((الزكاة قنطرة الإسلام.)).

والوجه الثالث من الشرك: أنه من أطاع عدواً من أعداء الله فهو مشرك بالله، كما قال الله سبحانه: ؟وإن الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ؟[الأنعام:121]، فمن أطاع شيطاناً من الشياطين – كان المطاع ظالماً أو عالماً متمرداً – فقد عبده.

(92/1)

والوجه الرابع من الشرك: فقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((مدمن الخمر كعابد وثن.))، قيل: وما مدمنه يا رسول الله ؟ قال: ((الذي كل ما وجده شربه، ولو كان في كل عام مرة))، فجعل شارب الخمر كعابد الحجر، والخمر فهو: ما خامَر العقل فأفسده، كان من عنب أو زبيب، أو تمر أو عسل، أو ذرة أو شعير، وكل ما أسكر فهو حرام لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام.))، وقال الله عز وجل: ؟يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا؟[البقرة:219]، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يتعاملون في الخمر والميسر فيربحون فيهما؛ فقال لهم ربهم: ؟إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا؟، فالخمر هو ما خامر العقل فأفسده، والميسر فهو القمار كله، من نرد أو شطرنج، أو لهو، ثم قال عز وجل: ؟فَإِنَّهُ رِجْسٌ؟[الأنعام:145]، والرجس، والإثم في كتاب الله محرمان، قال الله عز وجل: ؟قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا؟[الأنعام:145]، فجعلها مثل الدم المسفوح ولحم الخنزير، وقال: ؟قُلْ إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ؟[الأعراف:33]، فذكر أن الإثم محرم، فلما نزلت الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تحريم الخمر كان قوم من أصحابه يشربونه قبل التحريم؛ فقالوا: يا رسول الله

فكيف بصلاتنا وإخواننا الذين كانوا يشربون الخمر حتى ماتوا ؟ فأنزل الله على رسوله: ؟لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إذا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا؟[المائدة:93]، يقول: ليس عليهم جناح فيما شربوا قبل التحريم إذا تركوه من اليوم

(93/1)

وأقلعوا منه، فكانت هذه الآية إلى آخرها معذرة للماضين، وحجة على الباقين، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((حقيق على الله من ملأ جوفه في هذه الدنيا خمراً أن يملأه الله يوم القيامة جمراً إلا من تاب وآمن.))، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((جمعت الشرور في بيت، ثم كان مفتاحه الخمر.)).

وأما قوله سبحانه: ؟لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى؟[النساء:43]، يعني سكر النوم، وذلك أن قوماً من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يصلون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاة العشاء ثم يجلسون ينتظرون العتمة، فإذا جاءت العتمة قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي بهم، فيقومون وراءه وليس هم يدرون ما يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما بهم من الغلبة والسكر والنوم، فنهاهم الله عن الصلاة وهم في ذلك حتى يعلموا ما يقولون؛ لأن الله عز وجل لم يحل لأحد من خلقه خمراً قط.

(94/1)

الزكاة

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

وأما الزكاة فواجبة على الإنسان في ماله إذا بلغ من الطعام خمسة أوسق في سنته وجب عليه أن يخرج عُشْر ما وقع من الطعام، والوسق: ستون صاعاً، والستون صاعاً: عشرون مكوكاً، ثم ما زاد على ذلك فبحساب ذلك، كانت زيادتها قليلاً أو كثيراً.

وأما الماشية ففي أربعين شاة شاة، وفي ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة، وفي خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياة، وفي عشرين أربع شياة، وفي خمس وعشرين ابنة مخاض، وفي ست وثلاثين ابنة لبون، فإذا كثرت الإبل ففي كل خمسين حقة، وإذا كثرت الغنم ففي كل مائة شاة شاة، وإذا كثرت البقر ففي كل ثلاثين تبيع أو تبيعة، وفي كل أربعين مسنة.

وفي الذهب والفضة كائناً ما كان من نقد أو حلي أو دين أو صداق، فإذا حال على وزن عشرين

مثقالاً ذهباً ففيه ربع عشره، وما زاد على العشرين فبحساب ذلك.
وفي الفضة إذا بلغت مائتي درهم قفلة، وحال عليها الحول وجب فيها ربع عشرها.
وأما العطب، والقضب، والثمار ما لم يكن يكال، فإذا باع صاحبها في سنته بمائتي درهم قفلة أخرج عشرها.

(95/1)

والزكاة كلها إلى إمام المسلمين من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يحكم بكتاب الله رب العالمين، ويسير في رعيته بسيرة جده خاتم النبيين، لقول الله عز وجل لرسول صلى الله عليه وآله: ؟خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا؟[التوبة:103]، ثم أمر خلقه أن يدفعوا إليه، فقال: ؟وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا؟[الأنعام:141]، يقول لا تدفعوا إلى غير المحق، فإذا عدمت الرعية هذا الإمام، ولم يوجد على ظاهر الدنيا في شرقها وغربها وجب عليهم أن يقسموها بين خمسة أصناف من المسلمين: بين الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، والغارم، وفي الرقاب، ويتركوا الثلاثة: العاملين عليها، وهم الذين يقبضون الزكاة من الرعية لإمام المسلمين؛ والمؤلفة قلوبهم، وهم الذين لا يلحقون إمام المسلمين إلا بشيء يعطيهم، ولا غناء للإمام عنهم يتألفهم بهذه الزكاة؛ وفي سبيل الله. فالسبيل هو: القتل والقتال وصلاح الإسلام والمسلمين.
فأما الفقير: فهو رجل ليس له مال، وله عولة، ومنزل وخادم، فيجب له أن يأخذ من هذه الزكاة ما يقوم به وبعوله.
والمسكين: فهو الذي يدور ويطلب وليس معه شيء.
وابن السبيل: مار الطريق يحتاج إلى زاد وكسوة أو كراء.

(96/1)

وفي الرقاب: رجل يكون له عبد فيكاتبه على أنه يدفع إليهشيئاً معروفاً يتراضيان عليه، العبد والمولى، فيجب على صاحب الزكاة أن يعين هذا العبد على فك رقبته، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ؟وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِن عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا؟[النور:33]، ثم قال لأصحاب الزكاة: ؟وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ؟[النور:33]، فأمرهم أن يغيثوا المكاتبين من أموال الله التي آتاهم، فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يدفع هذه الزكاة إلى هؤلاء المسمين من الفقير والمسكين وابن السبيل والغارم والمكاتب، إلا أن يكونوا عارفين بالله عز وجل وبحدوده،

وأعدائه وأوليائه، فيوالون أولياءه، ويعادون أعداءه، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يتعدون حداً من حدوده؛ وجب لهم حينئذ الزكاة. وإذا لم يكونوا على هذه الصفة لم يجب لهم من الزكاة شيء وإن كانوا معدمين فقراء؛ لأن الله عز وجل جعل هذه الزكاة لعباده المسلمين وأوليائه الصالحين لأن يتسعوا فيما رزقهم الله، ويستغنوا بفضل الله الذي أفضل عليهم؛ ويثيب أهل الأموال فيما أخرجوا من زكوات أموالهم لأن يستعين كل بنعمة الله وفضله.

حرمة الزكاة على الظالم

فإذا كان الفقير على غير الاستواء ثم دفع صاحب الزكاة إليه شيئاً من المال، فقد قواه على فسقه وفجوره وطغيانه، وكان له شريكاً في عصيانه، كدأب الذين يعينون الظالمين، ويقيمون دولتهم بزرعهم وتجارتهم، وينصرونهم على قتل المسلمين وهتك حريمهم وأخذ أموالهم، ولولا التجار والزارعون ما قامت للظالمين دولة، ولا ثبتت لهم راية، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ؟وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ؟[هود:113]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن الله بعثني بالرحمة والملحمة، وجعل رزقي في ظلال رمحي، ولم يجعلني حراثاً ولا تاجراً، ألا إن شرار عباد الله الحراثون والتجار إلا من أخذ الحق وأعطى الحق.))؛ لأن الحراثين يحرثون والظالمين يلعبون، ويحصدون وينامون ويجوعون ويشبعون، ويسعون في صلاحهم وهم يسعون في هلاك الرعية، فهم لهم خدم لا يؤجرون، وأعوان لا يشكرون، فراعنة جبارون، وأهل خنا فاسقون، إن استُرْحِموا لم يرحموا، وإن استنصفوا لم ينصفوا، لا يذكرون المعاد، ولا يصلحون البلاد، ولا يرحمون العباد، معتكفون على اللهو والطنابير، وضرب المعازف والمزامير، قد اتخذوا دين الله دغلاً، وعباده خولاً، وماله دولاً، بما يقويهم التجار والحراثون، ثم هم يقولون: إنهم مستضعفون، كأن لم يسمعوا قول الله تبارك الله وتعالى فيهم وفيمن اعتل بمثل علتهم؛ إذ يحكي عنهم قولهم: ؟إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا؟[النساء:97]، وقال سبحانه: ؟وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً؟[النساء:100]، يقول: من هاجر من دار الظالمين ولحق

بدار الحق والمحقين، رزقه الله من الرزق الواسع ما يرغم أنف من ألجأه إلى الخروج من وطنه، وذلك ما يروى عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، أنه كان يقول: ((يروى أن الله عز وجل يجعل أعوان الظالمين يوم القيامة في سرادق من نار، ويجعل لهم أظافير من حديد يحكون بها أبدانهم حتى تبدوا أفئدتهم فتحترق، فيقولون: يا ربنا ألم نكن نعبدك؟ قال: بلى، ولكنكم كنتم أعواناً للظالمين.))، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((ملعون معلون من كثر سواد ظالم)).

وفي معاداة الظالمين ما يقول الله عز وجل: ؟قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟[الممتحنة:4]، فباين إبراهيم والذين معه آباءهم وأبناءهم وإخوانهم الذين باينوا الله بالعداوة، وكذلك يجب على كل مؤمن أن يقتدي بفعلهم.

(99/1)

المحكم والمتشابه

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

اعلم أن القرآن محكم ومتشابه، وتنزيل وتأويل، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وحلال وحرام، وأمثال وعبر وأخبار وقصص، وظاهر وباطن، وكل ما ذكرنا يُصدِّق بعضه بعضاً، فأوله كآخره، وظاهره كباطنه، ليس فيه تناقض، وذلك أنه كتاب عزيز، جاء من رب عزيز على يدي رسول كريم،

وتصديق ذلك في كتاب الله حيث يقول: ؟وانه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ؟[فصلت:42]، ويقول: ؟بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ؟[البروج:21]، ويقول: ؟أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا؟[النساء:82].

فإذا فهم الرجل ذلك أخذ بمحكم القرآن، وأقر بمتشابهه أنه من الله، كما قال الله سبحانه: ؟هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؟[آل عمران:7]، ثم بين عز وجل لأي معنى تركوا المحكم وأخذوا بالمتشابه؛ قال: لابتغاء الفتنة والهلكة، فلذلك جعل المحكم إماماً للمتشابه، كما جعله حيث يقول: ؟هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ؟.

(100/1)

فالمحكم كما قال الله: ؟وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص:4]، و ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟[الشورى:11]، و؟لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ؟[الأنعام:103]، ونحو ذلك، والمتشابه مثل قوله: ؟وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ؟[القيامة:22]، معناها بين عند أهل العلم، وذلك أن تفسيره عندهم. أن الوجوه يومئذ تكون نضرة مشرقة ناعمة، إلى ثواب ربها منتظرة، كما تقول: لا أنظر إلا إلى الله وإلى محمد، ومحمد غائب، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة، معناه: لا يبشرهم برحمته، ولا ينيلهم ما أنال أهل الجنة من الثواب، فعندما لا ينظر الله إليهم يوم القيامة يراهم.

ثم قال: ؟فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ؟، يقول: ثواب ربه، ؟فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا؟[الكهف:110]، وقال: ؟كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ؟[المطففين:15].

وأما الله عز وجل فلا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك أن ما وقع عليه البصر فليس بخالق ولا قادر.

وكذلك يأخذ الإنسان في العدل والتوحيد بهذه الآيات: ؟إن اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ؟[الأعراف:28]، ؟وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ؟[الزمر:7]، وإذا مر عليه شيء من القرآن يقع عنده أنه مخالف لهذه الآية فليعلم أن تفسيره مثل تفسير المحكم، إلا أنه جهل تفسيره، مثل قول الله عز وجل: ؟وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ؟[الإسراء:4]، أي: تختارون اسم الفساد، كما قال: ؟وَقَضَيْنَا إليه ذَلِكَ الْأَمْرَ ؟[الحجر:66]، يقول: أعلمناه.

والوجه الثاني في القضاء: أمر، كما قال سبحانه: ؟وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ؟[الإسراء:23].

(101/1)

والوجه الثالث: قضاء خلق، وذلك قوله: ؟فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ؟[فصلت:12]، يقول: خلقهن في يومين، فأما أن يكون يقضي رب العالمين على خلقه بمعصية ثم يعذبهم عليها، فهذا محال باطل من المقال.

ثم قال: ؟هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ؟[المائدة:60]، فتفسيرها على التقديم والتأخير. يقول: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا، وجعل منهم القردة والخنازير خارج من الكلام.

ثم قال: ؟أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟، بيانها في أولها حيث يقول: ؟يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إن أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وإن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ؟[المائدة:41]، بعد ما كان من عصيانهم، ومن مخالفتهم للحق وأهله.

(102/1)

ثم قال عز وجل: ؟وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلاَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ؟[يونس:88]، يقول: آتيتهم يا رب هذه الأموال والأبدان والخيل والرجال – يعني أنه خلقهم لا أنه ملكهم _ ؟رَبَّنَا لِيُضِلُّوا؟، يقول: لئلا يضلوا عن سبيلك، فضلوا وصرفوا نعمتك التي أمرتهم أن يصرفونها في طاعتك لا في معصيتك، فعندما فعلوا ذلك ؟رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا؟، يقول: إنهم لا يؤمنون اختياراً من أنفسهم المعصية والكفر.

ثم قال: ؟إِن هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ؟[الأعراف:155]، يقول: إن هي إلا محنتك، ؟تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ؟، يقول: توقع اسم الضلال على من يستحقه بعد هذه الفتنة، قامت بها مقام بعد.

وقال: ؟وإِن رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ؟[الرعد:6]، يقول بعد ظلمهم إذا تابوا، وقال: ؟وَلاصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ؟[طه:71]، يقول: على جذوع النخل، قامت (في) مقام (على)، وقال: ؟وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ؟، يقول على القوم ؟الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا؟[الأنبياء:77].

وقال: ؟وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا؟[يوسف:82]، يقول أهل القرية وأهل العير.

وقال: ؟إنما ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ؟[آل عمران:175]، يقول: يخوف الناس بأوليائه، وقال: ؟يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ؟، يقول: يحبون أندادهم كحب المؤمنين لله: ؟وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ؟[البقرة:165]. وقال: ؟يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ؟[النساء:77]، يقول: يخشون الناس كخشية المؤمنين لله.

(103/1)

وقال: ؟وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ؟[الحاقة:17]، والعرش فهو: الملك، كما قال: ؟اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟[النمل:26]، قال الشاعر:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها .... وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

يقول: إنه انهد عزها وملكها، ومعنى يحمل: يتقلدون أمر الله ونهيه في خلقه، كما قال: ؟وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ؟[العنكبوت:13]، يقول: يتقلدون أمورهم، وقال:

حُمِّلت أمراً جليلاً فاضطلعت به .... وقمت فيه بحق الله يا عمرا

يقول: قلدت أمراً جليلاً.

؟فَوْقَهُمْ؟، يقول: منهم، قامت (فوق) مقام (من)، ؟ثَمَانِيَةٌ؟، يمكن أن تكون ثمانية أصناف أو ثمانية آلاف، أو ثمانية أنفس.

ويقول: ؟يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ؟[القلم:42]، يقول: عن شدة، كما قال:

قامت بنا الحرب على ساق فشمرنا على

ويقول إبليس اللعين: ؟رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي؟[الحجر:39]، يقول: دعوتني بهذا الاسم بعد أن استوجبته، و ؟وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ؟[هود:34]، يقول: يعذبكم، الإغواء في هذا الموضع: العذاب كما قال: ؟فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا؟[مريم:95].

(104/1)

تنزيه الأنبياء

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

اعلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يعص أحد منهم متعمداً يعلم أن لله معصية فيتعمدها، وذلك لا يجوز على الأنبياء؛ لأنهم أصفياؤه ورسله؛ اختارهم على علم سبق منه فيهم أنه إذا بعثهم إلى خلقه سيبلغون الرسالة، ويؤدون الأمانة، ولا يعصونه في شيء من الأشياء، فعلى ذلك اصطفاهم واختارهم.

قال في قصة آدم عليه السلام: ؟فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا؟[طه:115].

وقال في قصة نوح عندما دعا ربه: ؟رَبِّ إِن ابْنِي مِنْ أَهْلِي؟، فقال له ربه: ؟انه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ؟، يقول: ليس من أهل طاعتك، ؟انه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ؟، فقال نوح: ؟رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ والا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟[هود:47.45]، فتاب عليه السلام من ذلك.

وكذلك يوسف صلى الله عليه عندما أخذ أخاه على دين الملك، فقال رب العالمين في ذلك: ؟كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ؟[يوسف:76].

وقال موسى عندما قتل القبطي: ؟رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؟[القصص:16]، و ؟هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ؟[القصص:15]، وقال: ؟فَعَلْتُهَا إذا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ؟[الشعراء:20]، يقول: من الجاهلين لعاقبة أمري.

وداود عليه السلام عندما نظر إلى امرأة أوريا فأعجبته، ثم كان يذكرها في نفسه دائماً ويقول: لو دريت أن هذه المرأة على هذه الصفة لتزوجتها قبل أن يتزوجها أوريا، فلما أن بعث الله إليه الملكين اللذين تخاصما إليه وحكم داود بينهما بالحق علم أنه مخطئ في ذلك، فتاب إلى ربه فتاب الله عليه.

وكذلك سليمان، ويونس، وأيوب وجميع الأنبياء، صلوات الله عليهم، ما كانت خطاياهم وعصيانهم

إلا على وجه الزلل والنسيان، فاعلم ذلك، ولا تنسب إليهم ما لا يليق بهم؛ لأنهم بررة أتقياء أصفياء صلوات الله عليهم.

(105/1)

تفسير الكتاب

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

تفسير (الكتاب) في القرآن على وجوه شتى:

فوجه منها: علم، كما قال الله تبارك وتعالى: ؟وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا فِي كِتَابٍ؟[فاطر:11]، يقول: في علم الله، ويقول: ؟مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا؟[الحديد:22]، يقول: في علم الله من قبل أن يخلق الأنفس، ويقول: ؟كَتَبَ اللَّهُ؟، يقول: علم الله، ؟لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي؟[المجادلة:21]، وقال: ؟وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ؟[الأنعام:59]، يقول: في علم مبين، وقال: ؟وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ؟[القمر:52]، يقول: في علم الله، وقال: ؟هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ؟[الجاثية:29]، يعني: علمه عز وجل.

(107/1)

وقال: ؟لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ؟[آل عمران:154]، يقول: علم. فالكتاب هاهنا كتاب علم؛ لأن الله تبارك وتعالى قد علم أنه سيختارون البراز إلى مضاجعهم، فإذا برزوا اختياراً من أنفسهم للبراز قَتلوا وقُتلوا، فالبراز فعل من البارز، والقتل فعل من القاتل المعتدي، وليس العلم الذي جبرهما على البراز والقتل، والبراز والقتل فعل من البارز والقاتل، وعلم الله محيط بهما كما قال عز وجل: ؟وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ؟[محمد:19]، التقلب من الخلق، وعلم الخالق محيط بهم، ولا يقدر أحد أن يخرج من علم الله، وليس علم الله الذي يدخلهم في الطاعة ويخرجهم من المعصية، ولكن (قوماً) اختاروا الطاعة على المعصية فاستوجبوا من الله الرضى والرضوان؛ لأنهم سعوا في إرادة الله ومشيئته، واختار قوم المعصية على الطاعة، فاستوجبوا من الله السخط والعقوبة؛ لأنهم سعوا في سخط الله وكرهوا رضوانه، ؟ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ؟[محمد:28]، واتبعوا أهواءهم، وأرضوا الشيطان بفعلهم، فصاروا في حزبه: ؟أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إن حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ؟[المجادلة:19]؛ لأن الله لا يُقدِّر أبداً ما يكره، ولا يُقدِّر

إلا ما يرضى، وليست مشيئته تقع إلا على رضاه، ولا يكره إلا ما يسخطه، فاعلم ذلك، ؟فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ؟، كما قال عز وجل: ؟يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ؟[هود:105]، في ذلك اليوم بعمله القبيح الذي قدمه في دار دنياه، ومنهم سعيد بعمله الصالح الذي قدمه في هذه الدنيا، ولذلك قال عز وجل: ؟وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؟[الأعراف:179]، يقول: إنه يعيدهم ويخلقهم يوم القيامة خلقاً ثانياً، من خرج من الدنيا عاصياً لجهنم،

(108/1)

وإن كان لفظ (ذرأنا) لفظ ماض فمعناه مستقبل، كما قال: ؟وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ؟[الأعراف:44]، ؟وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ؟، يقول: إنهم سينادون، لا أنه عز وجل خلقهم للنار في هذه الدنيا، وهو سبحانه يقول: خلاف ذلك في كتابه، قال: ؟وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ؟[الذاريات:56]، لم يخلق جميع خلقه إلا لعبادته، ولذلك ركب فيهم العقول وأرسل إليهم الرسول وأنزل عليهم الكتب؛ ؟لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى؟[النجم:31]، وقال: ؟لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ؟[يونس:26]، في الكرامة.

والوجه الثاني من كتاب الله: قوله سبحانه: ؟وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا؟، يقول: فرضنا عليهم: ؟أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ؟[المائدة:45]، إلى آخر الآية.

والوجه الثالث: قوله عز وجل: ؟إنا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ؟[الزمر:2]، يعني القرآن.

(109/1)

والوجه الرابع: قوله: ؟كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ؟[الأنعام:12]، يقول: أوجب على نفسه الرحمة، أنهم إذا تابوا رحمهم، وأوجب لهم على نفسه الرحمة، فالكاتب والمكتوب عليه في هذا الموضع واحد، وهو الله رب العالمين، وكذلك قوله: ؟تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ؟[المائدة:116]، يقول عيسى عليه السلام: تعلم ما غاب عني من أمري، ؟وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ؟؛ يقول: لا أعلم ما غاب عني من أمرك، وكذلك قوله:؟فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ؟، وقوله: ؟كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ؟[القصص:88]، وقوله: ؟تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا؟[القمر:14]، وقوله: ؟بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ؟[المائدة:64]، ؟وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ؟[الزمر:67]، فكل هذه الآيات وما أشبهها من الآيات فإنما يريد عز وجل ذاته، لا أن ثم نفساً ووجهاً ويداً وعيناً ويميناً سواه، فاعلم

ذلك، وتفكر في جميعه يبن لك الصواب، وينفى عنك الشك والارتياب بحول الله وقوته.

تم الكتاب والحمد لله وحده وصلواته على رسوله سيدنا محمد النبي وآله وسلامه

(110/1)

كتاب الدَّيانة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(111/1)

التوحيد

إنا ندين بأن الله واحد أحد، ليس له شبه، ولا نظير، ولا مثل، ولا عدل، ولا كفؤ في وجه من الوجوه، ولا معنى من المعاني، وأنه ليس بذي صورة، ولا حد، ولا غاية، ولا نهاية، ولا بذي أجزاء ولا أعضاء، ولا بعضه غير بعض، ولا يقع عليه الطول والعرض، ولا يوصف بالهبوط، ولا الصعود، والتحرك، والسكون، والزوال، (والعجز، والهرم، والجهل)، والانتقال، والتغير من حال إلى حال. ولا يحويه مكان، ولا يمر عليه وقت ولا زمان، وأنه قبل كل مكان، وحين وأوان، ووقت وزمان، وأنه خلق المكان من غير حاجة إليه، وإنما خلقه لحاجة الخلق إليه، وأنه في السماء إلهٌ، وفي الأرض إلهٌ، وفي كل مكان إلهٌ خالق، مدبر من غير أن يحويه شيء، ولا يحيط به، ومن غير أن يكون حملة العرش يحملونه، تعالى الله عن ذلك، وأنهم يحملون العرش، وأما الله سبحانه وبحمده فإنه أعز وأجل من أن يحمله أحد من الخلق، والخلق أعجز وأضعف من أن ينالوا ذلك منه، أو يقدروا عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومن غير أن يكون كما يستوي الإنسان على سريره، ولكن استوى على العرش، والعرش فهو الملك، واستواؤه ملكه وقهره، بلا ند يشاوره، ولا ضد ينافره، ولا معين يوازره، وهو كما قال الملك في كتابه، بلا كيف ولا تمثيل ولا تحديد. وأنه شيء لا كالأشياء، ولا شيء يعدله سبحانه وبحمده. وأنه ليس بجسم ولا جسد، ولا فيه صفة من صفات الأجساد، ونعتها وهيئتها، من تأليفها واتصالها، واجتماعها، وافتراقها، وكينونة بعضها على بعض، على المجامعة، والمفارقة، والمباشرة، والدخول، والخروج، والقرب في المسافة، والبعد في العزلة والغيبة وطول السفر. وأنه لا يحتجب بشيء من خلقه، ولا يستتر به، ولا يبدو له فيدركه. وأن الفِكَرَ لا تبلغه، وأن العقول لا تقدره،

والأوهام لا تناله، والضمائر لا تمثله، والأبصار لا تدركه، وأن العيون لا تراه في الدنيا ولا في الآخرة، وأن من زعم أن الأبصار تدركه وأن العيون تراه مجاهرة فقد

(112/1)

قال قولاً عظيماً، وأن من زعم أن العيون تكيفه، أو قال يرى في القيامة بشيء مما عليه العباد، فيرونه بذلك الشيء، أو يدركونه وسمّى ذلك الشيء، حاش لله، فقد قال إفكاً وزوراً، لأن كل من وقعت عليه الرؤية فمحدث، وما مسته الأيدي أو سمعته الأذان أو أدركه الذوق أو الشم فمحدث، وكذلك كلما خلقه الله أو يخلقه فلا يدرك به إلا ما كان محدثاً، وكذلك ما في قدرته أن يخلقه مما ليس بحكمه أن يكون، فلو خلقه أو صنعه لم يُدْرك به إلا ما كان محدثاً، والله فهو القديم الدائم، فلا عين تراه، ولا يدرك بأداة، إنما يعرف بخلقه، ويستدل عليه بآياته، وتدبيره في سمائه وأرضه، من صغير الخلق وكبيره، وقليله وكثيره، فذلك سبيل العلم به، والوصول إلى معرفته، وتحقيق ربوبيته، وتصحيح الإيمان به أنه خالق هذا الخلق ومدبره، وصانعه ومقدره، وربه وإلهه ومالكه، لا شريك له ولا نظير ولا معين، ولا وزير، ولا ند ولا ضد، ولا شبه ولا مثل.

وأن من شبهه بشيء من خلقه كائناً ذلك الشيء ما كان، أو وصفه بتحديد، أو زعم أن بيننا وبينه حجباً ساترة، وأنه لو رفعت تلك الحجب لأدركناه ورأيناه فقد قال قولاً عظيماً. وأن من وصفه بالكيفية والماهية فقد جهل واجترى، وأن من زعم أنه لا يعبد شيئاً فهو كما أخبر عن نفسه لا يعبد شيئاً، ومن قال هو خالق الشيء ولا يقال له شيء فقد جار وحار عن طريق القصد والهدى.

(113/1)

العلم والقدرة والسمع والبصر

وأن الله علام الغيوب لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ولا في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه القادر الذي لا يعجزه شيء من الأشياء، لم يزل عالماً قادراً، ولا يزال قادراً عالماً، ليس لقدرته غاية، ولا لعلمه نهاية، وليس علمه وقدرته سواه، هو القادر لا بقدرةٍ سواه، والعالم لا بعلمٍ سواه. وهو السميع البصير، ليس سمعه غيره، ولا بصره سواه، ولا السمع غير البصر، ولا البصر غير السمع، ولا يوصف بسمع كأسماع المخلوقين، ولا ببصر كأبصارهم، تعالى الله عن ذلك، ولكنه سميع لا تخفى عليه الأصوات، ولا الكلام واللغات، بصير لا تخفى عليه الأشخاص، ولا الصور ولا الهيآت، ولا مكان شيء من الأشياء وموضعه، ولا يغيب عليه شيء من أمره وحاله، لم يزل سميعاً بصيراً ولا

يزال كذلك تبارك وتعالى. وأن له قدرةً وعلماً وسمعاً وبصراً ليس ذلك على إضافة شيء ثان له تبارك وتعالى، ولا كما ظن المشبهون أن له وجهاً وصورة وتخطيطاً وأنها نفس في جسد، حاش لله من ذلك، ولكنه على تحقيق إثباته جل جلاله.

وأن من زعم أن علمه محدث، وقدرته محدثه، كان غير عالم ثم عَلِمَ، وغير قادر ثم قدر فقد قال قولاً عظيماً، ومن قال إن علمه وقدرته وسمعه وبصره صفات له، وأنه لم يزل بها موصوفاً قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن يكون أحد يصفه بها، وقبل أن يصف هو بها نفسه، وتلك الصفات زعم لا هي الله ولا هي غير الله فقد قال منكراً من القول وزوراً.

ومن قال بهذه المقالة، ثم زعم أن هذه الصفات لا هي الله ولا هي غير الله، فقد أتى إثماً مبيناً.

ومن قال ليس لله علم ولا قدرة، ولا سمع، ولا بصر، فقد جهل واجترى، وقال مقالة الزور والفرى.

ومن قال لا يقال لله علم، ولا يقال ليس له علم، فقد ضيع من الدين واللغة حظاً نافعاً. ومن قال علم الله هو الله، وقدرة الله هي الله، وسمع الله هو الله، وبصر الله هو الله، فقد قال في ذلك بالصواب.

(114/1)

ومن قال علم الله محدث أحدثه الله وفعل فعله، وهو حركة والحركة زوال من مكان إلى مكان، فقد افترى على الله الكذب. ومن قال لا يعلم الشيء حتى يقدره، فإذا قدره علمه، وكذلك من قال محال أن يعلم الشيء قبل أن يكون.

وكذلك من زعم أنه على العرش دون السماوات والأرض، وأنه ليس في السماء ولا في الأرض، ولكن علمه في السموات والأرض وفي كل مكان علمه، وفي كل شيء علمه، وعلمه معنا حيث ما كنَّا، وعلمه منَّا قريب، وهو إلينا أقرب من حبل الوريد. فأما الله فهو منَّا بعيد، لا أنه في موضع محدود، وليس هو في سائر الخلق موجود. وكذلك من زعم أن له وجهاً حاراً، لو كشفه لأحرق ما أدركه بصره، وأن له كفاً محدودة، وأصابع معدودة، وأنامل باردة، وساقاً وقدماً، ولساناً وفماً، وكذلك من زعم أن له حداً ومقداراً، وصورة من الصور وهيئة من الهيئات.

وكذلك من زعم أن الله تبدو له البدوات، وأنه يريد أن يفعل الشيء ثم لا يفعله، لنية تبدوا له فيه، وأنه يخبر أنه سيفعل كذا وكذا ثم يبدو له فيه فلا يفعله فكل هؤلاء قد قال الكذب، وقال ما لا برهان له به، ولا سلطان، فتعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً.

(115/1)

قيام الحجة على أهل الفترات

وندين بأن حجة الله قائمة على أهل الفترات البالغين، الأصحاء السالمين بفطر عقولهم، وما يجدونه في أنفسهم، وما يرونه في سماوات الله وأرضه، وما يأتي به الليل والنهار من عجائب تدبيره، وما قد ورد عليهم من أخبار الأنبياء المتقدمين، وأخبار كتبهم وشرائعهم، وأحكامهم، ودعوتهم القائمة إلى عبادته وحده، وإثبات ربوبيته، وطاعته، وإثبات جنته وناره، ووعده ووعيده، والإيمان بالبعث والنشور، وأن لا يشركوا بعبادته أحداً، ولا يعبدوا شيئاً سواه، وأن لا يطاع المخلوق في معصية الخالق.

فمن عرف من أهل هذه الفترات حق الله الذي أوجبه عليه، وآمن به وأطاعه، ولم يعبد شيئاً غيره، واجتنب جميع ما حرم الله عليه، وصدق الأنبياء، وآمن بكتاب الله وملائكته، ووعده ووعيده، وجنته وناره، وبالبعث بعد الموت، والنشور والحشر إلى يوم القيامة، والحساب، والثواب، والعقاب حتى يموت على ذلك فهو من أهل ثواب الله وجنته.

ومن خالف ذلك إلى الجحود والكفر والشرك، فعبد شيئاً مع الله، أو شيئاً دون الله، أو جحد القيامة والبعث والنشور، ولم يؤمن بجنة ولا نار، ولاحساب، ولا ثواب، ولا عقاب، ولا وعد ولا وعيد، حتى يموت على ذلك، فهو من أهل النار خالداً مخلداً فيها أبداً.

وندين بالإيمان باللوح المحفوظ على ما ذكره الله في كتابه، ودان به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

(116/1)

رضا الله وسخطه حسب عمل العبد لا حسب علم الله بمآل العبد

وندين بأن من كان مؤمناً بالله، عاملاً بطاعته، مؤدياً لفرائضه، مجتنباً لمحارمه، وقد علم الله منه أنه سيغير ويبدل، وينتقل من الإيمان إلى الكفر، ومن هدى إلى ضلالة أنه في حال إيمانه وطاعته مستوجب لثوابه وجنته، فإن الله محب له راض عنه، ما دام متمسكاً كذلك، فإذا بدل وغيّر وانتقل من الإيمان إلى الكفر، صار عند الله عدواً لله ملعوناً، مستوجباً لسخطه وناره. فلو أن عبداً كفر بالله وعمل بمعصيته، وترك طاعته، وفي علم الله أنه سيتوب ويؤمن أنه في حال كفره ومعصيته عدو لله ملعون مستوجب لسخط الله وناره، فإذا تاب وآمن صار ولياً لله مستوجباً لثوابه وجنته؛ لأن الله جل جلاله لا يعادي على العلم، ولا يوالي عليه، ولا يثيب به ولا يعاقب عليه، ولا يسخط على من لم يسخطه، ولا يغضب على من لم يغضبه، ولا يرضى على من لم يرضه.

تم الكتاب والحمد لله

وله أيضاً صلوات الله عليه:

(117/1)

جواب لأهل صنعاء على كتاب كتبوه إليه عند قدومه البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي ليس كمثله شي وهو السميع البصير.

أما بعد؛

فقد جاءني كتابكم تحذرون البدع المضلة، والأهواء المغوية، والآراء المحدثة، والميل إلى الخلاف والفرقة، وتحثون على لزوم الجماعة والأبرار الذين كانوا أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وذلك عندما بلغكم من اجتماع الناس على عيبي وطعنهم عليَّ، وتنقصهم إياي، وشتمهم لي من غير حدث أحدثت، ولا خلاف أظهرت، ولارأيٍ قبيح ابتدعت. زعموا أني تركت المنهاج الأكبر، وأني سلكت الطريق الأوعر. وتسألوني ما أنا عليه، وما أنا متمسك به، وإيضاح ذلك من لدن التوحيد إلى آخر فريضة من فرائض الله، وقد فسرت جميع ذلك في كتابي هذا حسب طاقتي، وبالله حولي وقوتي، وعليه أتوكل في جميع أموري.

(118/1)

الإيمان بالله

أما الذي أرجو به الفوز، وهو لي عدة من عذاب الله وحرز وجُنَّة: فإقراري لله عز وجل بالربوبية، وشهادتي له بالوحدانية، وإذعاني له بالعبودية، وأنه خالق كل شي مما يرى ومما لا يرى، في بطن الأرض وما تحت الثرى، وما في السموات العلى، بلا معين أعانه عليه، ولا دليل احتاج إليه، ولا مثال احتذى عليه. تفرد بخلق الأشياء لا من أصول أولية، ولا أوائل كانت قبله بدية، لكن مثلها بحكمته، وابتدعها بقدرته، من غير مثال سبق إليه، ولا لغوب دخل عليه.

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الإبصار، ولا يوصف بتجسيد ولا أقطار. أزلي صمدي على غير كيفية، ولا وسوسة الصدور، بل ارتفع عن تحديد بصر البصير.

(119/1)

الإيمان باليوم الآخر

وأشهد أن الجنة حق دار بقاء ونعمة، خلقها وكونها من رضوانه، فجعلها للمطيعين ثواباً. وأن النار دار شقاء ونقمة، خلقها من سخطه، فجعلها للعاصين عقاباً. لا يفنى عذابه، ولا يبيد ألمه، ولا يخلف وعده ولا وعيده، ولا يظلم عبيده، وإليه نحشر يوم ينفخ في الصور، عند صيحة النشور، فنثور بعد البلاءِ من القبور، ويدعوا الكافر المغرور بالويل والثبور، ونعرض على الرحمن صفاً، ويعض الكافر من الندامة كفاً، فيفصل بيننا بعدل لا يجور، فريق في الجنة وفريق في السعير.

فسبحان من ملكه دائم لايزول.

(120/1)

الإيمان بمحمد

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اختاره بعلمه، وبعثه إلى خلقه، وائتمنه على وحيه؛ فدعى الناس إلى الله بجد واجتهاد، رحيماً بالعباد، ونوراً للبلاد، فافتتح الدعوة بقومه، صلى الله عليه وآله وسلم، فأبوا له التسليم، وهموا به العظيم، ومنعوه الأسواق، وضيقوا عليه الآفاق، ونصبوا له الحبايل، وطلبوا له الغوايل، وشحذوا له السيوف ليذيقوه الحتوف، فعصمه الله منهم، ورد كيدهم بينهم في نحورهم، وأيده بنور ساطع، وحجج حق وسيف قاطع، وبراهين صدق في القلوب واقع، فأدخلهم في الملة بين مسلم مستسلم، وبين مستسلم متجشم، يكتمون النفاق مخافة ضرب الأعناق، فصلى الله على الناصح الشفيق، محمد بن عبدالله الطيب الرفيق، الدال على المنهاج الواضح، والطريق اللايح، صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الأخيار وعلى ابن عمه علي بن أبي طالب أسبق السابقين سبقاً، وأولهم ايماناً وسلماً، أنقذنا الله به من شفا الحفرة، ومغاليط الكفرة، وسحقات الفجرة.

(121/1)

الإيمان بالقرآن

ثم إني أشهد أن القرآن وحي الله وكتابه وتنزيله، أنزله على نبيه عصمة لمن اعتصم به، ونجاة لمن تمسك به. من عمل به نجا، ومن خالفه غوى وفي النار غداً تردى، مفصل آياته، موصل محكماته، كثيرة عجايبة، سنية مذاهبه، نيِّر برهانه، واضحة حجته.

(122/1)

الاقرار بفرائض الإسلام ومنهياته

وأشهد أن الصلاة واجبة، وأن الزكاة لازمة، وشهر رمضان فرض صيامه، ولم توجب علينا النافلة قيامه. والحج على الناس دين من استطاع إليه سبيلاً، والاستطاعة الزاد والراحلة، وأمان الطريق.

والجهاد قسراً يقسر النفوس على القيام بالجهاد قسراً، وفي الجهاد فضل الدرجات، والبعد من النقمات.

ودفع الصدقات إلى أهلها، مع اجتناب المحرمات، والاغتسال من الجنابات، مع الوضوء بالماء الطاهر، أو التيمم بالصعيد الطيب، والمحافظة لأوقات الصلوات.

والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعمارة المساجد بالذكر والصلوات، لا بالفواحش والزور من الشهادات، كفعل أهل زماننا الفاسقين منهم والفاسقات.

والحب في الله والبغض في الله، والموالاة فيها لأولياء الله، والمعاداة لأعداء الله مَن كانوا وأين كانوا.

وكل من خالف كتاب الله في شي، من العتق، والطلاق، وغير ذلك مردود إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. والتسليم لأمر الله، والرضا بما قضا الله.

واجتناب الكبائر، والآثام دِقها وجلها، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، والفرار من الزحف، وأكل الربا، واجتناب الزنى، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وترك التعرض لأموال المسلمين والمعاهدين، مع ترك الأياس من روح الله، ولا يؤمن مكر الله. وترك شرب المسكر، وتعليم السحر، ولا نصدق بالكهانة والطيرة.

مع العلم بأن محض الإيمان ترك النميمة، والغيبة والبهتان، والحسد، والبغي، والظلم، والجور، والفحش، من قول الزور والخنا، والخيانة، ونقض العهد، وخفر الأمانة، والعظمة في النفس، والإعجاب، والكبر، والجفاء بالحق وأهله، والقسوة، والغلظة، والفظاظه، والشحنا، والسمعة، والعصبية، والعداوة، والبغضاء، والمغالبة والمكابرة، واليمين الفاجرة، والكذب، والغدر، وسوء الخلق، والأياس من الرزق.

(123/1)

وعليكم بالعمل بتقوى الله، والحياء من الله، والتعظيم لأمر الله، وصدق الحديث، والمواساة في المال لذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وغض البصر، وعفة البطن، وحفظ الفرج، وأكل الحلال، والزهد في الحرام، وترك الدنيا، واستعمال الورع، والتضرع في الدعاء، والصيانة، والخشوع، والرحمة، والخضوع، والرأفة، والرقة، والرفق، وحسن الخلق، ومداراة الضعيف، والمسلم، وإغاثة الملهوف،

والحياء، والكرم، والحلم، والصبر، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والعفو عمن ظلمك، والكف عمن شتمك، والتفضل على من حرمك، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام.
ورأس الأمر وأوله، وآخره ووسطه، وتمامه النصيحة للولي والعدو، والبر والفاجر، وترك الغش لجميع الخلق.

(124/1)

التمسك بأهل البيت دون من سواهم من الفرق
فهذا وفقكم الله دين المؤمنين وديني وما عليه اعتقادي، لست بزنديق ولا دهري، ولا ممن يقول بالطبع، ولا ثنوي، ولا مجبر قدري، ولا حشوي، ولا خارجي. وإلى الله أبرأ من كل رافضي غوي، ومن كل حروري ناصبي، ومن كل معتزلي غال، ومن جميع الفرق الشاذة، ونعوذ بالله من كل مقالة غالية، ولابد من فرقه ناجية عالية، وهذه الفرق كلها عندي حجتهم داحضة.
والحمد لله، وأنا متمسك بأهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومهبط الوحي، ومعدن العلم وأهل الذكر، الذين بهم وُحِّد الرحمن، وفي بيتهم نزل القرآن، والفرقان، ولديهم التأويل والبيان، وبمفاتيح منطقهم نطق كل لسان، وبذلك حث عليهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله: ((إني تارك فيكم الثقلين لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، مثلهم فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى.)) فقد أصبحوا عندي بحمد الله مفاتيح الهدى، ومصابيح الدجى، لو طلبنا شرق الأرض وغربها لم نجد في الشرف مثلهم. فأنا أقفوا آثارهم، وأتمثل مثالهم، وأقول بقولهم، وأدين بدينهم، وأحتذي بفعلهم.

(125/1)

من عناصر الإيمان
العمل من الإيمان والإيمان من العمل بمنزلة الروح من الجسد، يزيد وينقص: بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبزيادته تفاضلوا في الدرجات عند الله، وبالنقصان منه دخل المقصرون النار. وأنا مؤمن بقضاء الله وقدره، ماكرهت نفسي من ذلك وما رضيت، ومقر بأن القرآن كلام الله ووحية، وتنزيله وحجته على خلقه، أحكم تأليفه إحكاماً، وأنشأه بأحسن الإنشاء؛ فجعله برهاناً وتفصيلاً، سماه قرآناً عربياً لقوم يعقلون، وأدين بأن المقاييس والرأي في الدين دين إبليس اللعين.
وأشهد أن لله المشيئة في جميع أفعاله، من زيادة ذلك ونقصانه، ومحوه وإثباته.

وأشهد أن الله تبارك وتعالى لم يقطع وحيه، ولم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أكمل دينه، وبين له جميع ما يحتاج إليه من الحلال والحرام، والفرائض والأحكام، والمواريث والأقسام، وجميع ما فيه النجاة من النيران، والوصول إلى دار السلام. وكذلك أشهد أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكتم شيئاً من الحق، بل أدّى عن الله الصدق، ونهى عن الكذب، والفسق، والكفر، والظلم، والجور، والبغي، وكل ما لا يجوز في الدين، هذه شهادتي عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

(126/1)

الترضية على الصحابة وأمهات المؤمنين

ولا أنتقص أحداً من الصحابه الصادقين والتابعين بإحسان، المؤمنات منهم والمؤمنين، أتولى جميع من هاجر، ومن آوى منهم ونصر، فمن سب مؤمناً عندي استحلالا فقد كفر، ومن سبه استحراما فقد ضل عندي وفسق، ولا أسب إلا من نقض العهد والعزيمة، وفي كل وقت له هزيمة، من الذين بالنفاق تفردوا وعلى الرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مرة بعد مرة تمردوا، وعلى أهل بيته اجترءوا وطعنوا. وإني أستغفر الله لأمهات المؤمنين اللواتي خرجن من الدنيا وهن من الدين على يقين، وأجعل لعنة الله على من تناولهن بما لا يستحققن من ساير الناس أجمعين.

(127/1)

الحوض والشفاعة

ولا أنكر الحوض ولا الشفاعة، ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإِن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال: 42] ؟مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ؟[فصلت: 46] فهذا ديني واعتقادي، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على خير خلقه أجمعين محمد وعترته الطاهرين.

(128/1)

كتاب المسترشد في التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علا بطوله، وجل بحوله الداني في علوه، والنائي في دنوه رب العالمين، وفاطر السماوات والأرضين، الذي بان عن مشابهة المخلوقين، وتقدس عن مناظرة المحدودين، المتجلي لعباده الموقنين بما أراهم من بدائع فعله في المربوبين، بل بما أراهم في أنفسهم من عظيم تدبيره، وبين لهم فيهم من لطيف صنعه وتقديره، فكلهم يشهد له ضرورة بالرُّبوبية، وينطق له ويقر بالفعل والأزلية، كما قال ذو الجلال والسلطان فيما نزله على نبيئه من النور والفرقان حين يقول سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه: ؟وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟[العنكبوت: 61]، وقال سبحانه: ؟وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ؟[العنكبوت: 63]، فسبحان الذي علمه بخفيات ضمائر الصدور كعلمه بما ظهر وأنار من الأمور، الذي لا تخفى عليه الخفيات، ولا تستتر عنه المستورات، ولا تحتجب عنه المحجوبات، ولا تعروه الغفلة والسنات، ولا تنتظمه بتجديد الصفات، ولا تنقصه الأيّام والسّاعات، بادئ خلق الإنسان من طين، والباعث له يوم الدين والمجازي لعباده على أعمالهم، المحيط بالصغير والكبير من أفعالهم، مقيل العثرات، وغافر السيئات، المعطي على الحسنة الحسنات، قابل التوبة من التآئبين، الواحد الفرد الكريم، الرؤوف بعباده الرحمن الرحيم، العدل في أفعاله الجواد، البري من جميع أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، كذلك الله ذو العزة والإياد، وصلى الله على محمد خاتم النبئين، ورسول رب العالمين، والحجة على جميع المخلوقين، المصلح لله في بلاده، الداعي إليه جميع عباده، السراج الزاهر

(129/1)

المنير، وصفوة اللطيف الخبير، وعلى آله.

(130/1)

معنى العزيز والعزة

ثم نقول من بعد الحمد لله والثناء عليه، والصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

إن سأل سائل: فقال ما معنى قول الله ذي الجلال والإكرام ؟وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ؟[المنافقون: 8]، وقوله سبحانه ؟سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ؟[الصافات: 180]، وقوله:؟الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ ؟[الحشر: 23]؟

قلنا له إن شاء الله: إن معنى العزيز هو الممتنع الذي لا يرام ولا يناضا ولا يضام، ولا يعز أبداً من

أَذَلَّ، ولا يذل أبداً سبحانه من أعز، الذي لا يعجزه شيء، ولا يقدر عليه شيء، مدرك مطلوبيه، وغالب مغالبيه، ومذلّ مناصبيه.

وأما العزة فهي العزة التي أعز بها عباده المؤمنين، وأوليائه المتقين. فأول اعزازه لهم محبته لهم ورضاه عنهم، وغفرانه ذنوبهم، وتأييدهم وتوفيقهم، فإذا فعل ذلك لهم فقد أعزهم وأيّدهم، وأعطاهم من العزة ما لم يعط غيرهم مع ما جعل وأعطى أهل المعرفة به والدين والإخلاص له، والعلم واليقين من أهل بيت الرسول عليهم السلام من الكرامة والولاية، والاستخلاف في الأرض والإمامة، فحكم بالأمر والنهي، والطاعة لمن كان كذلك منهم حكماً، وعزم لهم به دون غيرهم عزماً، فجعلهم خلفاء الأرض الهادين، القائمين بقسط رب العالمين، وأمناءه على جميع عباده المؤمنين.

يأمن في سلطان من كان على ما ذكرنا منهم المؤمنون، ويخاف في دولتهم وقربهم الفاسقون، خافضين لأجنحتهم، واضعين لجبَريَّتِهم. أودّآهم المطيعون لله وإن بعدت أرحامهم، وأعداؤهم المحادون له وإن قربت أنسابهم، فهم كما قال الله سبحانه فيهم وفي من كان من أوليهم وآبائهم حين يقول: ؟قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟[الممتحنة: 4]، اتبعوا قول الله تبارك وتعالى وعملوا به حين يقول جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ؟[المجادلة: 22]، أهل فضاضة على الكافرين وغلظة، ذووا رحمة بالمؤمنين ورآفة ورقة، يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويبتغون الفضل من الله والنجاة، ويطلبون منه الرضوان والرحمة والحياة، فهم كما قال الله فيهم وفيمن تقدم قبلهم من آبائهم ومن سلك مسلكهم من أولادهم، بهم ضرب الله الأماثيل في التوراة المطهرة والإنجيل، وهم وُعِدُوا في واضح التنزيل المغفرة والرحمة والجزاء العظيم، ألا تسمع كيف يقول في ذلك الرحمن الرحيم:؟مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ

رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا؟[الفتح: 29].

فأي عزة أعز من عزة أولياء الرحمن وحزبه، وأعداء الشيطان وحزبه، الذين جعلهم الله حكام أرضه، وأطلق أيديهم في إنفاذ حكمه، وأوجب طاعتهم على جميع خلقه، فأمرهم بمجاهدة الكافرين وضمن لهم النصر على من خالفهم من الفاسقين، أولاد النبي، ونسل الوصي، ومعدن العلم والرحمة، والبر والفضل والحكمة، ومختلف الملائكة المقربين، ومهبط وحي ربّ العالمين، الذين من الرجس طهّروا، وبولادة الرسول كّرموا، وبذلك في التنزيل ذكروا، وذلك قول الرحمن الرحيم فيما نزل من النور الكريم: ؟إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا؟[الأحزاب: 33] ولكثير ما جاء من تفضيل الله عز وجل لآل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما نزل في واضح التنزيل، والقول مما يطول لو شرحنا به الكتاب، ويعظم ويجل القول والخطاب، والحمد لله على ما خصنا به من الفضل المبين، وجنبنا سبحانه عن الحظ الغبين.

(133/1)

باب معنى الإرادة من الله

إن سأل سائل: فقال أخبرونا عن إرادة الله ذي الجلال، أتقولون إنها قديمة أزلية كالعلم والقدرة أوّلية؟
قيل له: إن العلم والقدرة خلاف ما سألت عنه من الإرادة، لأن العلم والقدرة من صفات الذات، والإرادة حادثة بإحداث المحدثات، والإرادة، فمخلوقة محدثه كسائر المحدثين، والعلم والقدرة فأزليان غير مخلوقين، والدليل على ما قلنا به وفيه من ذلك والشاهد لنا على أنه في الله سبحانه كذلك أن العلم والقدرة لو كانا شيئين محدثين لكان يلحق بالله جل جلاله العجز والجهل في الحالين، لأنه إن جاز أن يكون فينة غير عالم فقد كان بلا شك جاهلاً، وإن جاز أن يكون فينةً من الدهر غير قادر فقد كان بلا مرية في العجز داخلاً، فقد ثبت بحمدالله أنه لم يزل قادراً عالماً، ومن الآفات والصفات الزائلات الناقصات سالماً، وإذا قد صح أنه لم يزل عالماً قادراً في كل الحالات والأوقات، فقد صح أن العلم والقدرة من صفات الذات.

(134/1)

وأما الإرادة منه جل جلاله وتقدس عن أن يحويه قول أو يناله، فمحدثة مكونة موجودة وعن صفات ذاته زائغة باينة، تحدث بإحداث فعله، إذ ليس هي غير خلقه وصنعه؛ لأن إرادته للشيء خلقه له، وخلقه له فهو إيجاده إياه، وإيجاده إياه فهو إرادته له، فإذا خلق فقد أراد وشاء، وإذا أراد فقد خلق وبرا، لا فرق بين إرادته في خلق الأجسام ومراده؛ لأن إرادته لإيجاد الاجسام هو خلقه لما فطر من الصور التوام، لا تتقدم له إرادة فعلاً، ولا يتقدم له أبداً فعل إرادة، ولا تفترق إرادته وصنعه، بل صنعه مراده، ومراده إيجاده. وإنما يتقدم الإرادة فعل المفعول إذا كان الفعل مخالفاً للمفعول المجعول، وكان الفعل متوسطاً بين الفاعل ومفعوله، فحينئذ تتقدم إرادة المريد أفاعيله ومعموله، وذلك فلا يكون إلا في المخلوقين، ولن يوجد ذلك أبداً في رب العالمين؛ لأن كل مفعول للمربوبين فإنما قام وتجسم واستوى من بعد العدم وتم بالفعل المتقدم له من الحركات، بالرفع والوضع في الحالات، من ذلك ما يعلم ويرى من عمل الصانع البناء وإحكامه لما يحكم من البناء، فالفاعل للبناء قبل الفعل، والفعل قبل المفعول؛ لأن فعل البناء هو الحركات، والتحيل بالرفع والتسوية، والتقدير والوضع لحجر فوق حجر، ومدر بعد مدر حتى يتم له بفعله مفعوله، ويلتأم له ببعض حركاته معموله، ولولا ما كان منه من فعله لما تم له ما تم من مفعوله، فبفعل الفاعل كان المفعول، وبتحيله قام وتمَّ له المجعول.
فالفاعل من الآدميين جسم وأدوات، وفعله فعرض بِّيِّن بالحركات، ومفعوله فبعدَ عرض الفعلِ يوجد في الحالات، فكل جدار وجد أو دارٍ أو عقدة معقودة، أو ثوب مخيط بخيوط أو رسم بكتاب مكتوب، أو غير ذلك من الأمور والأسباب، التي هي من أفعال العباد، فلم تكن إلا من بعد الحركات، اللواتي هن أعراض غير متلاحقات، ولذلك جاز فيها تقدم الإرادات والنيات. وكلما أوجده الرحمن فهو فعل لذي الجلال والسلطان، ولا يقال إنه له مفعول

(135/1)

إلا على مجاز الكلام المعقول لما بينا وشرحنا في أول الكلام، وقلنا من أن المفعول لا يكون إلا وقد تقدم قبله الفعل من الفاعل، فلا يكون فعل بين فاعل ومفعول إلا وهو حركات بأدوات وتحيل وتفكر وآلات، فتعالى عن ذلك ذو المن والجلال والسلطان، وتقدس عن التحيل والحركات الواحد الرحمن، الذي كل خلقه له فعل، الذي إذا أراد أن يكون شيئاً كان بلا كلفة ولا عون أعوان، أمره نافذ كائن، ومراده لمراد غيره فمفارق مباين.
ومن الحجة على من زعم أن إرادة الله متقدمة لفعله أن يقال له: ألست تزعم أن إرادته متقدمة لأفعاله؟ فإذا قال: كذلك أقول. قيل له: ألست تعلم في صحيح العقول أن ذلك إن كان كذلك أنهما شيئان اثنان، الإرادة شيء، والفعل شيء؟ فلا يجد بداً من أن يقول أجل. فيقال له: فأي الإثنين تقدم صاحبه فكان وحدث قبله؟ فإن قال: الإرادة حدثت قبل الفعل. فسواء كان بينهما قليل أم كثير، فقد

أوجب وأدخل بذلك على ربه النية والضمير، والانطواء على ما لايجوز في اللطيف الخبير، ومتى قال بذلك قايل فقد شبه ربه بالمخلوق الزائل ذي الجوانح المضمرات، والأدوات المتصرفات، والأراء المتناقلات، وهذا فإبطال التوحيد، ونفس الكذب على الواحد الحميد، ونقض ما نزل في الكتاب المجيد. فإن هو قال: بل الفعل سبق الإرادة. وقد علمنا أن الفعل هو المخلوق فقد قال: إن الخالق للمخلوقين غير الله رب العالمين؛ لأن الله سبحانه وجل عن كل شأن شأنه لا يخلق إلا ما يشاء، ولا يشاء إلا ما يريد من الأشياء، وكذلك قال الرحمن فيما نزل من الفرقان:؟وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ؟[القصص: 68] وقال سبحانه:؟إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ؟[الحج: 14]، وقال سبحانه:؟وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء؟[الحج: 18]، ففي كل ذلك يخبر أنه لن يفعل إلا ما يشاء ولن يشاء إلا ما يريد من الأشياء، وكذلك الله

(136/1)

تبارك وتعالى. أوَلا ترى أن الفاعل لِما لا يريد فجاهل مذموم من العبيد، فكيف يقال بذلك في الله الواحد الحميد؟!

ومن الحجة على من قال: إن الإرادة من الله سابقة للمراد، وإنها في الله ذي العزة والإياد كالعلم والقدرة، وإنه لم يزل مريداً كما لم يزل قادراً عالماً أن يقال له: هل كان الله في الأبد والقدم خالقاً لما أراد أن يخلق، إذ لم يزل في قولك مريداً للخلق كما أنه لم يزل عالماً بما يكون، قادراً على فعل ما يشاء إذا أراد فعله وشاءه؟ فإن قال: نعم؛ فقد أثبت الخلق مع الخالق في القدم، فتعالى عن ذلك ذو الجلال والكرم، إذ قد جعل معناه ومعنى غيره من العلم والقدرة سواء، ومتى كانا سواء فلم يفترقا في سبب ولا معنى، فكل ما نزل بأحد هذه الثلاثة الأشياء من العلم، والقدرة، والإرادة فهو نازل بصاحبيه، وحال بمشاكليه، ومحيط بمناظريه، ولا يخلو من جعل المشيئة والإرادة كالعلم والقدرة من أن يحمل العلم والقدرة على معنى المشية والإراده، أو أن يحمل معنى المشية والإرادة على معنى العلم والقدرة، فإن حمل العلم والقدرة على معنى الإرادة والمشية والخلق جعلهما مخلوقين محدثين بأحق الحق، وإن حمل معنى الإرادة والمشية والخلق على معنى العلم والقدرة جعل الإرادة والمشية والخلق شيئاً قديماً أزلياً، وفي أزلية الإرادة أزلية الخلق، وفي ذلك إبطال التوحيد، والشرك بالله الواحد الحميد. فقد بطل قول من قال بأحد هذين المعنيين لما بان لأهلهما فيهما من الفساد في كلتا الحالتين، وثبت ما قلنا به من أنه لا فرق بين إرادة الله ومراده، وأن الإرادة منه هي المراد وأن مراده هو الموجود المدبَّر الكائن المخلوق المجعول، إذا أراده فقد كونه، وإذا كونه فقد أراده، لاتسبق له حالة حالة في الفعل منه سبحانه والإرادة، فسبحان علام الغيوب، ومقلِّب القلوب، ونسأل الله الواحد الحميد أن ينفعنا بما علمنا، وأن يمن علينا بإيزاع الشكر فيما امتن به علينا.

(137/1)

ومما يحتج به على أهل هذا المقال، المتحيرين في الله الضُّلال، أن يقال لهم: خبرونا عن إرادة الله سبحانه لخلق السماوات والأرض؟ هل هي إرادته لإبادتهما وتبديلهما في يوم الدين؟ فإن قالوا نعم قيل لهم: فهلا وقعت بهما الإبادة والتبديل مع وجود خلقهما سواء سواء؟ فقد يلزمكم في أصل قولكم وقياسكم أن تقولوا إن الأرض والسماء قد بادتا وبدلتا ساعة ما خلقتا وأوجدتا؛ إذ الله سبحانه قادر على ما يشاء، وإذ مراده نافذ ماض أبداً؛ لأنكم تزعمون أن إرادة الله سبحانه لخلقهما وإيجادهما هي إرادته لإبادتهما وتبديلهما، ومتى كانت الإرادة في ذلك واحدة سواء؛ فلا شك أن المراد يقع مجتمعاً معاً، لا يسبق بعضه بعضاً؛ إذ لم يتقدم من الإرادة شيء شيئاً، وإن قالوا ليست الإرادة من الله لخلقهما بإرادته لتبديلهما وإبادتهما؛ لأن إرادته نافذة؛ وقدرته ماضية، وقد أراد أن يخلقهما فخلقهما، وإذا أراد أن يبدلهما بدلهما، فقد أقروا أن لله إرادة تحدث في كل الحالات، ومتى كانت كذلك لم يكن أبداً أزليه، وزال عنها اسم القدم والأولية، وإذا ثبت أنها حادثة، ثبت أنها محدثة، وإذا ثبت أنها محدثة، ثبت أنها مجعولة مقدرة، وإذا ثبت أنها مجعولة مقدرة، ثبت أن المجعول المقدر هو المخلوق المدبر، وأن الإرادة ليست غير الموجود المفطور المصور، وإذا قد ثبت ذلك فقد ذهب ما يقولون به من الفرق بين إرادة الله وفعله، وثبت أن فعله إرادته، وأن إرادته سبحانه فعله، إذا أوجد شيئاً فقد أراده، وإذا أراده فقد أوجده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطاهرين.

(138/1)

ومن الحجة على من فرق بين إرادة الله وفعله، فزعم أن إرادة الله سبحانه متقدمة لإيجاده وصنعه قول الله سبحانه:؟إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ؟[يس: 82]، فمعنى قوله سبحانه لمراده كن فهو إيجاده له، وخلقه إياه، لا أنه يكون منه إليه قول، ولا له؛ لأنه لو كان كما يظن الجاهلون أنه يأمره بالكون فيكون، لكان القول من القائل متوسطاً بين الفاعل والمفعول، والقول فهو فعل، ولو توسط الفعل من الرحمن، لكان مشابهاً لفعل الإنسان، بأبين ما يكون من البيان، فقد بطل بحمدالله أن يكون كذلك لما ذكرنا واحتججنا به أولا في ذلك.

ومن الحجة عليهم، ومما يبطل ما هو في أيديهم، أنه لو كان منه أمر له كما يقولون، لم يخل من أن يكون يأمره وهو عدم غير موجود، ومخاطبة العدم الزائل المفقود فأحول المحال، ومخاطبة العدم من الآدميين فأضل الضلال، فكيف يجوز أن ينسب ذلك إلى الواحد ذي الجلال! أو يكون أمره وهو

موجود كائن قائم غير مفقود فأمر الكائن القائم الموجود بأن يكون محال؛ لأنه قد استغنى بتجسمه وكينونته عن التكوين في حال من الحال، كما لا يجوز أن يؤمر القائم بالقيام، ولا النائم بالمنام، ولا الراكب في حال ركوبه بالركوب، ولا المهرول المدبر بالخبوب؛ لأنه إذا كان في حال كذلك مستغن عن أن يؤمر بشيء من ذلك، فقد سقط أن يكون أمر من الله للشيء في حال من الحال، فإذا سقط؛ سقط ما يتعلقون به وفيه من زور المقال، وثبت ما قلنا به من إيجاد الله له ذي الجلال.

فإن قال قائل: إن معنى قول الله سبحانه للشيء كن فيكون، هو أن يقول للشيء كن شيئاً آخر مثل الصلصال الحما، قال له كن صورة وبشراً، فكان كما أمره ربه حقاً، ومثل النطفة قال لها كوني علقة، فكانت علقة، ثم أمر العلقة، فكانت مضغة، ثم قال للمضغة كوني عظاماً، فكانت عظاماً ثم كساها لحماً وجسمها بقدرته جسماً، فهذه أشياء غير مفقودة، تؤمر فتنتقل أجساماً موجودة.

(139/1)

قيل له: إن الفروع لا يقاس عليها الأصول، وإنما ترد الفروع إلى ما هي منه من الأصول، وهذه الأشياء التي ذكرت، فإنما هي مخلوقات تنتقل من خلق إلى خلق في الحالات، وكذلك قال فيها وسمّاها بالخلق، ودعاها رب الأرباب، فيما نزل من محكم الكتاب، ألا تسمع كيف يذكر أنه خلقها؟ ولم يذكر في شيء من ذلك أنه أمرها، وذلك قوله: ؟وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ؟[المؤمنون: 12 - 14] ففي ذلك يذكر تبارك وتعالى أنه خالق مصور لعبده، منقل له في هذه الأشياء، ولم يذكر فيما احتججت به في هذه الآية له دون الخلق أمراً، والخلق من الله فلا اختلاف بيننا وبينكم فيه، وإنما الاختلاف بيننا وبينكم في الأمر الذي أزحتموه عن معنى الخلق، ولم تقيسوه عليه طمعاً أن تثبتوا قدم الإرادة على الفعل من الله الحميد، فتثبتوا عليه بذلك سبحانه التشبيه، وتدفعوا التوحيد، فتشاركوا النصارى في قولها، وتمازجوا بأموركم أمرها، ولو أنكم أنصفتم عقولكم، وتركتم المكابرة عنكم، ثم رددتم متشابه الأمور إلى محكمها، وما شذ من فرعها إلى أصلها ثم نظرتم إلى أمر النطفة مم هي ومم كانت حتى تنتهوا إلى ما منه ابتدئت وبانت، لوجدتم أصل ذلك إن شاء الله من الطين، وأصل الطين فمن الماء بأيقن اليقين، وكذلك فأصل خلق الشياطين فمن مارج من نار. فإذا رجعتم إلى الأصول الثلاثة المبتدعة المفطورة من الريح الجارية المسخرة، وما خلق سبحانه من الماء، وما فطر فوقه من عجيب الهوى، ثم خلق من هذه الثلاثة الأشياء جميع ما ذرأ وبرى، لكان حينئذ يصح لكم القياس، ولا يقع عليكم إن شاء الالتباس، ويبطل الأمر الذي تقولون

(140/1)

به وتذهبون إليه، إذ لا بد أن تقروا أن هذه الثلاثة الأشياء خلقت وابتدعت من غير ما أصل مبتدأ، وأن الله الأول الموجد لأصل كلما يوجد ويرى، فيسقط ما قلتم به في معنى القول من الله للشيء أنه أمر من الآمر للمأمور، ويثبت القول للموحدين، بأن القول من الله للشيء هو الإيجاد له والتكوين والتقدير، والإخراج من العدم إلى الوجود والتصوير، أو يثبتوا مع الله في الأزلية والقدم شيئاً، فتعالى عن ذلك العلي الأعلى، ومن قال من المخلوقين بذلك، وقع بحمد الله في غيابات المهالك، وخرج من معرفة الرحمن، وأكذب ما ذكر الله في القرآن من قوله: ؟اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ؟[الزمر: 62 –63] ولو كان شيئاً غير واحدٍ، إذا لما كان خالقاً لكل ما ذكر من الأشياء، وفي أقل ما قلنا به وتكلمنا، فرق بين إرادة الله وإرادتنا.

(141/1)

تفسير إرادة الله لأفعال العباد

فإن قال قائل من المتكمهين الضلال، المتعلقين بالشبهات والمحال: أليس قد أراد الله من الخلق أن يطيعوه، ويعبدوه ولا يعصوه؟

قيل له: كذلك الله تبارك وتعالى، وفي ذلك ما يقول العلي الأعلى:؟وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ؟[الذاريات: 56]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ؟[البقرة: 21] فلما أن أمرهم بطاعته علمنا أنه لم يخلقهم إلا لعبادته، وذلك فمراده منهم، إذ له أوجدهم.

فإن قال: فهل كان ما أراد ذو الجلال والسلطان؟ فإنكم إن قلتم إنه قد كان ما أراد الرحمن، أوجبتم أن يكون الخلق كلهم مطيعين، ونفيتم أن يكون فيهم أحد من العاصين، وإن قلتم إنه لم يكن ما أراد الواحد ذو الجلال، فقد أقررتم بتقديم إرادة الله على كل حال.

(142/1)

قلنا له: إن إرادة الله في فعله، هي خلاف إرادته في فعل غيره، وكلامنا فإنما هو في فعل الرحمن، لا فيمن خلق وذرأ من الإنسان، فإرادته فيما خلق، هو إيجاده له على ما تقدم في أول كلامنا من القول فيه، وإرادته في أفعال عباده فإنما هي إرادة نهي وأمر، لا إرادة حتم وجبر، أراد منهم الطاعة غير مكره لهم عليها، كما أراد أن لا يكون منهم المعصية غير حائل بينهم وبينها، بل بالطوع منهم أراد كونها، لا بالإكراه لهم والقسر عليها والإجبار، فأمرهم ونهاهم، وبصرهم وهداهم، ومكنهم من العملين، وهداهم في ذلك النجدين، ثم قال سبحانه:؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟[القصص: 84] ثم قال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله:؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا؟[الكهف: 29] فكانت إرادته في أفعالهم الأمر لهم بالمرضي من أعمالهم، فنفذت إرادته في الأمر لهم كما أراد، ولو أراد أن يجبرهم لَجَبرهم، ولوجبرهم على صنعهم وفعالهم لكان العامل لما يعملونه دونهم من أعمالهم، ولو كان العامل لما يعملونه دونهم لكان الآمر لنفسه دونهم بما فعلوه، ولكان هو المشرك بنفسه لا هم، ولكان العابد لأصنامهم دونهم، لو كان على ما يقولون، إذ هو الصانع لكل ما صنعوا،والممضي دونهم لكل ما أمضوا، ولكانوا هم من كل مذموم أبرياء، وفي حكم الحق مطيعين أتقياء، وعند الله للثواب مستاهلين سعداء، إذ هم فيما صرفهم ربهم متصرفون، وفي قضائه ومشيته ماضون، فتعالى الله الرحمن الرحيم، عمَّا يقول فيه حزب الشيطان الرجيم.

(143/1)

إرادة الله لإخباره

فإن قال قائل: قد فهمنا ما احتججتم به في الفرق بين إرادة الله في فعله وإرادة الله فيما سوى ذلك من فعل غيره، فما عندكم فيما قصه الله وذكره وأخبر به من أخبار الآخرة، وقيام الساعة، فهل أراد تبارك وتعالى أن تقوم القيامة، ويكون الثواب، ويقع بأهله العقاب؟ فقد نجده قد أخبرنا بذلك كله، فهل أراده كما أراد الإخبار به؟

فقولنا: إن شاء الله لمن سأل عن ذلك، إن الله تبارك وتعالى أراد أن يخبر بما أخبر به ويذكر ما ذكر، فكان ما أراد، وكانت إرادته في ذلك هي المراد، من الإخبار نفسه، فأمَّا أن يكون أراد أن تقوم القيامة ويقع الجزاء عند ما أخبر به من خبرهما فلم يرد ذلك، ولو كان مراده فيه كذلك، لكان أول الخلق قد واقع وعاين القيامة والجزاء، وكان قد انقطع النسل والنماء، وحل بالأولين دون الآخرين ما يتقى، ولكنه سبحانه أخبر عما سيكون من فعله، وهو سبحانه بغير شك يريد أن يقيمها في وقت ما شاء، والوقت فهو في علمه معلوم مسمى، فإذا أراد إقامتها قامت، وإذا شاء أن يجليها تجلت، ولم يشاء سبحانه أن يجليها، إلا في وقتها الذي إليه أجلها كما قال سبحانه: ؟يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ

مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً؟[الأعراف: 187] إلى آخر الآية، فهو سبحانه يريد أن يقيمها لوقتها، ولم يرد أن يقيمها في دون ما جعل من مدتها، وبين يريد وأراد في اللغة واللسان، فرق عند جميع أهل اللغة العربية والبيان، لأن معنى يريد، فهو سيفعل لا أنه قد فعل، ومعنى أراد، فهو أمضى وفعل لا سيفعل، وبين الفعل المستقبل والفعل الماضي فرق في جميع المعاني من القول والإعراب، وغير ذلك من غوامض الأسباب، يعرفه ويعلمه ويقف عليه ذووا الألباب، وليس من قيل له إنه يريد أن يفعل كذا وكذا في الحكم، كمن قيل له إنه قد

(144/1)

فعل ما به أقدم وعليه اجترى، والحكم عليه من الله ومن رسوله ومن الأئمة الهادين بالقطع والصلب، والقتل والضرب، والحبس والتنكيل، فلا يقع على من يريد عمل ما جعل فيه ذلك ولم يفعله، وإنما يقع ذلك ويجب على من دخل فيه واكتسبه وفعله، وفي أقل من ذلك نور وبرهان، وفرق بين أراد ويريد وفصل وتبيان، عند كل ذي علم وحجى، وبصيرة ويقين واهتدى.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على محمد النبي المصطفى، وعلى من طاب من عترته وزكى.

(145/1)

باب تفسير معنى الأعلى

الأعلى هو: العظيم المستعلي على الأشياء بقدرته، القاهر الذي لا يرام لعزته وعظمته، الواحد البائن عن مشابهة شيء من خلقه، وكذلك معنى: (تعالى علواً كبيراً) لا يتوهم الجاهلون أنه مستعل فوق شيء عالٍ، يحيط به ذلك الشيء ويحويه ويحدق به، تعالى عن ذلك وحاشاه، وكيف يكون كذلك، أو يجوز فيه القول بذلك، وهو بكل مكان كما قال سبحانه في واضح الفرقان:؟مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟[المجادلة: 7]، ولو كان كما يقول الضالون، ويصفه به المشبهون، لبطل ما قال في القرآن من أنه جل وعز بكل مكان.

(146/1)

باب تفسير معنى الكبير ومخرج ذلك في اللطيف الخبير

معنى الكبير فهو: البائن عن مشابهة المخلوقات، القديم الأزلي الذي لا تنقصه الساعات، الأوّل الذي لا تراه العيون ولاتعروه السنات، ولا تستتر منه غوامض أسرار القلوب المحجوبات، ولا تحيط به الأقطار ولا تشتبه عليه اللغات، الذي هو من تخوم الأرضين كهو من أعالي السماوات، وكذلك القول في معنى قوله (الجليل)، فتبارك من لا إله غيره ولا شيء يشبهه، المصور لكل صورة من خلقه، المقدر الذي لا يكون فعلٌ كفعله.

(147/1)

باب تفسير معنى: إن الله بكل مكان

إن سأل سائل مسترشد أو متعنت، فقال: ما معنى قولكم إن الله بكل مكان؟ تبارك ذو المن والإحسان.

قلنا له: معنى قولنا ذلك في ربنا، إنما نريد أنه هو الشاهد لنا غير الغايب عنَّا، لا يغيب عن الأشياء، ولا يغيب عنه شيء قرب أو نأى، وهو الله الواحد الجليل الأعلى، لأن من غاب عن الأشياء كان في عزلة منها، والعزلة فموجده للحد والتحديد، ومن غابت عنه المعلومات، كان من أمرها في أجهل الجهالات، وكانت عنه عازبة غايبة، والله سبحانه فلا تخفى عليه خافية، سراً كانت ولا علانية، فعلى ذلك يخرج قولنا إن الله بكل مكان، نريد أنه العالم الشاهد لكل شأن.

(148/1)

باب تفسير معنى: أين الله؟

إن سأل سائل: فقال أين الله؟ قيل له: مسئلتك تحتمل وجهين، وتتصرف في اللغة على معنيين، أحدهما: أن تكون تريد أين الله حال، وهذا فباطل فاسد من المقال، متعال عنه ذو القوة والعزة والجلال، لأن ذلك يوجب التحديد، ومتى وقع التحديد وقعَ التَّبعيض، ومتى وقع التَّبعيض وقع التشبيه، فإذا وقع التشبيه، زالت الربوبيَّة بلا شك عن ذلك الشيء المبعض المحدد المجزا؛ لأن الخالق على خلاف المخلوقين، ومن وصف بصفة المربوبين فقد أزيل عنه أن يكون جاعلاً، وصحَّ أنه من المخلوقين، وبطلت وبعدت منه الوحدانية، وزالت من صفاته بغير ما لبس الأزلية، والله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله، فهو الواحد الأزلي، والخالق المحدث الباري، الذي ليس له ضد ولا شبيه ولا مثل ولا عديل، وهو الله الواحد الفرد الصمد الجليل.

وإن كنت تريد بقولك أين الرحمن؟ تقول: أين هو مدبر فاعل لكل شأن؟ فهو كما ذكر عن نفسه بكل مكان مدبر فاعل، يفعل في كل يوم ما يريد، يميت ويحيي، ويخلق ويرزق، وهو الواحد الحميد، العالم لا يخفى عليه مختف، بل علمه به كعلمه بالظاهر المتجلي، فهو سبحانه كذلك، وهذا جوابنا، وقولنا لمن سأل عن ذلك، لا ما يذهب إليه المشبهون لربهم، المتكمهون في بحور ضلالهم، والعابدون لغير إلههم، إذ هم يعبدون الذي هم يذكرون، ويصفون وينعتون، ويحددون ويبعضون، والله الخالق الباري، فخلاف ما يصفون، فلذلك قلنا إنهم غيره يعبدون، فالجاهلون يعبدون صورة وجسماً، والله فهو المجسِّم المصوِّر لكل جسم، ومصوَّر المصوِّر فخلاف المصوِّر، لأن المصوِّر فاعل، والمصوَّر مفعول به، والفاعل فليس بالمفعول، لأن الفاعل قبل مفعوله، فقد بان أن المشبهين يعبدون غير رب العالمين، فقد كفروا بالخالق، وعبدوا المخلوق، فبعداً لأصحاب السعير، والحمد لله الواحد القدير.

(149/1)

باب تفسير معنى القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر

القدوس فهو: المستحق من خلقه للتقديس، والتقديس فهو التنزيه والتعظيم، وكذلك ربنا الواحد الكريم.

والسَّلام فهو: السالم من الآفات التي تحل بغيره، النازلات بالخلائق الحالة بهم، الهاجمة عليهم.

والمؤمن فهو: المُؤَمِّن لأوليائه من أليم عذابه، الصارف عنهم ما يوقع بأعدائه من عقابه.

والمهيمن فهو: المتقدس الحاكم، الشاهد على خلقه بحكمه العادل.

والعزيز فهو: الغالب الجليل، الممتنع المتعالي عن التشبيه والتمثيل، المتعزز فلا يرام، العظيم الجليل فلا يضام، المعز لأوليائه، المذل لأعدائه.

(150/1)

والجبار فهو: المالك القاهر، الذي ما جبر من الأشياء كلها انجبر، فكان على ما جبره وصوره من الأجسام، فتبارك الله ذو الجلال والإنعام، الذي جبَل الأشياء وجبرها على ما شاء من تصوير خلقها، وتركيب أجسامها وأبعاضها، وتقدير ألوانها وأماكنها، وتغيير طعم مأكولها، واختلافها، فجبر السماوات على ما أراد من الارتفاع، وجبر وجبل الأرضين على ما أراد من الاندحاء والاتضاع، وجبر ما بينهما على ما يشاء من التصوير، والخلق والتقدير، والتركيب، وجبل وجبر العباد على ما شاء من تصويرهم، وخلق ما خلق من تقديرهم، فجعلهم من ضعف، ثم جعل من بعد الضعف قوة،

ثم جعل من بعد القوة ضعفاً وشيبة، كما قال الله سبحانه: ؟اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ؟[الروم: 54]، وكذلك جبلهم على ما شاء من خلق أجسامهم، فجعل منهم الطويل والقصير، وجعل منهم النبيل في جسمه والحقير، وكلهم يريد الأفضل من الأمور، فكانوا كما شاء أن يجعلهم، وجعل فعله فيهم وفي غيرهم آية لهم كما قال سبحانه: ؟وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ؟[الروم: 22]، فكان تركيب خلقهم، كما أراد من تصويرهم، لا اختلاف في ذلك ولا تفاوت، كما قال سبحانه: ؟مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ ؟[الملك: 3]، فالحمد لله الذي جبل العباد وجبرهم على ما يشاء من تركيب خلقهم، محبوبهم من ذلك وغير محبوبهم، ولم يجبرهم على شيء من أفعالهم صغيرها ولا كبيرها، دقيقها ولا جليلها، بل أمرهم ونهاهم، وبصرهم غيّهم وهداهم، ثم بعث

(151/1)

إليهم النبيين فأمروهم بطاعة رب العالمين، وحذروهم أن يكونوا له من العاصين، وخلق للمطيعين ثواباً وللعاصين نكالاً وعقاباً، ثم لم يحل بين أحد وبين طاعته، ولم يجبر أحداً على معصيته، بل أمر عباده تخييراً، ونهاهم سبحانه تحذيراً، ثم قال ذو المن والعزة والجلال، من بعد إكمال الحجة عليهم في كل حال: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا؟[الكهف: 29]، وقال تعالى:؟فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ؟[الزلزلة: 7-8]، فتبارك المتقدس عن خلق أفعالهم، المتعالي عن جبرهم على شيء من أعمالهم، العدل في كل أفعاله، الصادق في كل مقاله، البري من شبه المجعولات، المتعالي عن درك الغفلة والسنات.

والمتكبر فهو: العظيم الخبير، الذي لا يشبهه في القدرة والعظمة كبير.

(152/1)

باب تفسير قول الله سبحانه ؟وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ؟، ومعنى مخرج النفس في الله في اللغة

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه: إن سأل عن النفس سائل فقال: ما معناها عندكم في الله تبارك وتعالى، وعلى ما يخرج فيها تفسيركم؟ فقد نجد الله تعالى يقول لنبيئه موسى صلى الله عليه:

؟وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي؟[طه: 41]، ويقول: ؟وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ؟[آل عمران: 28].

قلنا له: أيها القائل المتحير في أمره السائل، إن الله سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه، لم يرد النفس التي تتوهم، وإياها تقصد حين تتكلم، من الأنفس المتنفسة بالروح، المحتاجة إلى الراحة والروح، المستكنة في الأجواف، الجايلة في كل الأعطاف، وكيف يكون ذلك؟! وكل روح أونفس فمن خلقه كانا، بغير ما شك ولا لبس، ألا تسمع كيف يقول عز وجل؟! ؟وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً؟[الإسراء: 85]، يريد سبحانه من خلق خالقي، وإحداث فاعلي ومحدثي، ولو كان على ما يتوهمه المشبهون، ويقول فيه المبطلون، من أنها نفس في شيء، إذا لقيل إنهما اثنان، إذ النفس والشيء شيئان، ولو كانت نفساً مستجنة في شيء، لكانت النفس خلافاً لذلك الشيء، وللزم ذلك الشيء العدد والتحديد، والتحرك والتحرف، والانحدار والتصعيد، فتبارك من ليس كذلك، ولا على شيء من ذلك، بل هو الله الواحد الأحد، المتقدس الصمد الذي ليس له شبه ولا مثيل، ولا ضد ولا عديل.

(153/1)

فأما قوله سبحانه: ؟وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي؟[طه: 41]، فإنما أراد بذلك اصطنعتك لي، وقربتك نجباً مني، وكذلك قوله: ؟وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ؟[آل عمران: 28] يريد يحذركم عقابه لتخافوه، وفي كل أموركم تتقوه، وفي سرايركم تراقبوه، والقرآن فإنما نزل على العرب بلغتهم، وخاطبهم الله فيه بكلامهم، والنفس تدخلها العرب في كلامها صلة لجميع ما تأتي به من مقالها، وقد تزيد غير ذلك في مخاطبتها، وما تسطره من أخبارها، مثل (ما)، و(لا)، وغير ذلك، مما ليس له عندها معنى، غير أنها تحسن به كلامها، وتصل به قيلها وقالها، من ذلك قول الرجل لصاحبه: (أتيتك بنفسي)، و(أتيتني بنفسك)، وإنما يريد: أتيتني أنت دون غيرك، وتقول العرب: (ما منعك ألا تأتيني)، تريد: ما منعك أن تأتيني، فأدخلت (لا) صلة لكلامها، وأثبتتها كذلك في كتابها، وفي ذلك ما يقول الرحمن الرحيم، فيما نزل على نبيه من الفرقان العظيم، من قول موسى عليه السلام ؟يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟[طه: 92]، فإنما أراد صلى الله عليه: أن تتبعني، فأدخل (لا) صلة في الكلام، ومثل هذا كثير، فيما نزَّل ذو الجلال والإكرام، من ذلك قوله سبحانه: ؟فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ؟[آل عمران: 159]، وقوله:؟فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ؟[المائدة: 13]، يريد سبحانه وعُظِّم عن كل شأن شأنه: فبرحمة من الله لنت لهم، وأراد: فبنقضهم ميثاقهم، فأتى فيهما بـ(ما) صله بغير سبب ولا معنى، وكذلك وفي مثل ذلك ما يقول الشاعر:

وسالمتم والخيل تدمى شكيمها

بيوم جدود ما فضحتم أباكم

فقال: ما فضحتم أباكم؛ وإنما أراد: فضحتم أباكم، فأتى بـ(ما) صلة لغير معنى.

(154/1)

وقال الله ذو الجبروت والإنعام، يحكي عن نبيه عيسى عليه السلام في قوله: ؟تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ؟[المائدة: 116]، يعني صلى الله عليه تعلم غيب أمري وعلانيتي وسري، ولا أعلم ما غاب من فعلك ولا أطلع إلا على ما اطلعتني عليه من وحيك، فهذا معنى ما عنه سألت، لا ما إليه من فاحش القول ذهبت في الله رب الأرباب، ومسبب ما يشاء من الأسباب. بل كيف يزعم المشبهون، ويقول على الله المبطلون، إن الله جسم وصورة، وأن فيما ذكروا من الصورة له نفساً تجول فيه من مكان إلى مكان!! وقد يسمعون ويرون ما يقول الرحمن الرحيم، فيما نزل على نبيئه من الوحي الكريم، حين يقول جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ؟كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ؟[الأنبياء: 35] فماذا يقولون لو كانت نفساً كما يزعمون تعالى عن ذلك الرحمن، وتقدس ذو العرش والبرهان، أتموت وتفوت، أم لا تموت ولا تفوت؛ فإن قالوا تموت كفروا، ومن الإسلام خرجوا، وعند أنفسهم فضلاً عن غيرهم من أضدادهم ومناظريهم افتضحوا، وإن قالوا: لا تموت ولاتفوت، قيل لهم: من أين قلتم ذلك، وكان عندكم كذلك، وقد تسمعون ما حتم به الرحمن، على كل نفس في القرآن، ولم يستثن في ذلك نفساً له ولا لغيره، كما استثنى في غير ذلك من قوله: ؟كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ؟[القصص: 88]، وقوله: ؟كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ؟[الرحمن: 26] واستثنى عند هلاك الأشياء، أنه الباقي الوارث لكل الأحياء، واستثنى عند الزوال والفناء وجهه ذو الجلال والبقاء – والوجه من الرحمن، فليس غيره تعالى ذو العزة والسلطان، ووجهه في اللغة والبيان فهو ذاته بأبين البيان، فذاته وجهه، ووجهه سبحانه ذاته، ليس بذي تحديد ولا أعضاء، وهو الله الواحد العلي الأعلى – ولم يستثن عند هلاك الأنفس وموتها نفساً لخالقها ومدبرها

(155/1)

ومشيئها؛ أفأنتم في قولكم أعلم بالله منه بذاته، إذ قد نسبتموه إلى غير ما نسب إليه نفسه من صفاته؟! ولو كان كما تقولون، وإليه في قولكم تذهبون، إذا لاستثنى نفسه من الأنفس التي تموت وتفنى، كما استثنى بقاه من الأشياء التي تزول وتبلى، تعال الله عن ذلك الرحمن الرحيم، وتقدس

الواحد الكريم. فمن أين قلتم إنها له نفس في صورة تبقى، دون الأنفس التي حتم عليها بالفناء؟ أوجدونا بذلك حجة وتبياناً واشرعوا لنا فيه قولاً وبرهاناً، في الكتاب والتنزيل، والسنة والتأويل، فلا تجدون ولله الحمد حجة ولا قولاً، ولا تستطيعون إلى إثبات باطل سبيلاً، وكيف يكون ذلك، أو تقدرون على شيء من ذلك، والله ذو الطول فيما نزل من الفرقان يقول: ؟بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ؟[الأنبياء: 18] فإن انصفوا كانوا من قولهم خارجين، وإلى قول المحقين راجعين، وإن كابروا وجحدوا وتمردوا وعتوا، كانوا عند جميع الخلق مفتضحين، وبضد الحق متعلقين، والحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين.

(156/1)

باب تفسير قول الله سبحانه:؟وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ؟الرحمن: 26 والرد على من قال أن لله وجهاً وأنه صورة

يقال لأهل الجهالة والضلال، فيما يقولون به في الله ذي الجلال، ويصفونه به من الكذب والمحال، وينسبون إليه من فاسد المقال، ماذا تقولون في قول الله ربكم وما تعتقدون – إذ أنتم في قولكم تزعمون أن لربكم وجهاً كالوجوه التي تعقلون، وأنه ذو أبعاض فيما تصفون – (إذ يقول): ؟كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟[القصص: 88].

أفتقولون: إنما سوى وجهه من سائر أعضائه التي تذكرون يبقى معه أم يفنى دونه؟

فإن قالوا: تبقى معه.

قيل: وكيف يكون ذلك كذلك؟ ولم يذكر البقاء لشيءً من ذلك، فلقد قلتم بخلاف قول العلي الأعلى، إذ لم يحكم لغير الوجه بالبقاء، وأنتم تقولون إنه يبقى مع الوجه غيره من الأعضاء، فلقد بقي مع الوجه إذا شيء وأشياء!!

وإن قالوا: لا يبقى مع الوجه غيره من الأعضاء.

(157/1)

قيل لهم: فقد دخل على الله سبحانه في قولكم الزوال والفناء، والامحاق والذهاب، والهلاك والبلاء، إذ بعضه في قولكم يموت، ويزول ويتغير ويفوت، فلقد أدخلتم على خالقكم الصفات الناقصات الزائلات، وأزحتم عنه ما وصف به نفسه من البقاء في كل الحالات، فلا تجدون بداً من أحد هذين المعنيين المحالين الباطلين في الله، المخالفين، اللذين تكونون بانتحال أحدهما بالله كافرين، وفي دينه

فاجرين، ولجميع أهل الإسلام مخالفين، ومن الإيمان والحق خارجين، أو ترجعوا إلى قول المحقين، وتتابعوا في مقالتهم الموحدين، فتقولوا كما يقولون: إن معنى الوجه في الله سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه هو الله، وإنه ليس بذي أعضاء، ولا أبعاض ولا أجزاء، وذلك فمعروف في العربية، يعرفه كل من فارق لسان الأعجمية، من ذلك ما تقول العرب: (هذا وجه بني فلان)، تريد أنه المنظور إليه منهم في كل شأن، وأنه رجلهم وسيدهم، والقائم في كل أمر دونهم، وتقول العرب: (هذا وجه المتاع)، تريد بذلك أنه أفضل ما يبتاع، وتقول: (هذا وجه الرأي)، أي محضه وصدقه، وصوابه في كل أمر وحقه، لا أن له وجهاً كما يعرف من الوجوه المخلوقة في البشر، المجعولة المقدرة المركبة المصورة، وفي ذلك وما كان كذلك ما يقول الشاعر:

وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه .... وينجو بإذن الله من حيث يحذر

فقال: من وجه أمنه؛ وليس للأمن وجه ولا صورة، وإنما أراد أنه يعطب من الوجوه المأمونة عنده المحمودة.

وقال آخر:

فأسلمت وجهي لمن أسلمت .... له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

وأسلمت وجهي لمن أسلمت .... له المزن تحمل عذباً زلالاً

وقال آخر:

أضحت وجوههم شتى وكلهم .... يرى لوجهته فضلاً على الملل

فقال: أسلمت وجهي، وإنما أراد: أسلمت ديني، فاستسلمت وقصدت خالقي بكل عملي، لا أنه أسلم وجهه دون قلبه، ولا قلبه دون عمله، ولا عمله دون نفسه وقولِه.

(158/1)

ومن الحجة فيما قلنا به من البيان من أن وجهه هو لا بعضه، في قيم اللغة واللسان ما يقول الشاعر:

إني بوجه الله من شر البشر .... أعوذ من لم يعذِ الله دمر

وقال آخر:

إذا معقل راح البقيع وهجرَا .... أعوذ بوجه الله من شر معقل

ومما يحتج به أهل اللغة، وبما قالت في ذلك، ما يقول العلي الأعلى، مما بين فيه أن وجهه هو لا بعضه ما يقول: ؟وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ؟[الروم: 39]، فقال: تريدون وجه الله، وإنما أراد سبحانه: تريدون الله.

(159/1)

ومن ذلك ما حكى رب العالمين عن خير خلقه أجمعين محمد وأهل بيته الطيبين فيما كان من إطعامهم لمن ذكر الله من الأسير، واليتيم، والمسكين، حين يقول: ؟إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا؟[الإنسان: 9]، فقال سبحانه: نطعمكم لوجه الله ذي العزة والسلطان، وإنما أرادوا بذلك الله الواحد العزيز الرحمن. وقال سبحانه فيما نزل من الفرقان: ؟وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟[البقرة:148]، فقال سبحانه: ؟وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ؟، أي: لكلٍ مؤتَم وقبلة، ولم يرد بذلك من القول والخبر، أنه وجه مصور في صورة من الصور. وقال: ؟بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ؟[البقرة: 112] الآية، فقال: ؟مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ؟، أراد بذلك سبحانه من سلم نفسه لربه، واستسلم له في جميع أموره، وأخلص له سبحانه دينه. وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ؟[الروم: 43]، فأمره بإقامة وجهه للدين والإخلاص في ذلك لرب العالمين، ولم يرد الوجه دون القلب وسائر الأبعاض والأعضاء، وإنما أراد بذلك العلى الأعلى: أقم نفسك لخالقك وربك؛ وتأويل: ؟أَقِمْ وَجْهَكَ؟، فهو: قم بالدين بكليتك لمصورك وجاعلك. وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؟[آل عمران: 72.] فلم يرد سبحانه فيما ذكر عنهم أن للنهار وجهاً، كما يعقل من الوجوه ذوات التصاوير، التي أمر بغسلها عند الوضوء، فتقدس عن ذلك العلي الكبير. وقال عز وجل: ؟ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا؟، يريد على حقيقتها وصدقها

(160/1)

لا أن لها وجهاً عند جميع الخلق، غير ما قلنا به من الحقيقة والصدق.

ومن الحجة في ذلك والبيان، ما يقول الله ذو الجلال والسلطان: ؟فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ؟[البقرة: 115] ولو كان كما يصف المشبهون، ويقول به في الله الجاهلون، إنه وجهٌ كما يعرف من وجوه المخلوقين، تعالى وتقدس عن ذلك رب العالمين، إذا لما كان في كل النواحي والأقطار، فتعالى عن ذلك العلي الواحد الجبّار، إذ المتوجه يتوجه شرقاً وغرباً، ويمناً وشاماً، فلا يكون أبداً وجه واحد وجوهاً، كما لا تكون الوجوه الكثيرة وجهاً، وإنما أراد بقوله: ؟فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ؟، أي الموجود بكل جهة الله الذي هو سبحانه بالمرصاد لا يغيب عنه شيء من ضمائر أسرار العباد، وهو المحيط بالغيوب، ذو المن والأياد.

(161/1)

باب تفسير قول القائل (واحد) ومخارجه في اللسان وما ينفى من ذلك عن الرحمن عز وجل

إن سأل سائل ذو ارتياب، عن الله رب الأرباب، فقال المشبه الجاحد: ما معنى قولكم إن الله واحد؟ قلنا: إن الواحد يخرج على معان كثيرة، غير معنى ولا معنيين، فمنها الواحد في الجماعة والإثنين، ومنها النظير من نظيره، والشبه في الرؤية من شبيهه، ومنها الجزء من الأجزاء، والعضو الواحد من الأعضاء المتباينة والمؤتلفة، والمجتمعة والمختلفة، التي بالتئامها يكمل الواحد المصور، وباختلافها ينقص المجعول المقدر، مثل أبعاض الإنسان المختلفة المجتمعة في كل شأن، التي بكمالها يكمل تصويره ويتم، وبنقصانها يزول عنه اسم التمام ويعدم، فهذه أعضاء ذات أعداد، بهن يكمل الواحد ذو الأنداد.

(162/1)

ومن ذلك فالشيء المنقلب من الحالة إلى الحالة، مثل الإنسان وخَلْق الله له من السلالة التي خلقها وقدرها من طين، وجعله إياه نطفة في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، ثم خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر؛ فتم بقدرته في الحالات جسماً واحداً، كامل الأدوات وذلك قوله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ؟[المؤمنون: 12-14]. و(الخلق الآخر) فقد يحتمل أن يكون ما جعل فيه من بعد أن كساه لحماً من العروق والعصب، والمفاصل والقصب، وما فطر من عجيب خلق الرأس، الذي جعله سواء في جميع الناس، فجعله سبحانه قواماً للبدن كله، وأظهر فيه أعاجيب صنعه وفعله، فخلقه قطعاً، وجعل فيه طرقاً، لما فيه من الأدوات، فكلهن فيه سالكات جاريات متشعبات، ولخالقهن بالقدرة شاهدات، وبلطيف تدبيره فيهن ناطقات، ثم ركب فيه العينين وحجر فيه المحجرين، وجعل في المحجرين الغارين، وصور في الغارين المقلتين، وخلق في المقلتين الناظرين وجعل المحيط بإنسانهما - لتكامل التحقيق من عيانهما - أغشية من مدلهمات الجلابيب، ومتكاثفات اسوداد الغرابيب، صافيتي الأنطاق، ناصعتي الأطباق، جعلهما جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله شحمتين، اختص أوساطهما بالسواد، وجعله آلة للنظر في القرب والإبعاد، ولغير ذلك من الانحدار والاصعاد، ثم جعلهما حصينتي

الاطباق، حديدتي الآماق للإدارة والإطراق، وتقلب المقلة في الحملاق، وغشاهما بأوراق الأجفان، بالرأفة منه سبحانه والإحسان، والعائدة بالفضل على الإنسان، ليلتئم عند الهجوع

(163/1)

مطابقهما، وتطمئن لذلك علايقهما، وتريح من الحركة مدامعهما، ليقوى نظرهما، ويثقب بصرهما، ولو كان مكان سواد إطباقهما ناصعاً ببياض نطاقهما، لقصرتا عن بلوغ مناظرهما، ولعجزتا عن تحديد أبصارهما، ولكثر إغماضهما، ولقل إيماضهما. ثم حجب عنهما سبحانه بأجفانهما الأذى، وأماط عنهما بأشعارهما القذا، فلما أحكمهما بالتقدير، وأتقنهما بالتدبير، غشاهما بالحاجبين، وأظل بالحاجبين ما استجن من العينين؛ لعلمه سبحانه بضرورة الناظرين إلى ما ركب من الحاجبين. ثم جعل فيهما من بعد إتقان تدبيرهما شعراً مسوداً ظاهراً عليهما، ليزيد سواده في قوة نظرهما عند استقبالهما لبعد اعتمادهما، ولو لم يكونا بزينة الشعر مخصوصتين، وكانتا مما زينتا به محظوظتين، لنقص من العينين نظرهما، ولتضوع في أرجائهما نورهما، ولغشي عن مقر التحقيق بصرهما.
ثم مثل بينهما خالقهما أنفاً مستروحاً لأنفاسه، موقوفا لرجعه واحتباسه، فأقام رسم خده، وأحسن التصوير في قده، وجعله هواء معتدلاً سواء، ولو لا ما دبر فيه، وركبه من الإحكام عليه، لم يؤد بلطيف اعتباره، ودقيق اختياره المحسوس إلى قراره، ولعجز عن بلوغ مدى الاسترواح، ومستقر غاية الأرواح، فجعل سبحانه من أصليته ناشراً، وجعل في سوائه حاجزاً، لتوقيف رجع الأنفاس، بين العجلة والاحتباس، قسمه بحكمته، لتكامل لطيف نعمته.
ثم شق تحت وترَ أرنبته، مسلك ما قدر من أغذيته، وخلق فمه مؤديا عن منطقه ولفظه، بين طبقتين خلقهما لحفظه، فجعله لحماً، وأجرى فيه عروقاً ودماً، ولو جعله عصباً قاسياً، أو فطره عظماً جاسياً، لكان ذلك من الترجمة مانعاً، وعن الجولان بالحركات قاطعاً، فسبحان من جعله معبراً عن ضمائر الصدور، ومترجماً لكل ما تميزه العقول من الأمور، وركب فيه استطاعة لفظه، وخصه بالوافر من حظه، وأجرى فيه عذوبة ريقه، لتمييزه بين مختلف ذوقه.

(164/1)

ثم علق على أقاصيه عقد لهاته؛ لتعرف بها لذيذ شهواته، نعمة من الخالق على خلقه، ليلتذوا بالطيبات من رزقه، ولو كان موضعها منها عاطلاً، لم يكن الالتلذاذ إلى ملتذه واصلاً، ولرجعت مختلفات أنفاسه، إلى المكنون من أم رأسه.

ثم فتق سبحانه وعظم عن كل شأن شأنه بعد ذلك في مرتقها سمعاً، جمع به محكم الآلات جمعاً، فأدى ذلك إلى العقول عظمة خالقها، وشملت الجوارح به نعمة جاعلها، وألبس أرجاء السمع أذناً، لاستقرار جولان الوحي في محاله، وازاحة الشك النازل به وإبطاله، ثم عطف سبحانه أطراف غرضوفهما، على البواطن من حروفهما؛ للحوق جولان الأصوات، ولولا ذلك لعجزت عن درك القالات، مع ما ركب من غير ذلك في ظاهره وباطنه من المركبات، وجعل فيه سبحانه كلما يحتاج إليه الجسم من الآلات والأدوات، ثم علق في صدره قلباً، وركب فيه لباً، ثم جعله وعاء للعقل الكامل، وحصناً للروح الجائل، حفظه من مزدحمات الأغذية بانحطاطه، ورفعه عن مقرها من الجوف بمتعلق نياطه، فقر بتدبير الخالق في أحصن حصن وأبعده مما ركب، وجعل في البطن وفوقه من الصدر هواء، وتحته أدوات ومعاً، فهو مقر لثابت الأنفاس، متملك لخدمة جميع الحواس، إن شاء شيئاً شِئنه، وإن أباه بلا شك أبينه، به تنزل مدلهمات الغموم، وإليه مأوى نوازل الهموم، وعند انشراحه للشيء يوجد به الفرح والسرور، وبقبوله تكمل الغبطة به في كل الأمور، جعله الله آلة للفطن والفكرة، وفطره الله تعالى على ذلك من الفطرة، وذلك قول الرحمن، فيما نزل من الفرقان: ؟أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ؟[الحج: 46]، وقال سبحانه وعظم عن كل شأن شأنه: ؟إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ؟[ق: 37)] يقول: إن فيما تقدم من

(165/1)

فعلنا، بمن مضى ممن نزل عليه ما نزل من عذابنا، لذكرى لمن كان له قلب يعقل به، ويفهم ويتدبر ما يرى من فعلنا، فيعلم.

وقد يحتمل ويكون معنى قول الرحمن فيما نزل من واضح النور والفرقان: ؟ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ؟[المؤمنون: 14)]: هو ما ميز من خلق الأنثى والذكر، فيكون لما أن كسا العظام لحماً جعله من بعد ذلك ذكراً أو أنثى، فحينئذ بقدرة الله تمت السلالة، وفيما قلنا به من الخلق ما يقول الله عز وجل في سورة القيامة من خلق الزوجين، فهذا عنديوالله أعلم فأشبه القولين.

ثم نرجع من بعد شرحنا للواحد المؤتلف، والواحد المنتقل المختلف، والله فبري من ذلك تبارك وتعالى أن يكون ربنا كذلك.

فنقول: إنه قد يخرج معنى قول القائل: واحد في اللسان، وفيما يقال به فيه من المعنى والبيان، أن يكون الواحد من الإثنين المتشابهين في المعنى، المتقاربين في الصفة والاستواء، فيقال هذا وهذا مثلان، وهما إذا ذكرا وقيسا شيئان، وهما في التشابه والاتفاق واحد بغير ما افتراق. والله سبحانه فعن مشابهة الأشياء كلها أو مشاكلتها فبري، وعن مناظرة المجعولات فمتعالٍ عليّ.

وقد يخرج معنى الواحد، فيقال به فيه، ويستدل به في لغة العرب عليه، على معنيين:
أحدهما: الباين بالسؤدد والإفضال، فيقال: هذا واحد في فعله من الرجال؛ إذا فعل ما لا يفعله غيره، ويقصر عنه آله وقومه.

(166/1)

والآخر: إثبات الواحد ونفي الثاني، إذ الواحد لا أول قبله، والثاني فقبله عدد وبعده. ويخرج معنى قولنا الواحد على أنه لا شبيه له ولا نظير، ولا كفو صغير ولا كبير، وهو الله الواحد الأحد الخبير، فالله سبحانه الواحد في فعله، الذي لم يصنع أحد كصنعه، الخالق الذي لا خالق سواه، كما قال تقدست أسماؤه: ؟هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم؟[فاطر:3]. وهو الواحد الذي لم يكن من شيء، وهو الموجد لكل شيء، لم يكن سبحانه من أصل، ولا يكون منه أبداً فصل: ؟لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص.]. الواحد في الربوبية والقدرة والعزة، والملك والكبرياء والعظمة، وكل قادر فمقدور عليه، وكل ملك فمسلوب ملكه من يديه، وكل عزيز فأيسر العزة نال، غير الله الواحد ذي الجلال، وذي العز الكامل الدائم، والملك السرمد الباقي الدائم، القادر فلا يُقدَرُ عليه، العادل فلا ظلم لديه، البري من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى:11]، لا تحيط به الأقطار، ولا تجول بتحديد فيه الأفكار، ولا تنتظمه الصفات والأخبار، ولا تدركه سبحانه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. القائم سبحانه بنفسه، الذي لا قوام لغيره إلا به، لا تجري عليه الأزمنة، ولا تحويه الأمكنة، وكيف تجري الأزمنة أو تحوي الأمكنة من كوَّن كل مكان، وأوجد بعد العدم كل زمان؟! وهو الله الواحد الرحمن، سبحانه وتعالى ذو المن والإحسان.

(167/1)

باب الرد على من قال: إن الله جسم، وجواب من سأل عن معنى قول الموحدين: إن الله شيء لا كالأشياء

إن سأل من الخلق سائل أو تعنت متعنت قائل، فقال: ماذا تقولون، وإلى أي معنى من المعاني تذهبون، في الله ذي الجلال وذي الجبروت والمحال، أشيء هو تقولون أم غير ذلك تزعمون؟
قلنا: بل نقول: إن ربنا جل وتقدس إلهنا شيء لا كالأشياء، سبحانه تبارك وتعالى، لا يشبهه ولا يدانيه شيء، ولم يزل سبحانه قبل كل شيء، وهو المُشَيِّء لكل الأشياء، المتفرد بالخلق والإماتة

والإحياء، الموجد لما يتوهم، أو يرى بالأعين وغيرها من الحواس، من الذوق، والشم، أو السمع أو الحواس. لاتحيط به الأفهام، ولا يقع عليه بتحديد الأوهام، وهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في باطنيته، والباطن في ظاهريته، المتفرد بالوحدانية، البائن بالأزلية، الشاهد الداني في علوه، البعيد النائي في دنوه، كما قال سبحانه: ؟هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟[الحديد: 3] وكذلك ربنا الرحمن الرحيم. يعلم ما يكون قبل كينونته، كما يعلمه من بعد بينونته، علمه بما استجن في قعور البحار، وما انطوت عليه الجوانح من ضمائر الأسرار، كعلمه بما ظهر وأنار، من واضح القول والأخبار. الصمد الذي لا غاية بعده تصمد، والواحد الذي ليس كمثله أحد، لم يكن له مثل ولا ند، ولا يكون أبداً له قبل ولا بعد، مبيد الأحياء، وباعث الموتى، ووارث الآخرة والدنيا.

فإن قال قائل: فماذا تريدون، وما إليه تذهبون بقولكم: (شيء)؟

قلنا: نريد بقولنا (شيء) إثبات الموجود، ونفي العدم المفقود، لأن الإثبات أن نقول: شيء، والعدم أن لا نثبت شيئاً، لأن من أثبت شيئاً فقد أثبت صانعاً مدبراً، ومن لم يثبت شيئاً كان في أمره ذلك متحيراً، ودخل عليه ضد الإقرار، وهو النفي والشك والإنكار.

(168/1)

الرد على من قال جسم لا كالأجسام

فإن سأل وتردد في الضلال فقال: فلم لا تقولون، وعلى ما قلتم تقيسون، فتقولون: إنه جسم لا كالأجسام؟ فيكون هذا يخرج على ما يخرج عليه أول الكلام.

قلنا له: ليس الصواب كالمحال، وهذا في الله فأحول المقال، لأنه وإن اشتبه عندك فيما ترى، مخالف لما تقدم من (الشيء) في كل معنى؛ لأنّا نرى الجسم أبداً متجسماً، ولسنا نرى كل الأشياء كائناً جسماً. فالشيء يعم الأشياء كلها، والجسم فإنما يقع على بعضها، فلما اختلف معناه في الخاص والعام، اختلف جميع قياسه في الكلام، وكذلك كلما قيس أو ضرب له مثل، فإنما يقاس ويشبه بما كان مثله في كل ما سبب وحال، كما يحذا المثال على المثال، فأما الضد فلا يقاس بضده، إذ حده على خلاف حده. وفيما قلنا به في الشيء الذي لا كالأشياء ما يقول الله الواحد الأعلى: ؟قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ؟[الأنعام: 19] فذكر سبحانه وتعالى عما يصف المبطلون، ويقول به عليه الملحدون، أنه شيء موجود، لا يذكر ولا يوصف بحد من الحدود، ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى:11]. ألا ترى أن جميع أهل الإسلام، الذين هم على دين محمد عليه السلام، يقولون لمن اتهموه بسخافة دين، أو

قلة خشية أو يقين: ما تعبد من شيء، ولا توقن بشيء؛ يريدون: ما تعبد الذي يعلم أمرك، ويوفيك أجرك.

(169/1)

ذكر الأعراض

فإن قال قائل: فما دليلكم على أن من الأشياء المشاهدة المعلومة، بدلائلها المفهومة، ما ليس هو بجسم معروف، أوجدونا ذلك في أي صنف شئتم من الصنوف؟

قلنا له: من ذلك أفعال العباد، وما يكون منهم من سوء ورشاد، من الصدقة والقيام، والصلاة والصيام، وغير ذلك من حركات السحاب في السير، وما يسمع من خفقان أجنحة الطير، وما يكثر، لو شرحناه، به الأقاويل، ويطول به الكلام والتأويل، وكل ذلك من أفعال الخلق، فقد سماه الله بأحق الحق شيئاً وأشياء في قوله تبارك وتعالى: ؟وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ؟[القمر: 52] فسمى أفعالهم شيئاً وأشياء، وبين ذلك فيما نزل من النور والضياء، وهي أعراض ليست بأجسام، إذ لا تقوم إلا بالأجسام، وإنما هي صفات ودلالات، وحركات وعلامات، تتفرع من الأجسام غير متلاحقات، فهي أشياء وليست بأجسام، والأجسام أبداً فليست غير الأجسام.

فإن قال: فما دليلكم على أن ما يكون من حركاتكم التي هي متفرعة من أجسامكم هي غير أجسامكم، وأن أجسامكم هي غير حركاتكم؟

(170/1)

قلنا له: علمنا ذلك وفهمناه، ووقفنا عليه وعرفناه، لأنا نجد الأجسام تكون منها حركات بالقعود والقيام، وهي مجتمعة متلاحقة، وتسكن وتهدأ، وهي قائمة بأعيانها غير مفترقة، والأفعال والحركات غير متلاحقة ولا مؤتلفة، بل هي متصرفة متباينة مختلفة، بعضها لا يلحق بعضاً، ولا يعلم لها بعد خروجها طولاً ولا عرضاً، فاستدللنا بذلك على الفرق بين الأجسام والأفعال، في كل ما حال من الحال؛ فلذلك قلنا: إن كل جسم شيء، وأن ليس بجسم كل شيء، فلما أن خرج بعض الأشياء من أن ينتظمه اسم الجسم، ولم يخرج الجسم من أن ينتظمه اسم الشيء في الحكم؛ قلنا: إن الله سبحانه وتعالى ليس كسائر الأشياء. ولو كان كما يقول المبطلون إنه صورة أو جسم من الأجسام؛ لكان ذو الجلال والإكرام مشابهاً لما خلق من الصور والأجسام، وللحقت به الفكر والأوهام، ولجرت عليه حوادث الليالي والأيام، ولكان مضطراً محتاجاً إلى المكان، ولو احتاج إلى المكان؛ لخلت منه

مواضع كثيرة عظيمة الشأن، ولو كان كذلك، تعالى الله سبحانه عن ذلك؛ لما كان كما قال، وذكر عن نفسه ذو الجلال والجبروت والمحال، حين يقول: ؟مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا؟[المجادلة: 7] ومن خلا منه مكان، فقد حواه مكان، ومن حواه مكان؛ فقد حد بالنواحي والحدود، وخرج بلا شك من صفة المعبود، وصار إلى حد المحدودين، وانتظمه شبه المربوبين، فتعالى عن ذلك الله رب العالمين، وتقدس عن مشابهة المخلوقين، فيا ويل المشبهين للرحمن، بما خلق وذرأ من الإنسان، أما يسمعوه كيف نفى ذلك عن نفسه فيما نزله من فرقانه ووحيه، فقال: ؟قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص.]؛ والأحد فهو: الواحد الذي ليس كمثله أحد؛ والصمد فهو:

(171/1)

الغاية والمقصد، الذي ليس من ورائه مقصد؛ والذي لم يلد ولم يولد فهو: الله الذي لم يلد، فيكون ولده له شبيهاً ومثلاً، ولم يولد، فيكون والده له بدءاً وأصلاً، بل هو خالق الوالد والأولاد، وفاطر السماوات والأرض ذات المهاد؛ ولم يكن له كفؤاً أحد، والكفؤ فهو: المثل والنظير، والعديل في الكثير كان أو اليسير، في بعض الأشياء كان أو في كلها، صغيرها وكبيرها؛ والأحد فهو: الواحد الذي ليس معه ثان. فكيف يقولون ويلهم في الله بما لا يعلمون، وقد يرون قوله في نفسه ويسمعون، فهم في قولهم وافترائهم، كما قال الله ذو الجلال والجبروت، وذو العزة والعظمة والملكوت: ؟وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ؟[النحل: 62]، فنعوذ بالله من الحيرة عن الهدى، ومن التكمه في الغي والردى، وحسبي الله العلي الأعلى.

(172/1)

ذكر صفات الفعل

إن سأل سائل مسترشد أو قال متعنت قائل: أتقولون إن الله ذا الجلال والإكرام، وذا القدرة والملكوت والإنعام، لم يزل متفضلاً جواداً كريماً، تواباً محسناً غفوراً رحيماً؟

قيل له: إن هذا الذي ذكرت مما عنه سألت وسطرت أفاعيل من الواحد الجليل، وقد كان سبحانه وجل عن كل شأن شانه ولما يفعل الجود والرحمة والعفو والإحسان والنعمة، ثم فعلها وبعد العدم أوجدها، ونحن فنقول: لم يزل المتفضل الجواد الكريم المحسن الغفور التواب الرحيم، فندخل في ذلك الألف واللام ليكون قولنا وخبرنا عن الواحد الرحمن ذي الجلال والسلطان، ولا نطلق القول والكلام

في ذلك بغير الألف واللام، لأن في ذلك توهيم قدم الخليقة من المرحومين، وتثبيتاً لأزلية التوابين المربوبين.

فإن قال: أفتقولون إنه كان غير تواب رحيم ولا متفضل محسن كريم؟

قلنا له: لا نقول ذلك لما فيه من توهيم البخل والفظاظة وضد الإحسان، والله فبري من ذلك له الأسماء الحسنى في كل شأن.

فإن قال: أفتقولون إنه لم يزل صمداً؟

قيل له: نقول لم يزل الواحد الصمد، ولا نطلق في ذلك القول بغير الألف واللام؛ لأن الصمد عند أهل المعرفة والتمام هو الغاية المعمود والنهاية المقصود الذي ليس من ورائه مصمد، ولا يوجد بعده للمطلوبات مقصد، الذي تقصده البرية في شأنها، وتضرع إليه في كل أسبابها، وفي اطلاقنا ذلك على ما قلت، وقولنا فيه بما ذكرت توهيم أن البرية الحادثة الفانية من الخليقة الضارعة لم تزل، وهذا فاحش من المقال، مستنكر في كل حال، ولكن نقول لم يزل الصمد، وكذلك نقول: لم يزل المشكور المحمود، ولا نطلق القول بلا ألف ولا لام، لما في ذلك من توهيم السامع من الأنام من أنه لم يزل الحامد أزلياً مع المحمود، والشاكر قديماً مع المشكور.

فإن قال أحد من أهل الضلال: أفتقولون إنه كان في زمن من الأزمان غير مشكور ولا محمود في كل شأن؟

(173/1)

قلنا له: لا نطلق ما تقول لما فيه من توهيم الذم في اللفظ والقول، ولكن نقول: لم يزل المحمود المشكور ذو الطول؛ لأن الحمد لا يكون إلا من حامدٍ بالحمد ناطق، والشكر لا يكون إلا من شاكر راتق فاتق، فمتى أطلق القول في الله ذي الجلال والحول بأنه لم يزل محموداً مشكوراً فقد أثبت معه أزلية الحامد الشكور، وفي هذا إبطال التوحيد، الذي لا يكون إلا لله الحميد، الذي لم يزل من قبل أن يوجد كل حامد شاكرٍ أو ضال مخالف على الله كافر.

(174/1)

الإرادة

إن سأل مسترشد أو ضال أو متعنت في المقال عن إرادة الله تبارك وتعالى فقال: ما هي وعلى أي الوجوه هي؟

قيل له: إن الإرادة تخرج على ثلاثة معان وكلهن معروف في اللغة جار:
فأولهن: إرادة الله لإيجاد المخلوقين، وفتق رتق السماوات والأرضين، فلما أراد ذلك كان بلا كلفة ولا عون أعوان، إذا أراد شيئاً أوجده، وإذا أوجده فقد أراده، فمشيئته إرادته، وإرادته مشيئته، ليس له مثل ولا نظير، وهو الواحد اللطيف الخبير.

(175/1)

والثاني: فهو إرادة الأمر وهو قوله سبحانه: ؟إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟[يس: 82] ومن ذلك قوله: ؟وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ؟[البقرة: 185] يقول سبحانه: يأمركم بما فيه التسهيل لكم، والتيسير عليكم، وكذلك كلما أراد ذو الجلال، وذو القدرة والمحال من عباده من جميع الأفعال، فإنما هو أمر ونهي من رب العالمين، يأمر به وينهى عنه جميع المخلوقين. فأما قوله سبحانه:؟إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ؟[يس: 82] فليس يُتوهم أن ثمة مخاطبة من الله للعدم، وإنما ذلك منه – سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه – إخبار عن نفاذ قدرته، وإمضاء ما أراد من مشيئته، فتعالى من ليس له شبيه ولا عديل، ولاضد ولا مثيل، وهو الله الواحد الجليل، ذو القدرة والسلطان كما قال سبحانه في وحيه وذكر تعالى عن نفسه فقال فيما نزل من الفرقان، وبيّن لعباده من التبيان: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى: 12]، الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء، وجعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهارا، مجيب المضطرين، وكاشف السوء عن المكروبين، والمهلك لمن شاء من العالمين، والهادي في الظلمات، والرازق في كل الحالات، والباري لخلق المخلوقين، والمعيد لهم يوم الدين، والرازق لجميع عباده المرزوقين. وفيما ذكرنا من منّته على خلقه ما يقول سبحانه في محكم تنزيله ووحيه، ويحتج به على عباده ؟أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ

(176/1)

هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ

يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ؟[النمل: 60- 64].

والوجه الثالث: فهو إرادة المخلوقين، وهي بالنية والضمير تعالى عن ذلك رب العالمين، وتقدس عن مشابهة المربوبين، وإنما يحتاج إلى النية والضمير من لم يكن بعالم ولا خبير بعواقب أفعاله، ومتصرفات نوافذ أعماله، فهو ينوي ويضمر، ويدبر ما يورد ويصدر، لقلة فهمه بالعواقب، ولحاجته إلى المعين والأعوان، وإلى الآلات في كل حال وأوان، إذا أراد أن يصدر فيه من شأنه شأناً.

فالحمدلله الذي بان عن مشابهة العجزة المربوبين، وتقدس عن مماثلة المتحرفين المتصرفين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، وعلى أهل بيته الطيبين.

(177/1)

باب تفسير العلم في الله والرد على من قال إن لله علماً سواه به يعلم الأشياء

إن سأل سائل: فقال: ما تقولون في الله ذي الجلال: ألَهُ علم؟

قيل له: إن معنى قولك: (لله علم)، يخرج على ثلاثة معان معروفة بينه وكلها في اللسان فواضحة منيرة:

منهن: أن تكون تريد أن له علماً أنزله على المرسلين، وعلّمه إياهم ومن تبعهم من المؤمنين، مثل: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان الجليل، فنحن بذلك في الله نقول.

والثاني: أن تكون تريد أنه العالم بالأشياء، الذي لا يخفى عليه سر ولا نجوى، وأنه يعلم ما لم يكن مما سيكون؛ كما يعلم ما قد كان من الفعل وبان، فكذلك قولنا في الله ذي السلطان.

والثالث: أن تكون تقصد، وفيما ذكرت من قولك تعمد، أن لله علماً سواه، به يعلم في الحالات ما يكون من المعلومات، وهذا في الله سبحانه فأحول المحال، وأبطل ما يقال به من المقال؛ لأنه لو كان كما تقول وتُعبِّر، أوكان على شيء مما تذكر وتسطر لم يخل من أحد معنيين، وكلاهما عن الله سبحانه زائلان:

إما أن يكون هذا العلم الذي شرحت وقلت وادعيت وذكرت علماً أزلياً قديماً مع الله أولياً، فتثبت حينئذ الأزلية لشئين، ويصح القدم لقديمين اثنين، وهذا فإبطال التوحيد، والإشراك بالواحد الحميد، ودفع ما قال في كتابه، الذي أنزله على خير عباده، حين يقول سبحانه وجل عن كل شأن شأنه: ؟هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟[الحديد: 3]، وقوله سبحانه: ؟اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ؟[الزمر: 62]، وكيف يكون أولياً أبدياً من كان معه في الأولية ثان؟ وكيف يخلق كل شيء من قد كان معه قبل خلق الأشياء شيء؟ فتعالى عن ذلك الرحمن العلي.

(178/1)

أو أن يكون هذا العلم الذي ذكرت، وفيه تكمهت وقلت شيئاً أوجده الخالق المصور من بعد، وأخرجه من العدم إلى الوجود الواحد المقدر، فيكون في هذا غاية التجهيل لمن له القدرة المهيمن الجليل؛ لأنه إن كان إنما علم الأشياء بما خلق من العلم وذرأ، فقد كان الله الواحد الكريم من قبل إيجاد العلم غير عليم، ومتى زال عنه في حالة من الحالات أن يكون عالماً بالسرائر والخفيات، أعقب ذلك الجهل أكبر الجهالات، لأن العلم والجهل ضدان مختلفان، وفي كل المعاني متباينان، ومن نسب إلى الله سبحانه الجهل في حالة من الحالات أو نفى عنه العلم في وقت من الأوقات، فقد أشرك به، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله، ومن أشرك به فقد جحده، ومن جحده فقد أنكره، ومن أنكره فلم يعرفه، ومن لم يعرفه فلم يعبده، ومن لم يعبده بعرفان، ويعرفه بغاية الإيقان، فهو كما قال الله سبحانه في واضح الفرقان فيما نزل على نبيه من النور والبرهان حين يقول: ؟أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً؟[الفرقان: 44] وكما قال سبحانه: ؟وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ؟[الأعراف: 179] صدق الله ورسوله، إن في خلقه لمن هو كذلك، وعلى ما ذكر الله سبحانه من ذلك، من غير أن يكون أدخلهم فيه، ولا جبلهم عليه، تبارك وتعالى، بل هو منهم اكتساب، وقلة إنصاف منهم للألباب، ومكابرة للحق، ومعاندة للصدق، واقتداء من الأبناء بمن مضى من جهلة الآباء، فتبارك الله العالم بنفسه، العادل في كل فعله، الذي لم يزل عالماً خابراً، ولم يكن في وقت من الأوقات بشيء جاهلاً.

(179/1)

باب تفسير القدرة والرد على من زعم أن لله قدرة سواه بها قدر على الأشياء

وكذلك قولنا لمن سأل عن قدرة ربنا فقال: هل لله قدرة فيما تقولون وإليه تذهبون مما تتقلدون؟

قيل له: إن معنى قولك هذا يحتمل ثلاثة معان مختلفات، متفرقات غير مجتمعات في شيء من الجهات:

فمنهنَّ: أن تكون تريد بسؤالك عن قدرة الرحمن على ما خلق وذرأ ذو المن والسلطان من عجائب ما خلق من المخلوقات، ومدبرات ما دبر وافتطر من المفطورات، من الأرضين والسماوات، وما سوى ذلك من المجعولات، اللواتي يشهدن لمدبرهنَّ بالحول والقوة، وينطقنّ له في كل آوان بالقدرة، فكذلك نقول وإليه بلا شك نؤول.

(180/1)

أو أن يكون رأيك ومقصدك، ومذهبك في ذلك ومعتمدك، ما خلق سبحانه وأعطى، وبث في الخلق وذرأ، من القدرة التي أعطاها جميع الخلق، من الاستطاعة التي بثّ في جميع أهل الباطل والحق، ليعبدوه بها ويطيعوه، ويستعملوها في طاعته ويرضوه، ثم هداهم النجدين ومكنهم في ذلك من العملين، ولم يحل بينهم وبين أفعالهم ليجازيهم على جميع أعمالهم، ثم أمرهم بالطاعة، ونهاهم عن المعصية، ثم قال: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟[النمل: 89]، وقال: ؟فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ؟[الزلزلة: 7-8]، ثم قال من بعد الإعذار والإنذار، والدعاء والتبصير والإخبار: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا؟[الكهف: 29]، فقصد للطاعة قاصدون، ونكب عنها ناكبون، ورفض قوم الهوى، وركبوا التقى، وترك قوم التقى، واتبعوا الهوى، فحق للمطيعين الوعد من الرحمن بالجنان، ووجب على العاصين ما أوعد من النيران، وفي أولئك ومن كان من الخلق كذلك ما يقول ذو السلطان والجبروت، وذو الرأفة والقدرة والملكوت: ؟فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى؟[النازعات: 37:41)]، وقال فيمن دُعِيَ إلى الحق فأبى، وأُمِرَ بالطاعة فعصى، وآثر على الحق الهوى: ؟فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ

(181/1)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ؟[القصص: 50]، وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ؟[الجاثية: 23]، وقال: ؟أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً؟[الفرقان: 43.]، فإن كنت تريد هذا القول، فإنّا به، ولله الحمد، نقول، ونشهد بالمنة فيه للعلي ذي الطول.

وإن كنت تريد بقولك، وما تتكلم به من كلامك: أن لله قدرة سواه بها يقدر على ما يريد ويشاء، تعالى الله عن ذلك العلي الأعلى، فهذا ما لا نقوله ولا نذهب إليه، ولا نجيزه؛ لأنه من المقال قول فاسد محال؛ لأن القدرة لو كانت كذلك، تعالى الله عن ذلك، لم تخل من أن تكون قديمة أولية؛ فتكون ثابتة مع الله أزلية، وهذا فإبطال التوحيد، وعين المضادة لله الواحد الحميد، وإبطال القرآن، وتكذيب

الرحمن؛ لأنه سبحانه يقول: ؟هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟[الحديد: 3]، ويقول: ؟لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ؟[غافر: 16]، فقال سبحانه: هو الأول، فذكر أنه الأول قبل كل شيء، ولا يكون الأول إلا فرداً لا ثاني معه، كما لا يكون الآخر إلا الذي لا شيء بعده، وكذلك الواحد فهو الذي لا ثاني معه، وذلك الله الجليل الرحمن، المتعالي عمَّا يقول حزب الشيطان، فهذا من قولهم فمعنى فاسد باطل، وعن الحق والحمدلله حائل.

(182/1)

أو تكون محدثة مكونة تُعلم ويكون الله أوجدها من بعد العدم، فيدخل بذلك العجز على الله والتضعيف، فتعالى عن ذلك القوي اللطيف، لأن ضد القدرة العجز، فمتى عدمت القدرة ثبت العجز، فيلزم من قال بإحداث قدرة المهيمن القادر أن يقول إن الله كان عاجزاً غير قادر، فإن كان كما يقول الجاهلون، وينسب إليه الضالون: إنه كان ولا يقدر، حتى أوجد وخلق ما به قدر، فبماذا ويلهم خلق القدرة التي يذكرون أنه خلقها من بعد العدم ويقولون، فإن كان الله أحدثها وهو غير قادر، وأوجدها وصورها وفطرها وهي التي لا شيء يعدلها، ولا شيء من المجعولات إلا وهو دونها، إذ لا يُوجِدُ شيئاً ولا يخلق إلا بها بغير ما قدرة منه عليها فلقد كان فعله في غيرها أنفذ، ومراده في سواها أوكد، فبِمَ ويلهم خلقها وأوجدها وهو يوجد مثلها بغيرها؟ فلقد كان عنها مستغنياً، وبما خلقها به مكتفياً مستعلياً، فتبارك عن ذلك ذو الجلال وذو الجبروت، الواحد الحي الصمد الذي لا يموت، القادر العالم بنفسه، البري من شبه خلقه، الذي لم يزل ولا يزال، وهو الواحد ذو القدرة والجلال، الأول لا ثاني معه والآخر الذي لا شيء مثله.

(183/1)

باب تفسير معنى قوله الحي

لوْ قال قائل أو سأل عن معنى الحي سائل.

قيل له: الحي يخرج على ثلاثة وجوه:

فمنهن: المتحرك من ذوي الحواس المفهومة، من الملائكة والجن والإنس وغير ذلك من الخلائق المعلومة وغير المعلومة، ذوات الأرواح الجائلة المستجنة فيما خلق الله لها من الأبدان، التي هي فيها مستكنة، كما قال عز وجل: ؟وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ؟[النور: 45]، فكلها حي ما دام فيه روحه، فإذا خرج روحه حلت به وفاته وموته، والله من ذلك سبحانه فبري، وعن التجسم والزوال فمتقدس عليّ.

(184/1)

والمعنى الثاني: فما يحييه وينشئه لجميع المخلوقين مما يذرأ ويخرج للعباد، بالماء المبارك في الأرض ذات المهاد، من النخيل الصنوان وغير الصنوان، ذات الطلع الهضيم، وغيرها من رزق الواحد الكريم، من النبات والفواكه والأشجار، التي تخرج وتحيا بما ينزل عليها من الأمطار، كما قال ذو المن المهيمن الجبار: ؟وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ؟[الأنبياء: 30]، وقال سبحانه: ؟وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ؟[الحج: 5]، وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلا كُفُورًا؟[الفرقان: 48]، ومثل هذا مما ذكره الله أنه يحييه بالماء مما نعاين ونرى فكثير غير قليل، في واضح ما أنزل الله من التنزيل، فهذه أجسام تحيا بالماء، ليست بذوات أرواح جائلة في الأجسام، كما تجول الأرواح فيما خلق الله من الدواب والهوام، وإنما حياتها اخضرارها، وكمون الماء فيها وارتوائها، فسمى الله ما كان كذلك حياً كما ذكر سبحانه في كتابه، وكذلك تقول العرب لما كان من الأشجار على ذلك، تقول: هذه نخلة حية، إذا كانت مخضرة روية، والله سبحانه فبريء من هذا المعنى، ومن مشابهة شيء من الأشياء.

والمعنى الثالث: فهو الذي لا يجوز غيره في الله ذي السلطان وذي الجبروت والرأفة والإحسان، وهو أن معنى الحي هو الذي يجوز منه الفعل والتدبير، وذلك فهو الله الحي الدايم اللطيف الخبير.

(185/1)

باب تفسير قوله السميع والرد على من قال إنه سبحانه يسمع بجارحة

إن سأل سائل: عمَّا ذكر الكريم في القرآن من قوله: ؟وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ؟[الأنعام: 13]، فقال ما معنى السميع عندكم وما معناه في أصل قولكم؟.

قيل له: يخرج ذلك على معان أربعة معلومة معروفة عند جميع العرب مفهومة.

فأولهنّ: أن يكون معنى سميع هو عليم، والحجة في ذلك قول الرحمن الرحيم: ؟أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ؟[الزخرف: 80]، والسر هو ما انطوت عليه الضمائر

ولم يبد، فذلك أسر السرائر، والنجوى هو ما يتسار به ويخفيه المتناجون من الكلام والمحاورة في ما يخفون ويكتمون. والسر الذي في القلوب فلن يسمع؛ لأنه مستجن لم يبن فيشرح ويسمع، وإنما يسمع ما ترجمه اللسان، وباح به ضمير الإنسان، وإنما أراد ذو الجلال بما قال في ذلك من المقال التوبيخ لهم والإخزاء، والتوقيف على ما يأتون به من الخطأ، إذ يتوهمون أن الله يخفى عليه خافية، سراً كانت أو علانية، فقال: ؟أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم؟[الزخرف: 80] يقول: لا نعلم ونحيط من أمرهم ما يكتمونه من سرهم، ويكنونه في غيابات ضمائرهم.

والمعنى الثاني: في اسم الواحد الباري أن يكون السميع هو المجيب للداعين، ممن دعاه من عباده المؤمنين، والحجة في ذلك فما حكى الواحد الكريم عن نبيئه زكريا وخليله إبراهيم، حين يقول زكريا: ؟رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء؟[آل عمران: 38]، وقول خليله إبراهيم الأواه الحليم: ؟إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء؟[ابراهيم: 39]، يعني عليه السلام: إن ربي لمجيب لمن يشاء من الأنام، وفي ذلك ما تقول العرب لمن سأل من الله أو طلب: (سمع الله دعاك)، أي: أجاب طلبتك.

(186/1)

والوجه الثالث: قول القائل من الراكعين المصلين: سمع الله لمن حمده، ومعناه أي: قَبِل الله ممن حمده، وأثاب على شُكْرِه من شَكَره.

فهذه الثلاثة الوجوه اللواتي يجوز أن يوصف بهن الرحمن وهن فواضحات عند من عرف العربية والبيان.

والوجه الرابع: فلن يجوز على الواحد الجليل، في شيء من الأقاويل، وهو موجود في المخلوقين، متعال عنه رب العالمين، وهو الإصغاء بالأذان والإنصات لجولان دواخل الأصوات، ومستقر مفهوم القالات، فتعالى عن ذلك المهيمن الكريم، المتقدس الواحد الفرد العظيم. وكيف يكون سبحانه كذلك، أو يجوز المقال لمن قال فيه بذلك، وقد يسمع قول ذي الجلال والقدرة والمحال: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى: 11]، وقوله: ؟وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص.]، والكفؤ فهو المثل والنظير، في الصغير كان أو في الكبير، فلو كان ذا جوارح لكان ذا أعضاء، ولو كان ذا أعضاء لكان جزءاً فيه أجزاء، ولو كان أجزاءاً لكان بلا شك جسماً، ولو كان جسماً لجرت عليه الحوادث والأزمان، ولأشبه ما خلق من الإنسان، ولو كان كذلك لم يكن بخالق ولكان مخلوقاً؛ لأن كل جسم لا بدَّ له من جاعل مُجسِّم، إذ لا بد لكل مجعول من جاعل، كما لا بد لكل مفعول من فاعل، ولكل مصنوع من صانع، ولكل مقطوع من قاطع، فسبحان من ليس كذلك ولا على شيء من ذلك، لا تحيط به الظنون، ولا يصفه الواصفون، إلا بما وصف به نفسه من قوله هو، وأنه كما قال سبحانه في آخر الحشر: ؟يزُ الْحَكِيمُ؟[الحشر: 22: 24].

(187/1)

وكذلك وصفه أنبياؤه ورسله لمن حاربه وأنكره، وجحد نعمته وعانده، من ذلك قول الملعون اللعين فرعون للنبيين موسى وهارون صلى الله عليهما حين دعواه إلى الإيمان بربه، والإقرار بوحدانيته، فقال مجيباً لهما مكذباً لقولهما: ؟فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى؟[طه: 49]، فقال موسى صلى الله عليه: ؟رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى؟[طه: 50]، فقال فرعون العمي الأعمى: ؟فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى؟[طه: 51]، فقال موسى: ؟عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى؟[طه: 52: 54]، ومثل هذا شيء كثير غير قليل، فيما نزل الله من واضح التنزيل، من دلالة أنبيائه عليه، وذِكْرهم له بما نسبوا من فعله إليه، من ذلك قول هود صلى الله عليه لمن أرسل من الخلق إليه، حين يقول: ؟وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ؟[الشعراء: 133]. ومن ذلك قول شعيب صلى الله عليه لأصحاب الأيكة المخسرين، فيما أمرهم به من طاعة رب العالمين: ؟وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ؟[الشعراء: 184]. ومن ذلك قول إبراهيم المطهر الكريم، لعبدة الأصنام، الشاكين في الله الطغام، حين يقول صلى الله عليه: ؟أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ

(188/1)

لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ؟[الشعراء: 76–85]. ومن ذلك قوله صلى الله عليه لأبيه وقومه ودلالته إياهم على ربهم وربه عز وجل حين يقول: ؟بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ؟[الأنبياء: 56].

فكل الأنبياء عليهم السلام يدل على ربه ذي الجلال والإكرام بآياته وفعله، وما ذرأ وأوجد من خلقه، لا بتبعيض ولا تصوير ولا تحديد، ولا بمشابهة لما خلق من العبيد، فسبحان من ليس له شبه ولا عديل، ولا ضد ولا مثيل، وهو الفرد الصمد الجليل، الذي كينونته في السماوات العلى كيكنونته في الأرض السابعة السفلى، الذي لا تراه العيون الناظرة، ولا تدركه الأوهام الخاطرة، في الدنيا ولا في الآخرة، النافذ قضاؤه، والعزيز أولياؤه، والذليل أعداؤه، المُرضي لمن أرضاه، المُعذب لمن عصاه،

الداعي إلى دار السلام، المبتدي بالفضل والإنعام، مبيد الأحياء، وباعث الموتى، وجامع الخلق ليوم لا ريب فيه، المتكفل بالكفاية لمن توكل عليه، المتولي الموفق الهادي لمن انقطع إليه، كذلك الله أكرم الأكرمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(189/1)

باب تفسير قول الله سبحانه ؟وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ؟آل عمران: 20 والرد على من قال من أهل الإلحاد إنه يبصر بعين كأعين العباد

إن سأل سائل مسترشد عن ذلك أو تعنت متعنت ضال هالك.

قيل له: إن معنى بصير يخرج على معنيين بينين عند أهل العلم نيرين، فأما أحدهما فهو العالم بالأشياء طراً. من ذلك قول العرب: فلان بصير بالفقه والنحو والحساب، بصير بالشعر والكلام في كل الأسباب، يريد أنه به عالم، وبه في كل حال قائم، فعلى ذلك يخرج قول الرحمن ذي الأياد، حين يقول: ؟وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ؟ يريد عالم بهم، محيط بكل أمرهم، مطلع على خفي سرهم.

والمعنى الآخر فهو: البصر والنظر بالعين، والله عن ذلك بري، وعنه متعال علي، إذ ذلك ومن كان كذلك مشابه للمخلوقين، وقد نفى ذلك عن نفسه رب العالمين حين يقول: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى: 11]، ولو كان كما يقول من كفر بكتابه وجحد بآياته، لكان مشبهاً لكل ما نراه ونجده، ونحيط به ونعلمه من المبصرين بالأعين من المربوبين، ولو كان ذلك كما يقولون؛ لبطل قوله: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟[الشورى:11]، ولو بطل من الكتاب شيء يسير لبطل منه الجليل الكبير، ولو بطل بعضه، لأشبه الباطل كله، بل هو يؤكد بعضه بعضاً، فلن يبطل منه حرف أبداً، وكيف يبطل أو يتناقض ما أحكمه ذو الجلال والسلطان، وحفظه من كل سوء الرحمن؟! ألا تسمع كيف يقول: ؟وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ؟[فصلت: 42]، ويقول جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ؟[البروج: 21-22]، فكيف يتناقض أو يبطل ما حفظه الواحد الكريم، وحاطه من كل باطل أو دنس ذميم، ومنعه وحجره عن الشيطان الرجيم؟! كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً، وجاروا عن قصد الحق جوراً شديداً.

(190/1)

تم كتاب المسترشد من أوله إلى آخره وهو على التقديم والتأخير، بحمد الله ومنه والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين.

باب الرد على أهل الزيغ من المشبهين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين:

إن سأل مسترشد سائل أو قال متعنت قائل: ماذا يعبد الخلق؟

قيل له: يعبدون الخالق الذي فطرهم وصورهم وابتدعهم وأوجدهم.

فإن قال: وأين معبودهم أفي الأرض أم في السماء؟ أم فيما بينهما من الأشياء؟

قيل له: بل هو فيهما وفيما بينهما، وفوق السماء السابعة العليا، ومن وراء الأرضين السابعة السفلى، لا تحيط به أقطار السماوات والأرضين، وهو المحيط بهن وبما فيهن. فكينونته فيهن ككينونته في غيرهن مما فوقهن وتحتهن، وكينونته فيما فوقهن وتحتهن ككينونته قبل إيجاد ما أوجد من سماواته وأرضه، فهو الأول الموجود من قبل كل موجود، المكوِّن غير مكوَّن، والخالق غير مخلوق، والقديم الأول الذي لا غاية له ولا نهاية، الذي لم يحدث بعد عدم، ولم تكن لأزليته غاية في القدم، البري من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن القضاء بالفساد، صادق الوعد والوعيد، المحتج بالبراهين النيرة على العبيد، العالي في دنوه، والداني في علوه، خالق السماوات والأرضين، فهو الموجد لأولهن، والمبيد آخراً لما أوجد منهن، والمبدل لهن في يوم الدين غيرهن.

فإن قال: فما معنى كينونته فيهن وفي غيرهن مما بينهن، ألِعِظَم جسم أحاط بهن وكان كذلك فيهن؟ أم لسرعةِ تحولٍ وانتقال منهن إلى غيرهن ومن غيرهن إليهن؟

قيل له: ليس إلهنا سبحانه كذلك، ولا يقال فيه بذلك، وهو سبحانه متعال عن الانتقال، متقدس عن الزوال، وعن التصوير في صورة الأجسام، تعالى عن ذلك ذو الجلال والإكرام، ولكن معنى قولنا: (إنه فيهنَّ) هو أنه مدبر لهن، قاهر لكل ما فيهنّ، مالك لأمرهنّ، ولأمر ما بينهنّ وما تحتهنّ، لا أنه مستجن بهنّ ولا داخل كدخول الأشياء فيهنّ.

فإن قال السائل المتعنت: فما هو في ذاته عندكم، إذ كان كذلك في قولكم وما تعتقدون في دينكم أجسم هو أم عرض؟

قيل له: تعالى عن ذلك ربنا علواً كبيراً، لا نعتقد شيئاً من ذلك، وليس ربنا سبحانه كذلك، لأن الجسم محدود مبعض، والله فليس كذلك. والعرض لا قوام له إلا بغيره والله فهو المقيم لكل شيء، الذي لا يحتاج إلى معونة شيء، فلذلك قلنا إن ربنا على خلاف قولك.

فإن قال: أفنوراً تعبدون، أم ظلمة هو تقولون، أم غير ذلك مما يعقل تذكرون؟ وإلا فما أراكم تعبدون شيئاً عليه تقفون، ولا تدعونني إلى عبادة شيء أعرفه، ولا إلى الإقرار بإلهٍ يقف عقلي وفهمي على صفته. فكيف أعبد ما لا أعرف، أو أتعبد لما لست عليه أقف؟! وإنما لا يجب علي أن أقرَّ به فضلاً على أن أعبده، وإنما يجب علي أن أعبد إلهاً عرفته فلم أنكره، ووقعت عليه حواسي فلم أدفعه. فأما مالم يقف عليه عقلي، ولم أعرفه بشيء من حواسي، فكيف يكون عندي ثابتاً، فضلاً عن أن يكون واحداً فاعلاً؟ والوحدانية فإنما تكون عندي وتثبت في قلبي لما عرفته بصفاته، وحددته بذاته، فحينئذ أقف على وحدانيته، فأما ما لم أقف له على تحديد، ولم أعرفه بكون ذاته فكيف أوحده، بل كيف أعبده؟ أوجدوني بقولكم حجة وتبياناً، وأظهروا بذلك لي حقاً وسلطاناً.

(193/1)

قيل له: لعجز حواسك وعقلك عن درك معبودك جل جلاله بالتحديد، صح له سبحانه ما أنكرت من التوحيد؛ لأن حواسك وعقلك أدوات مجعولات، مركبات على درك المخلوقات مثلهنّ المصورات بالخلق كتصويرهنّ، فأما مالم يكن لهنّ مشابهاً، ولا لمعانيهنّ مشاكلاً، وكان عن ذلك متعالياً، ولم يكن له حد ينال، ولا شبه تضرب له فيه الأمثال، فلا يدرك جل جلاله بهنّ، ولا تدرك معرفته سبحانه بشيء منهنّ، ولا يستدل عليه إلا بما دل به على نفسه، من أنه هو، وأنه القائم بذاته، فلمَّا صح عند ذوي العقول والتبيان وثبت في عقل كل ذي فهم وبيان أن الحواس المخلوقة، والألباب المجعولة لا تقع إلا على مثلها، ولا تلحق إلا بشكلها، ولا تحد إلا نظيرها، صحت له سبحانه – لما عجزت عن درك تحديده – الوحدانية، وثبتت للمتنع عليها من ذلك الربوبية؛ لأنه مخالف لها في كل معانيها، بائن عنها في كل أسبابها، ولو شاكلها في سبب من الأسباب، لوقع عليه ما يقع عليها من درك الألباب. فلما تباينت ذاته وذاتها، وكانت هي فعله وكان هو فاعلها، بانت بأحق الحقائق صفاته وصفاتها، فكان درك الأفهام والعقول لها بالتبعيض والتحديد والانحدار منها والتصعيد، وكان درك معرفته سبحانه بأفعاله وما أظهر من آياته، ودل به على نفسه من دلالاته، من خلق أرضه وسماواته، وما ابتدع مما بينهما من خلقه. فكان الدرك بالصنع والأفعال للصانع الفاعل كالدرك بالعيان سواء سواء، عند كل فهمٍ عاقل، وكان درك الحواس لما شاكلها، وما كان منها ومثلها بالتحديد والعيان، وكان دركها لما باينها فلم يشابهها، وكان على خلاف ما هي عليه من تقديرها وتصويرها، متقدساً عن مشاكلتها بما تدركه من أفعاله، وتقف عليه من آياته في أنفسها دون غيرها،

ثم في غيرها من بعدها. فلمَّا أن وجدت العقول والحواس أجساماً مثلها متصورات في الخلق كتصويرها، وأعراضاً لا تقوم إلا بغيرها استدلت على الفاعل بفعله، ووقفت على معرفة الخالق بخلقه، كما تعرف كل

ذي عمل بعمله، وتستدل على كل صانع بفعله؛ لأنك متى وقفت على جدار مبني علمت أن له فاعلاً بانياً، وكذلك إذا وقفت على ثوب معمول علمت أن له عاملاً غير مجهول، وكذلك لو سمعت حاسة السمع صوتاً لعلم السامع أن له مصوتاً منه كان، ومن بعد خروجه من حلقه بانَ لسامعه ووضح علمه لعالمه، وكذلك لما أن رأت حاسة البصر الآيات المجعولات، وما فطر الله من الأرضين والسماوات، علم ذو الحاسة بعقله وتمييزه أن لذلك مدبراً جاعلاً، وخالقاً محدثاً فاعلاً ليس لشيء من خلقه بمشابه ولا مشاكل؛ لأن كل ما يدرك بالتحديد والتبعيض والعيان من الأشياء، فالأشياء لا تخلو من أن يكون غيرها جعلها، أو هي جعلت أنفسها، فلما أن كان ذلك كذلك نظرنا في خلقها لأنفسها، فاستحال عندنا وامتنعت من قبوله عقولنا، لأنها كانت من قبل الجعل عدماً، والعدم لا يجعل موجوداً، ولا يخلق جسماً، لأنه ليس بشيء، وما لم يكن بشيء فلا يفعل أبداً شيئاً، فضلاً عن أن يخلق جسماً، فلما أن بطل لما ذكرنا أن تكون جعلت نفسها ثبت أن الجاعل لها غيرها، المصور المقدر لخلقها، فلما أن ثبت أن فاعلها غيرها ثبت أنه بخلافها، وأنه مباين في كل الأمور لها، غير مشاكل لشيء منها، فلما أن صح بُعْدُه عن مشاكلتها صح عجز المجعولات عن درك جاعلها، وثبت انحسارها عن تحديد خالقها، فلما أن صح عجزها عن دركه وثبت انحسارها عن تحديد خالقها ثبت بذلك له أيها السائل ما أنكرت من معرفته سبحانه، فلما ثبت لك معرفته صحت لك بلا شك وحدانيته، ولما صحت له سبحانه الوحدانية وجبت له جل جلاله الربوبية. فافهم ما عنه سألت وانظر فيه إذا نظرت بلب حاضر، ورأي وارد صادر يبن لك في ذلك الصواب، وينكشف لك عنه الحجاب إن شاء الله والقوة بالله وله.

ومن الحجة في ذلك أيضاً أن يقال لمن قال ذلك: أخبرنا عن العقل الذي تريد بزعمك أن تقف به على معرفة ربك، أحجة لله هو فيك أم ليس بحجة له عليك؟

فلا تجد بداً من أن تقول: هو حجة لله فيَّ ركبها سبحانه للاحتجاج بها عليَّ.

وإذا قال ذلك، وكان الأمر عنده فيه كذلك، قيل له: أو ليس كذلك القرآن، وهو حجة عليك وعلى غيرك من الرحمن؟

فإذا قال: نعم كذلك، أقول، وإلى ذلك اعتقادي يؤول.

قيل له: فهل يجوز أن تتضاد حجج الله وتختلف، وتتباعد في المعاني فلا تأتلف، فتدل إحداهن على معنى وتبطله وتنكره الأخرى، فكلما أثبتت حجةُ العقل لله حجةً على العباد، أنكرتها ودفعتها وخالفتها وأبطلتها حجةُ الله في القرآن، وكلما أثبتت حجة الله في القرآن شيئاً دفعته حجة العقول دفعاً.

فإن قال: نعم يكون ذلك ويوجد.

استغني بجهله واستدل بذلك على كفره، وخالف الخلق أجمعين، وقال بما لم يقل به أحد من العالمين، وافتضح عند نفسه فضلاً عن غيره، لأنه زعم أن حجج الله تتناقض وتتضاد وما تناقض وتضاد فليس بحجة لله على العباد.

وإن رجع إلى الحق، وتعلق بالقول بالصدق، فقال: لا يجوز ذلك، ولا يكون أبداً كذلك؛ لأن حجج الله على الخلق يؤكد بعضها بعضاً، ويشهد ناطقها من القرآن لمستجن مركبها في الإنسان، ويشهد عقل الإنسان لنواطق حجج القرآن، وكذلك ما نطق به الرسول يشهد له القرآن والعقول. من ذلك ما يروى عن النبي المصطفى السراج المنير، والحجة لرب العالمين على عباده أجمعين، عليه وآله أفضل صلوات أرحم الراحمين، من أنه قال: ((سيكذب عليَّ من بعدي كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله.))، فأخبر صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يأتي منه قول مخالف للكتاب؛ لأنه حجة لله في كل الأسباب، ولن تخالف حجة من حجج الله حجة.

(196/1)

وكذلك العقل فهو حجة لله على خلقه، لا يوضح ولا يدل إلا على ما دل عليه وأوضحه القرآن، فإذا فهم ما قلنا به من ذلك السائل، وقال به ووقف على أن حجج الله يؤكد بعضها بعضاً ولا يبطل شيء منها شيئاً، قيل له: كيف يا لك الخير تريد من العقل المخلوق أن يصف لك الخالق، ويقف لك عليه بتحديد، وفي ذلك إبطال ما نطق به القرآن من توحيد الله الواحد الحميد، وذلك قول الرحمن فيما نزل من النور والفرقان حين يقول:؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ؟[الشورى: 11]، ويقول سبحانه:؟قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص.] والكفؤ فهو: المثل والنظير، في الصغير كان من الأمور أو الكبير، وهذا كله وما كان من القرآن مثله فينفي عن الله التشبيه، وكذلك حجة الله من العقول في الإنسان تنفي ما نفاه عن الله القرآن، ولو ثبت عقلك أو

صحح لك لبك أن ربك محدود، أو أنه جسم كسائر الأجسام موجود، لكان عقلك قد ثبت لك أن ربك كغيره من الأشياء، فتعالى عن ذلك العلي الأعلى، ولو كان ذلك كذلك لتناقضت حجج الرحمن في كل قول وبيان، ولو تناقضت حججه لبطلت فرائضه، ولو بطلت فرائضه لبطل معنى إرساله لرسله، ولو بطل معنى إرساله لرسله لبطل معنى أمره ونهيه، ولو بطل معنى أمره ونهيه لبطل معنى ثوابه وعقابه، ولو بطل معنى ثوابه وعقابه لبطل معنى خلقه لدنياه وآخرته، ولو بطل معنى خلقه لدنياه وآخرته لبطل معنى خلقه لسماواته وأرضه، ولو بطل معنى خلقه لسماواته وأرضه لبطل معنى خلقه لما فيهما وبينهما من خلقه، ولو بطل معنى خلقه لما فيهما وما بينهما من خلقه لما كان لما أوجد من ذلك معنى، ولو لم يكن لجميع ما أوجد من الأشياء أو بعضها معنى ثابت مفهوم صحيح بين معلوم؛ لدخل بذلك على الحكمة الفساد؛ لأن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لسبب وأمر ومعنى، ومن فعل شيئاً لغير معنى فإنما ذلك كان منه

(197/1)

عبثاً وجهلاً، ولو دخل على الحكيم ضد الحكمة؛ لكان اسم الجهل له لازماً، ومن لزمه اسم الجهل؛ فليس بخالق، والخالق فهو الحكيم غير الجاهل، فتعالى الله الرحمن الرحيم، الخلاق الحكيم، لا إله إلا هو الواحد الكريم عمَّا يقول فيه المبطلون، ويضيف إليه الفاسقون، ويصفه به الجاهلون.

فلينظر من نظر في كتابنا هذا إلى ما يؤول إليه قول من قال بتناقض حجج الرحمن واختلافها في الشرح والبيان؛ فإنه يؤول إلى جحدان الخالق وإبطاله ودفعه له بما يدخل عليه من الجهل في خلق ما يخلق، إذ خلق – بزعم من جهل وفسق – لغير معنى، وقد يعلم أن من فعل فعلاً لغير سبب ولا معنى فإنما عبث واستهزى وضاد الحكمة فيما به أتى، والله سبحانه فمخالف لذلك، متعال سبحانه عن الكينونة كذلك، فقد بان بحمد الله، لكل ذي عقل وعرفان وفهم وتمييز وبيان، أمرُ من قال بتناقض حجج الله أنه غير عارف به ولا مقر، ومن لم يعرف الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله فلم يعبده، ومن لم يعبده فقد عبد غيره، ومن عبد غيره فهو من الكافرين، ومن كان من الكافرين فقد خرج بحمد الله من حد المؤمنين.

فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسأله الزيادة في الرحمة والهدى، وحسبي الله فنعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير.

تم كتاب المسترشد

وله أيضاً عليه السلام:

(198/1)

كتاب المنزلة بين المنزلتين

بسم الله الرحمن الرحيم

(199/1)

شهادة جميع الأمة لنا بحقية ما نحن عليه

قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

إن سأل سائل فقال: من أين زعمتم أن الحق في أيديكم دون غيركم، وجميع من خالفكم يدعي مثل ما ادعيتم؟

قلنا له: إن أقرب الأشياء عندنا الذي قد علمنا به أنا على الحق، ومن خالفنا على الباطل، أن جميع فرق الأمة بجملة قولنا مصدقون، ونحن لهم فيما أنفردت به كل طائفة منهم مكذبون، وهم في ما ندين الله به من أصول التوحيد والعدل، وإثبات الوعد والوعيد، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مصدقون.

(200/1)

أصناف المسلمين

وجميع أهل الصلاة عندنا خمسة أصناف: الشيعة، والمرجئة، والخوارج، والمعتزلة، والعامة، فقد شهدت لنا هذه الفرق كلها في أصل شهادتها بما نقول، ثم نقض ذلك بعضهم، فأقمنا على أصل ما شهدوا لنا به، ولم ننقض ذلك كما نقضه بعضهم.

(201/1)

شهادتهم لنا في التوحيد

وذلك أنهم شهدوا أن الله واحد ليس كمثله شيء، ثم نقضت ذلك المشبهة بقول من قال منهم: إنه على صورة آدم، وبقول من قال: إنه جسم محدود، وبأقاويل لهم كثيرة كلها نقضت قولهم: واحد ليس

كمثله شيء، لوصفهم له بالأجزاء، والأعضاء، والحدود، والزوال، والانتقال، تعالى الله عمَّا قالوا علواً كبيراً، فعلمنا أن الذي ليس كمثله شيء لا يكون على صورة شيء، ولا يكون جسماً محدوداً؛ لأن ما كان كذلك كان أجزاء كثيرة، بعضها غير بعض، ولم يكن واحداً؛ لأن الواحد في الحقيقة لا يكون له أشباه، ولا يكون له ثان. فلما شهدوا لنا أنه واحد ليس كمثله شيء، أخذنا بذلك وتركنا اختلافهم، إذ نقضوا به شهادتهم، فهذا ديننا، وشهادتنا، وحجتنا على كل من خالفنا في التوحيد.

(202/1)

شهادتهم لنا في العدل

وأمَّا شهادتهم لنا في العدل فإنهم شهدوا أن الله تبارك وتعالى عدل لا يظلم ولا يجور، وأنه خير للخلق من الخلق لأنفسهم، وهو أرحم الراحمين. ثم نقضت ذلك المجبرة بقول من قال منهم إنه كلف العباد ما لا يطيقون، وإنه أخرجهم من الطاعة، وإنه عذبهم على ما خلقه فيهم، وبقول من قال منهم إن الله يريد أن يعصى ثم يغضب مما أراد، وبقول من قال منهم إنه يعذب الطفل الصغير بجرم الشيخ الكبير، وبأقاويل كثيرة كلها تنقض قولهم إنه عدل لا يجور، تعالى الله عمّا قالوا. فعلمنا أن العدل الرحيم لا يفعل ذلك، إذ كان ذلك ممن فعله جوراً، وظلماً، وعبثاً، تعالى الله عن ذلك، فأخذنا بما شهدوا لنا به في أصل شهادتهم أنه لا يظلم، ولا يجور، ولا يعبث، وأنه حكيم حيم، عدل كريم، وتركنا ما نقضوا به جملتهم عند اختلافهم، فهذا ديننا، وحجتنا على من خالفنا في العدل.

(203/1)

شهادتهم لنا في الوعد والوعيد

وأمَّا شهادتهم لنا في الوعد والوعيد، فإنهم شهدوا جميعاً أن الله تبارك وتعالى صادق في جميع أخباره، وأنه لا يخلف الميعاد، ولا يبدل القول لديه، صادق الوعد والوعيد في أخباره، ثم نقض ذلك المرجئة بقول من زعم أن الله جائز أن يغفر لمن قد أخبر أنه يعذبه، وخالف ذلك منهم من زعم أن الله يقول من زنى عذبته بالنار يوم القيامة، فيأتي الخبر من الله ظاهراً مطلقاً ليس معه استثناء، ثم لا يعذب أحداً من الزناة يوم القيامة، ولا تمسهم النار؛ لأنهم زعموا أنه استثنى ذلك عند الملائكة، فقال إني أعذبهم إن شئت، وإلا فإني أغفر لهم، أو يقول إلا أن أتفضل عليهم بالعفو، وإنما عنى أني أعذبهم إلا أن يغتسلوا من جنابة الزنى، فإن اغتسلوا من جنابة الزنا وفعلوا شيئاً من الخير غفرت لهم. فلما جوزوا ذلك في أخبار الله نقضوا معنى ما حكم الله به في وعده ووعيده، وادعى

بعضهم الخصوص في الأخبار، فزعموا أن كل خبر جاء من الله عاما في الظاهر، فقد يجوز أن يكون خاصاً، كقول الله عز وجل: ؟وإن جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ؟[التوبة: 49]، فزعموا أنه يجوز أن يكون عنى بعض الكافرين دون بعض، وكذلك قوله: ؟إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[النور: 23]، وأنه يجوز عندهم أن يكون في بعض القاذفين دون بعض، إلا أنهم يعلمون أن الكفار كلهم يعذبون بإجماع الناس على ذلك.

وأمَّا أصحاب الكبائر فيجوز عندهم أن لا يعذب أحد منهم، ولا تمسه النار، وزعم بعضهم أنه ليس في أهل الصلاة وعيد، وإنما الوعيد في الكفار خاصة دون غيرهم. وكل هؤلاء وغيرهم من أصناف المرجئة ناقضون لمعنى ما أخبر الله به في كتابه، وحكم به من وعده ووعيده.

(204/1)

فلما شهدت لنا الفرق كلها أن الله صادق الوعد والوعيد، لا خلف لوعده، ولا تبديل لقوله، أخذنا بما أجمعوا عليه من ذلك، فلم ننقض معاني الأخبار كما فعلت المرجئة، وعلمنا أن الله تبارك وتعالى إذا أخبر بشيء كان كما قال، ولا تبديل لذلك، ولا نقض ولا تكذيب ولا نكث ولا تنسخ أخباره أبداً بشيء، ولا يظهر لنا خبراً، ثم يفعل خلافه، ولا يظهر لنا عموم الأخبار في وعده ووعيده ثم يجعلها خاصة من حيث لا نعلم؛ لأن ذلك كله غير جائز على الله، تعالى عمَّا قالت المجبرة والمرجئة علواً كبيراً، فهذا ديننا، وحجتنا على من خالفنا في الوعيد.

(205/1)

شهادتهم لنا في المنزلة بين المنزلتين

وأما شهادتهم لنا في المنزلة بين المنزلتين، وقولنا إن أهل الكبائر من أهل الصلاة فساق فجار أعداء الله ظلمة معتدون، فإنهم شهدوا لنا بذلك فشهدنا بما شهدوا، ثم ادعى بعض الخوارج أنهم كفار، وأن فسقهم قد بلغ بهم الكفر والنفاق دون الشرك، ويقال إن الزيدية، أو بعضهم، يزعمون أن فسقهم قد بلغ بهم الكفر، وادعت المرجئة أنهم مع فسقهم مؤمنون، وخالفهم في ذلك عامة الأصناف.

وقالت المعتزلة هم فساق وفجار، لا يبلغ بهم فسقهم كفراً ولا شركاً ولا نفاقاً، وكذلك قالت المرجئة والعامة، وقالت المعتزلة أيضاً لا يجب لهم اسم الإيمان مع الفسوق، وكذلك قالت الخوارج والشيعة الزيدية، فوجدناهم كلهم قد أجمعوا على شهادة واحدة أنهم فساق فجار معتدون، فأخذنا بما أجمعوا عليه من ذلك، وتركنا ما اختلفوا فيه مما كذب فيه بعضهم بعضاً فسميناهم فساقاً فجاراً، وبرأناهم من

الكفر والشرك والنفاق، إذ كانوا فيه مختلفين، ولم نوجب لهم اسم الإيمان إذ كانوا عليه عند إصابتهم الكبائر غير مجتمعين، ولم يكن في شيء من اختلافهم حجة من حجج رب العالمين، فهذا ديننا وحجتنا على من خالفنا في المنزلة بين المنزلتين.

(206/1)

شهادتهم لنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وأمَّا شهادتهم لنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنهم شهدوا أن ذلك واجب إذا أمكن وقدر عليه، وشهدوا أن نصرة المظلوم فرض، والأخذ على يد الظالم فرض إذا أمكن ذلك، ثم اختلفوا بعد ذلك. فقال منهم قائلون: لا ندفع الظالم عن أنفسنا، ولا عن غيرنا إلا بالقول والكلام، وإن انتهبت أموالنا، وانتهكت حرماتنا لم نقاتل بالسلاح، وإن كان في ذلك دفع الظلم عنَّا وعن المسلمين، لكنا نترك الظالمين والباغين يبلغون منتهى حاجتهم منا ومن حرماتنا وأموالنا، ثم يمضون سالمين. وقال آخرون نقاتل وندفع عن أنفسنا وحرماتنا وأموالنا بالسلاح وغيره، فإن قتلنا رجونا أن نكون شهداء، وإن قتلناهم رجونا أن نكون سعداء. فلما شهدوا أن نصرة المظلوم ودفع الظالم والأخذ على يد الظالم فريضة لازمة لمن قدر عليها، علمنا أنه لا يخرجنا من هذه الفريضة إلا أداؤها، والقيام بها بالسلاح وغيره إذا أمكننا ذلك، فأخذنا بما أجمعوا عليه لنا في أصل شهادتهم، ولم نترك ذلك كما تركه الآخرون وهم على دفعه قادرون. فهذا ديننا وحجتنا على من خالفنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودفع الظالم.

فمن أقام على هذه الأصول كما أقمنا، ودان بها كما دنا، وعمل بما استحق الله عليه فيها فهو منا وأخونا ولينا، ندعوه إلى ما أجابنا، ونجيبه إلى ما دعانا. ومن خالفنا وفارقنا عليها حاججناه بالمحكم من كتاب الله، ورددناه إلى المجمع عليه من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن قبل ذلك كان له مالنا، وعليه ما علينا، وإن أبى إلا المخالفة للحق، والمعاندة للصواب كان الله حسيبه، وولي أمره، والحاكم بيننا وبينه، وهو خير الحاكمين، وقد ذكرنا من كتاب الله عز وجل تحقيق ما قلنا وتصديق ما وصفنا.

(207/1)

باب ذكر التوحيد

إن الله تبارك وتعالى ذكر التوحيد في كتابه فقال: ؟قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ

يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟[الإخلاص.]، فأخبر سبحانه أنه الواحد الأحد الذي ليس بوالد ولا ولد، وأنه ليس له كفؤ ولا شبيه في وجه من الوجوه، وقال: ؟هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟، يقول: كفواً أو نظيراً، وقال: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى: 11]، وقال: ؟لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟[الأنعام: 103] ولم يقل في الدنيا دون الآخرة، فنفى عن نفسه درك الأبصار في كل وقت من أوقات الدنيا والآخرة، كما نفى عن نفسه السِنَة والنوم في الدنيا والآخرة، فقال: ؟لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ؟[البقرة: 255]، كما نفى عن نفسه الظلم في الدنيا والآخرة فقال: ؟إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ؟[يونس: 44]، وكما نفى عن نفسه أن يكون له شبيه في الدنيا والآخرة على كل وجه من الوجوه بقوله: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟[الشورى: 11]، وقال: ؟وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ؟[الزخرف:84]، فنفى عن نفسه أن يكون في مكان دون مكان؛ لأن من كان في مكان دون مكان فمحدود، والله غير محدود، ولا يحيط به شيء، وهو بكل شيء محيط، وقال:؟مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ؟[المجادلة: 7] الآية، فبهذه الآيات ونحوها أحتججنا على من خالفنا ومن شبه الخالق بالمخلوق، وعلمنا أن الله لا يشبهه شيء في وجه من الوجوه.

(208/1)

باب في خلق القرآن

وذكر الله القرآن فقال: ؟إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ؟[الحجر: 9]، فأخبر أنه منزل محفوظ، كما قال: ؟وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ؟[الحديد: 25]، وكقوله: ؟وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ؟[الزمر: 6]، وقال: ؟وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا؟[ق: 9] ولم يقل خلقنا الحديد والماء والأنعام، وكل ذلك مخلوق، وقوله: ؟خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؟[الرعد: 16]، وقوله: ؟خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا؟[الروم: 8]، وكذلك القرآن؛ لأنه شيء وهو بين السماوات والأرض، وليس القرآن من أعمال العباد التي أضافها الله إليهم في كتابه، ولا من صنعهم الذي نسبه الله إليهم، فالقرآن داخل في هذه الآيات دون عمل العباد كالأنعام والحديد.

وقال: ؟وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا؟[الشورى:52]، وقال: ؟الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ؟[الأنعام: 1]، فأخبر أنه نور والنور مخلوق.

وقال:؟إنا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا؟[الزخرف: 3]، وقال: ؟خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا؟[النساء: 1]، وكذلك خلق القرآن، إذ جعله قرآناً عربياً كما جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً، بأن خلقهما كذلك.

وقال: ؟مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ؟[الأنبياء: 2]، وقال: ؟أَوْ يُحْدِثُ

لَهُمْ ذِكْرًا؟[طه: 113]، فأخبر أنه محدث، وأنه ليس بقديم، وإذا كان محدثاً فالله أحدثه، وهو مخلوق والله خلقه.

(209/1)

وقال: ؟وإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ؟[التوبة: 6]، وقال: ؟يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟[البقرة: 75] وقال: ؟وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمان؟[الشورى: 52]، وقال: ؟إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ؟[النساء: 171]، وقال: ؟فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ؟[الحجر: 29]، وقال: ؟وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا؟[التحريم:12]، فأخبر أن القرآن كلامه، وروح من أمره، وأن عيسى كلمته وروح منه، وأنه نفخ في آدم من روحه، وكذلك في مريم، ثم أجمل ذلك كله فقال: ؟إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ؟[آل عمران: 59-60]، فأخبر أن معنى الكلمة والروح خلق من خلقه، وتدبير من أمره، وكذلك القرآن سماه كلامه وروحاً من أمره، ومعنى ذلك أنه خلق من خلقه، وتدبير من تدبيره وأمره. وقال: ؟وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ؟[النحل: 101]، وقال: ؟مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟[البقرة: 106]، فبهذه الآيات ونحوها خالفنا من زعم أن القرآن ليس بمخلوق، وعلمنا أنه مخلوق محدث وأن الله خالقه.

(210/1)

باب ذكر عدل الله في كتابه

قال الله عز وجل:؟إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ؟[النحل: 90]، وقال: ؟وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ؟[الأنعام: 152]، وقال: ؟وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى؟[المائدة: 8]، وقال: ؟وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ؟[الأعراف: 29]، وقال:؟قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟[الأعراف: 33]، وقال: ؟الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ

الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ؟[البقرة: 268]، فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن العدل والإحسان من الله تبارك وتعالى، وأن الظلم والعدوان من عمل الشيطان وفعل الإنسان، والله من ذلك بري، تبارك وتعالى عمَّا يقول الجاهلون علواً كبيراً.

(211/1)

باب ذكر قضاء الله في كتابه

قال الله تبارك وتعالى:؟وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا؟[الإسراء: 23]، فأخبر سبحانه أنه قضى بعبادته، وبر الوالدين. وقال: ؟وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ؟[غافر: 20]، وقال: ؟يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ؟[الأنعام: 57]، ولم يقل إنه يقضي بالباطل، وقال: ؟وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ؟[غافر: 20]، وقال: ؟إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ؟[يونس: 93]، وقال: ؟يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ؟[آل عمران: 71]، وقال: ؟بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ؟[الأنبياء: 18]، وقال: ؟وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا؟[الإسراء: 81]، فأخبر أن الحق من عنده ومن قضائه، وأن الباطل من المبطلين، ولا يكون الباطل من عند أصدق الصادقين. فبهذه الآيات ونحوها علمنا أنه لا يقضي بالباطل إلا المبطلون، ولا بالجور إلا الجائرون، تعالى الله عن ذلك رب العالمين.

(212/1)

باب ذكر قدر الله في كتابه

قال الله عز وجل: ؟وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ؟[يس: 38]، وقال: ؟نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ؟[الواقعة: 60]، وقال: ؟وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ؟[الفجر: 16]، وقال: ؟وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا؟[الأحزاب: 38]، وإنما أمر بالطاعة، ولم يأمر بالمعصية وأمره بها قضاؤه وقدره، والطاعة منسوبة إلى قضائه وقدره؛ لأنه أمر بها، والمعصية منسوبة إلى العصاة؛ لأنهم ارتكبوها بعد ما نهاهم عنها.

وإنما ذكر الله القدر في خلقه وصنعه وتدبيره وأمره ومصالح عباده في دينهم ودنياهم، ولم يجعله في شتمه والفري عليه، ولا في قتل أنبيائه وتكذيب رسله، ولا في شيء مما غضب منه وعابه، وعاب أهله وعذبهم عليه.

فبهذه الآيات ونحوها علمنا أنه لا يسخط شيئاً من تقديره، ولا يقدر شيئاً ثم يغضب منه ويعيبه ويعيب من فعله؛ لأن الحكيم لا يغضب من تقديره، ولا يعيب شيئاً من تدبيره، تعالى الله عمَّا يقول الجاهلون علواً كبيراً.

(213/1)

باب ذكر الإرادة

ثم ذكر سبحانه الإرادة في كتابه فقال: ؟يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ؟[النساء: 26]، وقال: ؟وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا؟[النساء: 27 – 28]، وقال: ؟يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ؟[البقرة: 185]، وقال: ؟وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ؟[غافر: 31]، وقال: ؟يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ؟[التوبة: 32]، وقال: ؟وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا؟[النساء: 60]، وقال: ؟وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ؟[النساء: 44]، فأخبر تبارك وتعالى أن إرادته الصلاح والرشد واليسر وأنها ليست في الظلم والغشم والكذب والفساد، فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله إذا أمر بشيء فقد أراده إرادة أمرٍ، لا إرادة جبر، وإذا نهى عن شيء لم يرده، ولم يغلب على كونه، والله لا يأمر بما لا يريد، ولا ينهى عمَّا يريد، والله غالب غير مغلوب وأنه أحكم الحاكمين.

(214/1)

باب ذكر المشيئة

وذكر الله المشيئة في كتابه فقال: ؟سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلا تَخْرُصُونَ؟[الأنعام: 148]، وقال أيضاً: ؟لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ؟[النحل: 35]، ؟وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ؟، فلما أضاف المشركون شركهم، وكفرهم، وعبادتهم لأصنامهم إلى مشيئة وأمره رد الله في ذلك عليهم، وأخبر أنه ليس كما قالوا، وأنهم يتبعون الظن ويكذبون على الله وعلى مشيئته وأمره، كما قال: ؟وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟[الأعراف: 28]، فبين أنه لا يشاء الشرك ولا يأمر به، وأمره ومشيئته في الطاعة واحدة. فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله لا

يشاء الشرك، ولا يأمر به، ولا يريده، وليس بمغلوب على شيء إلا غالب غير مغلوب، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

(215/1)

باب ذكر المحبة

وذكر الله المحبة في كتابه فقال: ؟وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ؟[البقرة: 204 – 205]، وقال: ؟إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ؟[القصص: 77]، وقال: ؟وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ؟[البقرة: 190]، والمعاصي كلها قليلها وكثيرها فساد، وقد أخبر الله أنه لا يحب الفساد. فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله لا يحب المعاصي، ولا يحب أن يعصى، تعالى عمَّا يقول الجاهلون علواً كبيراً.

(216/1)

باب ذكر الرضى

وذكر الله الرضى في كتابه فقال: ؟إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وإن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ؟[الزمر: 7]، وقال: ؟وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ؟[النساء: 108]، وقال: ؟اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ؟[محمد: 28]، وقال: ؟إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إلى الإيمان فَتَكْفُرُونَ؟[غافر: 10]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ؟[الصف: 2]، وقال: ؟كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا؟[الإسراء: 38] فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله لا يرضى المعاصي، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(217/1)

باب ذكر أعمال العباد

وذكر الله أعمال العباد في كتابه: فقال:؟يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ؟[الزلزلة: 6]، إلى آخر السورة، وقال: ؟إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟[الطور: 16]، وقال: ؟كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

رَهِينَةٌ؟[المدثر: 38]، وقال: ؟أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ؟[الجاثية: 21]، وقال: ؟وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا؟[الحديد: 27]، وقال: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟[النمل: 90]، فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن العباد يعملون خيراً و شراً، وطاعة ومعصية، وأنهم يكتسبون، ويفعلون ويجترمون، ويبتدعون، وتكون منهم حسنات وسيئات، فكل ما فعلوه فإنما يفعلونه بقوة الله التي جعلها فيهم، ومنَّ بها عليهم، لا بقوة جعلوها لأنفسهم.

(218/1)

باب ذكر مشيئة العباد وإرادتهم

وذكر الله مشيئة العباد وإراداتهم في كتابه: فقال عز وجل: ؟تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء؟[الأحزاب: 51]، وقال: ؟يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ؟[البقرة: 35]، وقال: ؟وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء؟[يوسف: 21]، وقال: ؟قُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ؟[الكهف: 29]، وهذا على الوعيد والتهدد وكذلك قوله: ؟اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ؟[فصلت: 40]، وقال: ؟يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا؟[الفتح: 15]، وقال: ؟تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ؟[الأنفال: 67]، وقال: ؟وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً؟[التوبة: 46]، وقال: ؟وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا؟[النساء: 27]، وقال:؟وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا؟[النساء: 60]، فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن العباد يريدون ما قد جعل الله لهم السبيل إلى إرادته، ويشاؤن ما قد قواهم على مشيته، غير غالبين لله، ولا خارجين من سلطانه، وهذا خلاف قول القدرية الذين يزعمون أن ليس لأحد من الخلق مشيئة ولا إرادة، مع قولهم أنهم يريدون لأنفسهم الخير، والله يريد لهم بزعمهم الشر، ولا يدعهم يصلحون، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(219/1)

باب ذكر العبادة

ذكر الله في كتابه أنه خلق الخلق لعبادته فقال: ؟وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ؟[الذاريات: 56]، وقال: ؟وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ؟[النساء: 64]، ولم يقل إني أرسلت الرسل

ليكذبوا أو يقتلوا، ولا أني خلقت خلقي لعبادة غيري. وقال: ؟اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى؟[طه: 44]، وقال: ؟وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إلا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ؟[البينة: 4]، فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله خلق الخلق لعبادته وطاعته، لالمعصيته والكفر به، كما زعمت القدرية أن الله خلق أكثر خلقه لعبادة غيره، ولم يخلقهم لعبادته تعالى عما قالوا علواً كبيراً.

(220/1)

باب ذكر المخلوق

وذكر الله في كتابه أنه لم يفعل فعل عباده، وما لم يفعله لم يخلقه؛ لأن الفعل والخلق منه واحد، وقال: عز وجل: ؟الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا؟[الإسراء: 111]، فأخبر أن ليس له شريك في شي مما خلق، فلو كان الأمر على ما زعمت القدرية أن الله خلق الكفر كله، وفِعْل الكافر كله لا يملكه الله دون الكافر، ولا يملكه الكافر دون الله، ولا يقدر العبد أن يفعله، ومتى فعله العبد خلقه الله، وإذا لم يفعله العبد لم يخلقه الله، ومحال زعموا أن ينفرد العبد دون الله، أو ينفرد الله به دون العبد، ولو كان كما يقول الجاهلون لكان الله محتاجاً إلى المخلوق في فعله، وكان كل واحد منهما محتاجاً إلى الأخر فيه، وهذا الكفر بالله العظيم، تعالى الله عن هذه المقالة علواً كبيراً.

وقد نفى الله عن نفسه الكذب، والكفر، وأضافهما إلى عباده، فقال: ؟وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟[آل عمران: 78]، فأخبر أن شركهم وكفرهم ليس من كتابه، ولا من عنده. فلو كان خلَقَه لكان من عنده، ولم يكن ليقول ليس من عندي وهو من عنده، تعالى الله عن الكذب علواً كبيراً.

(221/1)

وقال: ؟مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ؟[المائدة: 103]، وقد علمنا أن الله خلق الشاة والبعير، فلم ينفي عن نفسه ما خلق، وإنما نفى عن نفسه تحريمهم ما حرموا، وكفرهم وحكمهم بما لم يأمرهم الله به، ولم يأذن لهم فيه، فقال: ؟قُلْ

أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ؟[يونس: 59]، فلو كان ذلك التحريم، وذلك القول الذي قالوا، وجعل ذلك الشَّق الذي شقوه في أذان أنعامهم منه، لم يكن ليقول مرة ليس هو من عندي، ومرة لم أجعله، ومرة من عندهم، ومرة لم آذن لهم فيهم، وهم الذين جعلوه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال: ؟وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ؟[الأحزاب: 4]، فأخبر تبارك وتعالى أنه لم يجعل ذلك الذي جعلوه، ولم يقل ذلك القول الذي قالوه، وأنه قولهم بأفواههم، وأنه لا يقول إلا حقا، فلو كان خلقه وصنعه كما يقول من لا علم له لم ينفه عن نفسه، وينسبه إلى عباده، كما لم ينف عن نفسه خلق السموات والأرض، ولا شيئاً مما خلق، ولا نسب شيئاً مما خلق إلى فعل عباده، عز عن ذلك وتعالى علواً كبيراً.

وقال: ؟إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ؟[النجم: 23] والسلطان الحجة، فلو كان خلقها وصنعها كما زعموا لكان قد أنزل لهم بها السلطان، والله يتعالى من أن يكون لأحد عليه حجة.

(222/1)

وقال: ؟كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا؟[الكهف: 5]، وقال: ؟وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم؟[البقرة: 109]، وقال: ؟رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا؟[الحديد: 27]، فلو كان خلقها وشاركهم فيها لم يقل ؟ابْتَدَعُوهَا؟، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال: ؟إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا؟[العنكبوت: 17]، فنسب ذلك إليهم، واخبر أنهم فعلوه، ولم يقل إني خلقت الإفك معهم، ولا تفردت به دونهم كما زعم الجاهلون، فلو كان كما يقول الجاهلون، لكان للإفك خالقان، أحدهما الله، والآخر إنسان، تعالى من لا شريك له ولا خالق لخلقه سواه. وقال: ؟لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا؟[مريم: 90]، وقال: ؟إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ؟[النور: 11]، فبين تبارك وتعالى الذين جاؤا بالإفك وادعوا الولد على الله، عز وجل، ثم تبرأ من ذلك، ونفاه عن نفسه، وقال: ؟وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا؟[مريم: 90]، فاخبر أنه لم يتخذ ذلك لنفسه، فلو كان خلق مقالتهم وفعلهم كان هو الذي جاء بها وقالها، ومن وصف الله بهذا لزمه ان يزعم أن الله اتخذ الولد، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وكل ما قلنا لم يخلقه الله فإنما نعني لم يفعله، فلا يتوهم أحد علينا غير ذلك، فبهذه الآيات ونحوها

علمنا أن الله لم يخلق أعمال العباد، ولم يفعلها، ولم يشاركهم فيها، عالى من ليس له شريك، وليس كمثله شيء.

(223/1)

باب ذكر الاستطاعة

وذكر الله الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق وما خلقه من ذلك، فقال سبحانه: ؟لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا لَهَا مَاكَسَبَتْ؟[البقرة: 286]، وقال: ؟وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا؟[الطلاق: 7]، وقال: ؟وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ؟[آل عمران: 97]، فأوجب الحج على من استطاعه، ووضعه عمن لا يستطيعه. وقال: ؟وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟[التوبة: 42]، فأخبر أنهم يستطيعون الخروج ولكن لا يفعلون. وقال: ؟وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا؟[المجادلة: 3]، الآية ثم أخبر أن من لم يستطع الصيام فلا صيام عليه. وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ؟[البقرة: 283 – 284]، وإنما المعنى: (لا يطيقونه)، فأخبر أنه قد وضع عنهم الصيام، وجعل عليهم الفدية بدلاً من الصيام؛ لأن الصيام يجهدهم. وقال: ؟لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ؟[النور: 61]، فوضع التكليف عمن لا يستطيع. وقال: ؟وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ؟[الحج: 78]، وقال: ؟يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ

(224/1)

يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ؟[البقرة: 185]، فأخبر أنه لا عسر في دينه ولا ضيق، فلو كلف عبيده ما لا يطيقون ثم عذبهم لكان أضيق الضيق، وأعسر العسر.

وقال: ؟يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ؟[مريم: 12]، ولو لم يكن أعطاه القوة لم يأمره أن يأخذ بقوة. وقال: ؟نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ؟[النمل: 33] فلم يكذبهم، ولم يرد عليهم مقالتهم كما أكذب المنافقين حين زعموا أنهم لا يستطيعون الخروج، وأنهم لو استطاعوا لخرجوا، فقال عز وجل: ؟يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟[التوبة: 42].

وكذلك العفريت حين قال لسليمان: ؟أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ؟[النمل: 39]، فلم يكذبه الله، ولم يرد عليه، ولا أكذبه سليمان صلى الله عليه. وقال: ؟فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا؟[الأعراف: 145]، فلولا أنه أعطاهم القوة على الأخذ لم يأمرهم بذلك. ومثله: ؟قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ؟[القصص: 26]، فأثبتت له القوة فلم ينكر عليها أبوها، ولم يكذبها ربها. فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله لا يكلف أحداً من خلقه ما لا يطيق، وأنه قد قوى عباده على ما أمرهم به من طاعته، وبتلك القوة التي جعلها فيهم لطاعته يصير من صار منهم إلى معصيته، وبذلك علمنا أن الاستطاعة قبل الفعل.

(225/1)

باب ذكر الأطفال

وذكر الله في كتابه آيات دل فيها أنه لا يعذب الأطفال والمجانين ولا من ليس له ذنب فقال عز وجل: ؟وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً؟[الإسراء: 15]، والأطفال لم يأتهم رسول، وكذلك المجانين. وقال: ؟وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً؟[طه: 134]، فأخبر أنه لا يعذب أحداً بذنب غيره. وقال: ؟وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ؟[القصص: 59]، والأطفال فلم يأتهم رسول، ولا تلي عليهم كتاب، وليسوا ظالمين. وقال: ؟ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ؟[الأنعام: 131]، ولا غفلة أشد من غفلة الأطفال والمجانين.

فإن زعم زاعم أن الله يؤاخذهم بما علم منهم فقد كذب الله في خبره، وجوره في حكمه؛ لأنه لو رد أهل النار إلى الدنيا لعادوا كما قال عز وجل، فلم يؤاخذهم بما علم منهم إذ لم يفعلوه. وقال: ؟وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ؟[الشورى: 27]، فقد علم أنه لو بسط لبغوا، فلم يؤاخذهم بذلك، فالأطفال أجدر أن لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم، تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله لا يعذب الأطفال يوم القيامة، ولا يؤاخذهم بذنوب آبائهم، ولا بما علم منهم مما لم يفعلوه، وكذلك أطفال المؤمنين والمشركين، وأولاد الزنى والمجانين إذا أصابهم الجنون في صغرهم فلم يفيقوا حتى ماتوا، فتعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

باب ذكر حسن نظر الله لعباده

(226/1)

وذكر الله حسن نظره لعباده وأنه لا يفعل بهم إلا ما هو أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وأن الاختيار له وليس لهم عليه اختيار، إلا أن اختياره لهم في دنياهم أصوب من اختيارهم لهم، فقال سبحانه: ؟وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ؟[القصص: 68]، فاخبر أنه ليس لأحد أن يختار غير ما قضى، وأن الخيرة في قضائه وقدره، فلو قضى على قوم أن يكفروا كما زعم الجاهلون لم يكن لهم أن يختاروا غير ذلك، تعالى عما يصفون. وقال: ؟وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ؟[المؤمنون: 71]، فأخبر أن تدبيره لو كان على ما يهوى العباد لفسدت الدنيا، وأنه لا يكون صلاح الدنيا وصلاح أهلها إلا بما دبر لهم وخلق وقضى وقدر واختار. وليس في الكفر والمعاصي صلاح ولا منفعة، ولا خير في دنيا ولا آخرة، فبين بذلك أنها ليست من اختيار الله لخلقه؛ لأنها فساد في الدين، وسوء تدبير، وفاعلها ملوم مذموم، وهذا دليل على أنها من فعل المخلوقين لا من فعل رب العالمين. وقال تعالى:؟وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى؟[الضحى: 1 –4]، فاخبر أن الآخرة في وقت وفاة النبي عليه السلام كانت خيراً له من الدنيا وما فيها، وبقّاه ما كانت الحيوة خيراً له، وتوفاه حين كانت الوفاة خيراً له، لذلك قال: ؟وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى؟[الضحى: 4 – 7]. فعلمنا بهذه الآيات ونحوها أن نظر الله لخلقه أحسن من نظرهم لأنفسهم، وأن ما صنع الله هو خير، وما قضى ففيه الصلاح، وأنه لا يفعل بعباده إلا ما فيه لهم الصلاح والسداد والرشاد، وأنه يتعالى عما يصفه به الجاهلون من ذلك علواً كبيراً.

(227/1)

باب ذكر المؤمنين

وذكر الله المؤمنين في كتابه فأحسن الثناء عليهم ومدحهم مدحاً جليلاً. قال فيهم خيراً، وسماهم بأسماء حسنة، وحكم لهم بأحكام شريفة، وبين أنه لا يستحق هذا الاسم الحسن إلا من قال بقولهم، وعمل عملهم، فقال عز وجل: ؟وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ؟..... إلى قوله ؟ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ؟[التوبة: 71]، فأخبر أن هذه واقعة لهم، وأن من كانت هذه صفته وفعله استحق هذا الاسم الشريف، واستوجب الجنان والرضوان. وقال تعالى: ؟إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ؟[الأنفال: 2 – 4]، فأخبر أن هذه صفة المؤمنين، وأنه لا يستحق أن يكون مؤمناً إلا من كان كذلك، وأن المغفرة والرضوان لأهل هذه الصفة دون غيرهم، وأخبر أن الإيمان يزيد وينقص. فأي بيان يكون أبين من هذا، وأي حجة تكون أنور من هذا في تكذيب المرجية الذين زعموا أن الجبابرة الظلمة العتاة الطغاة البغاة

الفجرة – الذين إذا خوفوا بالله لم يخافوا، وإذا ذكروا به لم يذكروا – مؤمنون كإيمان جبريل ومحمد صلى الله عليهما، وأن الإيمان زعموا لا يزيد ولا ينقص، وأن الوعيد على ما وصفوه لا يثبت، فنعوذ بالله من الجهل والعمى في الدنيا. وقال الله تعالى: ؟بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا؟[الأحزاب: 47]، وقال: ؟لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ؟[التوبة:128]، وقال: ؟الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا

(228/1)

كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ؟[النور: 2]، وقال عز من قائل: ؟يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ؟[التحريم: 8] الآية، وقال تعالى: ؟يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم؟[الحديد:12]، وقال تعالى: ؟إِلا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا؟[النساء: 146]، وقال سبحانه: ؟وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ؟[آل عمران: 68]، وقال: ؟أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ؟[يونس:62]، وقال: ؟وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا؟[الأحزاب: 43 – 44]، وقال سبحانه: ؟التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ؟[التوبة: 112]، ولم يقل شيئاً من ذلك للفسقة الفجرة، ولا للعتاة الكفرة.

(229/1)

فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن اسم الإيمان فاضل شريف حسن، وأن من سماه الله مؤمنا مسلماً فقد مدحه الله مدحاً شريفاً، وأثنى عليه ثناء جميلاً، وسماه بالفاضل من الأسماء التي جعلها الله أسماء لدينه، وصفاتاً لأوليائه. وأن من استحق هذا الاسم عند الله فهو ولي لله من أهل الجنة، وأن هذه الأسماء الحسنة الشريفة لا يستحقها الفجرة الفسقة العتاة الظلمة أصحاب الزنى، وشرب الخمور، وشهادات الزور، وقذف المحصنات، وترك الصلوات، وقطع الطرق على الحجاج، وهدم المساجد، وتحريق المصاحف، وهدم الكعبة، وانتهاك حرم المسلمين، وفعل قوم لوط، ونحو ذلك من الأفعال الشنيعة القبيحة الفظيعة.

باب ذكر الأعمال الصالحة

وذكر الله الأعمال الصالحة وأخبر أنها من الإيمان والإسلام والدين فقال: ؟وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؟[البينة: 5]، ثم قال سبحانه: ؟إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ؟[آل عمران: 19]، فسمى دينه الإسلام، ثم قال: ؟وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ؟[آل عمران:85] فجعل الإسلام الدين، وقال: ؟فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ؟[الذاريات: 35 – 36]، وهم أهل بيت واحد، فوصفهم مؤمنين، ثم سماهم المسلمين، ثم قال: ؟يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ؟[الحجرات: 17]، فسمى الإسلام إيماناً، فلما سمى الله عز وجل الصلاة والزكوة الدين، وسمى الدين إسلاماً، وسمى الإسلام إيماناً، علمنا أن الصلاة والزكوة من الإيمان والإسلام والدين. فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الأعمال الصالحة من الإيمان والإسلام والدين، وبما تقدم في ذكر المؤمنين وصفاتهم وأسمائهم، وما أوجب الله لهم بأفعالهم علمنا أن من لم يدخل في مثل صفاتهم ويعمل بأعمالهم فليس منهم، ومن لم يكن منهم لم يسم بأسمائهم ولم يوصف بصفاتهم، ولم يعط ثوابهم، ولم يجاورهم في دار كرامة الله التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته ومحبته ورضوانه. وبذلك يعلم أن من ترك الأعمال الصالحة زال عنه اسم الإيمان والدين، وفيما ذكرنا من قول الله تعالى وحكمه تكذيب قول المرجية الذين يزعمون أن الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والحج، ودفع الزكوة، والجهاد في سبيل الله معه، ليس من دين الله، ولا من دين نبيه، ولا دين الإسلام والإيمان، فنعوذ بالله من إفكهم.

باب ذكر الوعيد

وذكر الله الوعيد في كتابه في أهل الكبائر من الموحدين، وأخبر أنهم يدخلون النار بأعمالهم الردية فيعذبون بها، ويخلدون فيها أبداً بما قدمت أيديهم وما الله بظلام للعبيد، فقال عز وجل: ؟وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ؟[النساء: 93]، واللعنة الخلود في جهنم لكل من قتل مؤمناً متعمداً لقتله، مستحلاً لذلك أو محرماً، ولم يخص بالآية جاحداً دون مقر، ولا كافراً دون مؤمن، ولا مستحلاً للقتل دون محرم، ولكنه أجمل الكلام جملة واحدة فهو على جملته، وليس لأحد أن يدعي أنه خاص في بعض القاتلين دون بعض؛ لأن العام لا يكون خاصاً، كما أن

الخاص لا يكون عاماً أبداً، إلا أن يكون الله هو الذي بين ذلك فيخبر أنه أراد بهذه الآية فريقاً من الناس دون فريق، وأراد بها قوماً دون قوم، فإذا جاءت الآية عامة ولم يبين أنها خاصة فهي على إرسالها وعمومها أبداً. وقال: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا؟[النساء: 10]، والقول في هذه الآية كالقول في الأولى. وقال تعالى: ؟إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وإن الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ؟[الإنفطار: 14] ألا وكل بر ففي الجنة، وكل فاجر في النار خالداً فيها مخلداً أبداً لابثاً فيها لا يخرج منها أبداً.

وقال: ؟وإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا؟[مريم: 72]، وأصحاب الكبائر المنتهكون للمحارم ليسوا بمتقين، إنما المتقون الذين يتقون الله في سرهم وعلانيتهم، يغضون أبصارهم، ويحفظون فروجهم، ويؤدون الأمانات إلى أهلها، وينصحون لكل مسلم، ويتقون الشرك والكبائر كلها، فأولئك الذين ينجيهم الله من النار.

(232/1)

وقال عز وجل: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؟[الأنفال: 15 – 16]، وهذا وعيد جاء في أهل الصلاة، وسماهم الله فيه المؤمنين، وأخبر أنه من فعل ذلك منهم غضب عليه وصيره إلى جهنم، وجعل مأواه فيها، ومن كانت النار مأواه فقد يئس من الجنة. وقال سبحانه: ؟إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[المائدة: 33]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى؟، إلى قوله: ؟لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ؟[البقرة: 264]، وقال: ؟وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ؟[المطففين:1]الآية، وقال: ؟وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ؟[المائدة: 38]، وقال: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[النور: 23]، فلم يوجب المغفرة والرحمة إلا بالتوبة والإنابة. وقال: ؟وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا؟[النور: 4] الآية، وقال: ؟سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ؟[الأعراف: 145]، ويقال إنما النار لكل صاحب كبيرة، وكل صاحب كبيرة فهو فاسق،

(233/1)

وقال: ؟وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ؟[النساء: 18] الآية.
فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن كل من أصاب كبيرة فاسق فاجر عدو الله، وأنه إذا مات مصرا عليها غير نادم ولا مستغفر فإنه من أهل النار خالداً مخلداً فيها، لا يخرج أبداً منها ولا راحة له فيها فهي أبداً مثواه جزاءً بماً كسبت يداه.

(234/1)

باب ذكر أهل الكبائر
وذكر الله براءة أهل الكبائر من الكفر وبين أنهم ليسوا بكفار فقال عز وجل: ؟الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ؟[الأنعام: 1]، فأخبر أن الكفار بربهم يعدلون، وأهل الكبائر لا يعدلون بالله إلهاً آخر. وقال: ؟قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ؟[الكافرون: 1-3]، وقال: ؟إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمان فَتَكْفُرُونَ؟[غافر: 10]، إلى قوله تعالى: ؟فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ؟[غافر: 12]، إلى قوله: ؟الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ؟، وأهل الكبائر لايشركون بالله شيئاً ولا يكفرون به، ولا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يعبدون غيره، وإنما هم قوم أصابوا الكبائر على الشهوة منهم والإسأة، وهم لها محرمون، فبذلك خرجوا من اسم الإيمان، ولم يدخلوا في اسم الكفر والجحدان، وقال: ؟بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ؟[الانشقاق:22].
فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن فسقه قومنا من أهل الصلاة ليسوا بكفار، وهذا تكذيب للخوارج المارقة الذين يشهدون على أهل التوحيد والإقرار من أهل القبلة إذا أصابوا كبيرة من الكبائر أنهم كفار بالله العظيم، خارجون من قبلة الإسلام، فنعوذ بالله من جهلهم وضلالهم.

(235/1)

باب ذكر الأحكام في الكفار
وذكر الله عز وجل حكمه في الكفار ففرق بين حكمهم وحكم أهل الكبائر من أهل الصلاة فقال: ؟فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ؟[محمد: 4]، إلى قوله تعالى: ؟حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا؟[محمد:4]، وقال تعالى: ؟قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً؟[التوبة: 123]، وقال: ؟وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ؟[الممتحنة: 10] يريد النكاح والتزويج؛ وذلك لأنه لا يحل لمؤمن أن يتزوج من الكفار، وقد أحل للمؤمنين أن يتزوجوا الفاسقة من أهل الصلاة.

وقال: ؟يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ؟[التحريم: 9]، وقال: ؟وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ؟[النساء: 18] الآية، فأخبر أنه لا يقبل التوبة من صنفين وهم الكفار الذين يموتون على كفرهم، وأصحاب الكبائر الذين يرجون التوبة حتى يحضرهم الموت فيتوبون عند ذلك.

(236/1)

فبهذه الآيات علمنا أن فسقة قومنا من أهل الكبائر ليسوا بكفار، وإنما هم فساق ظلمة معتدون، ومن تاب من ذنبه توبة نصوحاً قبل الله توبته، وأسكنه جنته، ومن مات مصراً غير تائب ولا نادم، وأخّر التوبة إلى أن يحضره الموت، لم يقبل الله منه عند ذلك التوبة، وأصلاه الجحيم. وذلك أن الله سبحانه أمر بقتال الكفار وجهادهم، وضرب رقابهم، إلا أهل الجزية، وحرم مناكحتهم، ولم يأمر بقتال أهل الكبائر ولا بجهادهم، إلا من بغي منهم على المسلمين، وجرد سيفه عليهم، أو حارب الله ورسوله، وإلا فإنما عليهم الحدود وما دون ذلك من الآداب ونحوها، وأباح للمؤمنين مناكحتهم، واتباع جنايزهم والصلاة عليهم، ويدعو فيها للمؤمنين والمؤمنات عامة، وأن يدفنوا في مقابر المسلمين، ولا يفعل شيء من ذلك للكفار. وفي هذا تكذيب الخوارج الذين يحكمون في فساق الموحدين بحكم الكفار، فيسبون ذراريهم، ويغنمون أموالهم بالجهل منهم والتعسف في دين الله، فنعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى.

(237/1)

باب ذكر المنافقين

وذكر الله المنافقين في كتابه وأخبر بصفتهم وفرق بينهم وبين أهل الكبائر من أهل الصلاة فقال عز وجل: ؟وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إنا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ؟[البقرة: 14]، وفسقة قومنا لا يستهزئون بالله ولا بالنبي. وقال الله تعالى: ؟إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ؟[النساء: 145]، وقال تعالى: ؟وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلا غُرُورًا؟[الأحزاب: 12]، وأهل الكبائر لا يقولون ذلك. وقال سبحانه: ؟إذا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ؟[المنافقون: 1] إلى قوله: ؟وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ؟[المنافقون: 8]، فهذه صفة المنافقين وليست بصفة أهل الكبائر وأهل الحدود من أهل الصلاة.

وقال تعالى: ؟إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ؟[النساء: 142] إلى قوله: ؟فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً؟[النساء:143]، ومن أهل الكبائر من يقوم إلى الصلاة نشاطاً، ولا يراءي بها أحداً، ويكثر ذكر الله، وليسوا بمرتدين، ولكنهم آثروا شهوتهم، فبعضهم يوجب الوعيد على نفسه ويؤمل التوبة، وبعضهم يدين بدين المرجية. وقال الله عز وجل: ؟يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؟[التحريم: 9]، وقال: ؟يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم؟[التوبة:64] الآية.

(238/1)

والنفاق في كلام العرب: إظهار الإيمان وإسرار الكفر. وهو الرياء؛ لأن الرياء إظهار الخير وإسرار الشر. والفساق قد أظهروا الفسوق ولم يسروه ويكتموه، فبرئوا بذلك من النفاق، كما أن المراءي إذا أظهر ما في قلبه من الشر فقد بري من الرياء، وصار فاجراً فاسقاً، وكذلك المنافقون لو أظهروا ما في قلوبهم من الكفر والنفاق لكانوا مجاهرين بالكفر، وزال عنهم اسم النفاق، ولزمهم اسم الكفر والشرك. فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن أصحاب الحدود من أهل الكبائر ليسوا بمنافقين ولا كفار، وإنما هم فساق ظلمة فجار معتدون، وفي هذا نقض قول من سماهم منافقين من أهل البدع.

(239/1)

باب ذكر المنزلة بين المنزلتين

وذكر الله تبارك وتعالى براءة أهل الكبائر من الشرك فقال سبحانه: ؟اقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ؟[التوبة: 5]، وحرم علينا أن نقتل أهل الكبائر حيث وجدناهم. وقال تعالى: ؟وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ؟[البقرة: 221]، وحرم مناكحة المشركين والكفار كلهم، وحرم نكاح المشركات والكوافر كلهن، وفرض على المسلمين قتل المشركين والكفار كلهم، إلا ما يخص أهل الجزية من أهل الكتاب في قوله: ؟قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ؟[التوبة: 29]، وأمر بقتلهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية فيتركوا عند ذلك، ويرفع عنهم السيف. وقد قامت السنة عندنا بمناكحة أهل الكبائر من أهل الصلاة نسائهم ورجالهم، وموارثتهم وأكل ذبايحهم، وإنه لا يتوارث أهل ملتين شيئاً، وأهل الكفر ملة غير ملة الإسلام، وكثير من الأمة يأكلون ذبيحة المرتد، ولا يأكلون ذبيحة المشرك، والمرتدون عندنا يفرق

بينهم وبين نسائهم، ولا تؤكل ذبايحهم، وليس هذا حكم أهل الكبائر وأصحاب الحدود. ولو كانوا كفاراً مشركين كانوا لايعدون أن يكونوا كاليهود والنصارى والمجوس والصابئين وعبدة الأصنام والمرتدين، ولو دخلوا في بعض هذه الأصناف كان حكمهم لازماً لنا، فلما وجدنا حكمهم مفارقاً لأحكام أهل الكفر كلهم علمنا أنهم ليسوا بكفار ولا مشركين، ولكنهم فساق فجار من أهل النار، إلا أن يتوبوا ويرجعوا.

(240/1)

ومن اجترى من الخوارج، فحكم فيهم بحكم أهل ملة من الملل إما الكفار، وإما اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابين، وعبدة الأوثان، والمرتدين عن الإسلام، فقد خالف بحكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن هذا لم يكن حكمه في أصحاب الحدود وأهل الكبائر من أمته وأهل دعوته، وإنما كانوا ممن يقام عليه الحدود ويسمون بالأسماءِ القبيحة من الفسق والفجور، والظلم والعدوان، ولا تقبل شهادتهم، ولا يزكوا حتى يتوبوا ويرجعوا. ولم يكونوا يسمون بأسماء الكفر والشرك ولا النفاق، ولا يحرم نكاحهم ولا موارثتهم وأكل ذبايحهم، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم، ولا توخذ منهم الجزية. فبهذه الآيات ونحوها التي تلونا، والأحكام التي وصفنا، والوعيد الذي ذكرنا علمنا أن أصحاب الكبائر ليسوا بكفار ولا مشركين ولا منافقين، وأنهم ليسوا بأبرار، ولا فضلاء، ولا أخيار، ولا أزكياء، ولا أطهار، ولا عدلا، ومن كان هكذا لم يطلق له اسم الإيمان، ولا الإسلام ولا اسم الهدى والتقوى والإحسان، لأنه قد غلب عليهم اسم الفسق والفجور والظلم والعدوان والضلال، فكانوا أهل منزلة بين منزلتين وهي منزلة الفساق والفجار التي بين منزلة المؤمنين والكافرين في هذه الدنيا، وفي هذا تكذيب أهل البدع من الخوارج والمرجية، فنحمد الله ربنا على الإحسان إلينا.

(241/1)

باب ذكر القيام بالقسط

وذكر الله تبارك وتعالى القيام بالقسط في كتابه فقال: ؟فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ؟[الأنفال: 1]، وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ؟[النساء: 135] إلى قوله: ؟خَبِيرًا؟، وقال تعالى: ؟وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ؟[المائدة: 2]، فأمر تبارك وتعالى بإصلاح ذات البين،

والقيام بالقسط في عباده وبلاده، والتعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان، وهذا لا يكون كما أمر الله به إلا بمجاهدة الباغين، ومنعهم من الظلم والعدوان. وقال سبحانه: ؟مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا؟[الكهف: 51]، وقال سبحانه لإبراهيم عليه السلام: ؟إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟[البقرة: 124]، فأخبر تبارك وتعالى أنه لا يتخذ الظالمين عضداً، وكذلك لا يتخذهم أمراء ولاخلفاء ولا قضاة ولا حكاماً، وأخبر أن عهده لا ينال الظالمين. وكذلك لا يجوز لهؤلاء أن يكونوا أئمة للمسلمين وخلفاء لرب العالمين، وشهادتهم غير مقبوله، وقولهم غير مصدق. وقال عز وجل: ؟إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ؟[ص: 26]، فلا يستحق الخلافة إلا من حكم بالحق، فإذا عدل عن حكم الله فليس بخليفة.

(242/1)

وقال سبحانه: ؟وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا؟[الكهف: 28]، وقال تعالى: ؟وَقَالُوا رَبَّنَا إنا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا؟[الأحزاب: 67-68]، وقال سبحانه: ؟اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ؟[التوبة: 31] الآية، وقال: ؟إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ؟[البقرة: 166]، وقال تعالى: ؟وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً؟[الفرقان: 27]، فنهى سبحانه عن طاعة الآثم والكافر والمتبع لهواه، وأخبر بسوء حال من أطاع المخلوق في معصية الخالق، فكيف من لم يدع لهم طاعة في معصية الله إلا أتاها، ولا معصية لله في طاعتهم إلا ارتكبها، ولا حرمة في هواهم إلا انتهكها، فأسخط الله وأرضاهم، ورضي بثوابهم عوضاً من ثواب الله، وبولايتهم بدلاً من ولاية الله، أولئك هم الخاسرون.

(243/1)

وقال تعالى: ؟كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ؟ إلى قوله ؟وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ؟[آل عمران: 110]، وقال: ؟وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ؟[الحجرات: 9]، فأمر بقتال الفئة الباغية نصاً في كتابه، وأمر أن يكونوا مع الصادقين ولا يكونوا مع الفاسقين الفاجرين. وقال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى؟[المائدة: 8]، وقال: ؟الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ؟[البقرة: 194]، وقال: ؟وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ؟[الشورى: 39 – 42]، وقال تعالى يحكي عن لقمان إذ قال لابنه: ؟يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ؟[لقمان:

(244/1)

17]، فبهذه الآيات ونحوها علمنا أن الله فرض على المسلمين أن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ويقوموا بالقسط في عباده وبلاده، ويأخذوا للمظلوم من الظالم، ويمنعوا الظالم من ظلمه، ويزيلوا الجور والبغي بما أمكنهم وقدروا عليه. ثم إنا نسال الله البلاغ لنا ولكم إلى ذلك والمعونة والقيام به هادين مهتدين، صابرين محتسبين، لا مبدلين ولا مغيرين، حتى تكون كلمة الله هي العليا على كل كلمة، وحكمه العالي على كل حكم، وتكون كلمة من جار عن سبيل الله وأحكام من حكم بغير حكم الله هي السفلى والله عزيز حكيم. ونسأل الله الرحيم أن يصلي هو وملائكته على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار، وأن يبدلهم بالخوف أمناً، وبالذل عزاً، وبالعسر يسراً، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، إنه رءوف رحيم.

تم الكلام في هذه الأصول، والحمد لله، وصلواته على سيدنا محمداً النبي وآله وسلامه.

وله أيضاً عليه السلام:

(245/1)

كتاب الجملة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وهو الذي لا يمكن الأوهام أن تناله، ولا العقول أن تختاله،

ولا الألسن أن تمتحنه، ولا الأسماع أن تشتمله، ولا الأبصار أن تتمثله. إن الله تبارك وتعالى اصطفى الإسلام ديناً، فلم يؤامر فيه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ولم يجعله بأماني الناس، ولم يتبع الحق أهوائهم، ولكنه اصطفى من ملائكته رسلاً إلى من انتجبه من خلقه، فبعثهم أنبياء يدعون الناس إلى خلع الأنداد، وترك عبادة الأصنام، وأن يخلع كل معبود من دون الله تبارك وتعالى.

ثم كلف جميع خلقه الذين حملهم الدين وكلفهم إياه، وأقام عليهم حجتهم أن يعلموا أنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، وأنه لم يزل ولا يزول، ولايتغير من حال إلى حال، ولا تقع عليه الأوهام، ولا تقدره العقول، ولا تحيط به الأقطار، ولا تدركه الأبصار، وهو اللطيف الخبير، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأنه العالم الذي لا يجهل، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب، والدائم الذي لا يَبيد، والحي الذي لا يموت، والحليم الذي لا يعجل.

وأنه الأول الذي لا شيء قبله ولا قديم غيره، والآخر الذي لا شيء بعده، وأنه القديم وما سواه محدث، وأنه الغني وما سواه إليه فقير، وأنه العزيز وما سواه ذليل، وأنه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وأنه العدل في قضائه، الجواد في عطائه، الناظر لخلقه، الرحيم بعباده، الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

(246/1)

وأنه خلق خلقه لعبادته من غير حاجة إليهم، ولا منفعة تصل إليه من عبادتهم، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ولكنه تفضل عليهم بخلقه إياهم. وأنه طوقهم وقواهم، ثم أمرهم ونهاهم، فلم يكلف أحداً فوق طاقته، ولم يعذبه على غير معصيته، ولم يمنع أحداً ما ينال به طاعته، وينتهي به عن معصيته، وينجو به من عذابه، ويصير به إلى ثوابه، ولم يفعل بعباده إلا ما فيه رشدهم وصلاح أمرهم، ولم يعب شيئاً من قضائه، ولم يقض شيئاً عابه، ولم يلم أحداً على شيء من تقديره وتدبيره، ولم يعذب أحداً على أمر خلقه وأراده، ولم يرد ما يسخطه، ولم يغضب مما كوَّنه، ولم يكره شيئاً أراده، ولم يرض الكفر لعباده، ولم يحب الفساد، ولا الجهر بالسوء من القول، ولم يأمر بما لا يريد، ولم ينه عمَّا يريد.

وأنه أمر بالطاعة، ونهى عن المعصية، وأن كل ما أمر به منسوب إليه، وكلما نهى عنه فغير مضافٍ إليه ولا منسوب.

وأنه لم يأخذ أحداً على الغِرّة، ولم يعذب إلا بعد قيام الحجة، فأثاب على طاعته، وعذب على معصيته، فلم تزر وازرة وزر أخرى في حكمه، وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف

يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى.
وأن أكرم الخلق عند الله اتقاهم لله، وأشرفهم عند الله أكثرهم طاعة له، وأنه لا ذل ولا صغر في الجنة، ولا عز ولا شرف في النار.
وأنه صادق الوعد والوعيد في أخباره كلها، وأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا خلف لوعد الله، وأنه لا يبدل القول لديه، وأنه لا يخلف الميعاد، وأن قوله أصوب الأقاويل، وأن حديثه أصدق الأحاديث.

(247/1)

وأنه أنزل على محمد كتاباً مهيمناً بلسان عربي مبين، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أحل فيه الحلال، وحرم فيه الحرام، وشرع فيه الشرائع، ثم قال: ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال: 42]، فدعا محمد الداعي إلى معرفة الله والإقرار بربوبيته، وإلى خلع كل معبود من دون الله، وإلى معرفة نبوته، والإقرار بذلك ظاهراً وباطناً حتى يشهدوا بألسنتهم وقلوبهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإلى الإقرار بما جاء به من عند الله، والضمان لأداء جميع ما فرض الله عليهم، والإيمان بملائكته ورسله، والإيمان بالموت والبعث والحساب والجنة والنار.
وأن يقيموا الصلوات الخمس في مواقيتها بحسن طهورها وإسباغ وضوئها وتكبيرها وخشوعها وقراءتها وركوعها وسجودها، والغسل من الجنابةبماءٍ طاهر وضوء وغسل إذا أمكن الماء وإلا فالتيمم بالصعيد الطيب، وصيام شهر رمضان باجتناب الرفث والفسوق والعصيان وغض البصر، والحج إلى بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلاً، والسبيل الزاد والراحلة للأصحاء البالغين.
والجهاد في سبيل الله بنية صادقة، ونصح لله ولدينه وللمؤمنين عامة، والبغض في الله وموالاة أولياء الله من دان بدين الله واعتصم بحبل الله، والمعاداة لأعداء الله من كفر بالله وفجر في دين الله.
وتحريم دماء المؤمنين وأموالهم وأذاهم، وموازرتهم على الإيمان، واستحلال دماء الكفار على ما كان يستحله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما خلا من أعطى الجزية من أهل الذمة من المجوس والنصارى والصابئين واليهود.
والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإظهار الحق بقدرة، فمن لم يستطع فلا جناح عليه.

(248/1)

وأداء الزكاة ووضعها على ما أمر الله في كتابه من قوله: ؟إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ؟[التوبة: 60] الآية، ووضع الفيء والغنيمة على ما أمر الله في كتابه من قوله إذ يقول: ؟مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ؟[الحشر: 7]، وإذ يقول: ؟وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى؟[الأنفال: 41] الآية.

وإلى تحريم ما حرم الله في كتابه من ؟الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ؟[المائدة: 3] إلى قوله: ؟بِالأَزْلاَمِ؟، واجتناب الخمور، وشهادات الزور، وقذف المحصنات، والفرار من الزحف، والبخس في المكيال والميزان، مع ما حرم الله من نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وما ذكر معهن إلى قوله:؟إِلا مَا قَدْ سَلَفَ؟[النساء: 23]، وأشباه ذلك مما قد ذكر الله من تحريم الزنى، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وإتيان الذكران من العالمين، وأخذ الرشا في الحكم، وتعطيل الحدود، والسرقة، والخيانة.

(249/1)

حكم من لم تبلغه الرسل

فإن كان في الدنيا أحد لم تأته الأخبار فعلِم أنه وما أشبهه مخلوق، وأن الله خالقه وخالق الخلق، وأنه قديم وما سواه محدث، وأنه لا شبه له ولا نظير، وأنه عدل لا يجور، وحكيم لا يظلم، فقد أصاب جملة التوحيد والعدل. فإن شبهه بعد ذلك بيسير، أو شك في أنه يشبهه شيئاً، أو ظن أنه يظلم أو يجور، فقد نقض جملته، وخرج مما دخل فيه.

وأما من أتته الأنباء والأخبار، وقامت عليه الحجة بالرسل والكتب والأنبياء، فإذا هو عرف الجملة وأقر بها، وعرف الرسول، وشهد الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقر بجميع ما يأتي به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه الحق، وضمن أداء جميع مافرض الله عليه، فهو يعد مؤمن مسلم، فإن جحد ذلك أو شك فيه بعد قيام الحجة عليه، فقد نقض جملته وصار بذلك من الكافرين.

ومن العلم بدين الله عندنا معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: معرفة من هو وممن هو، وأنه لا نبي بعده، وأنه لم يكن يعلم الغيب ولا ينتحله أحد بعده. وأن القرآن كتاب الله، وأنه أخبر فيه أن حجته بالغة، وأنها عند جميع الناس في لغاتهم معروفة، وأن أنبياء الله لم تزل تحتج بها وتقر أنها من خالقها، وأنهم جميعاً جاءوا بالبينات والآيات وهن الحجج، وأن تلك الحجج ميراث الأنبياء يورثونها أتباعهم.

وأن الله أبان رسله بالأعلام والدلالة التي لا يقدر الخلق عليها، ولا تكون إلا من فعل الخالق، كإحياء

الموتى، وإلقاء العصا فصارت حية تسعى، وكمجيء الشجرة، وكلام الذئب، وأن هذا ما لا يعطى أحد إلا الأنبياء والرسل.

(250/1)

وأن أتباع الرسل إنما يخبرون عن حجج الرسل، ويدعون إليها الناس، ويحتجون عليهم بها. وأن فيما احتج الله به أن جعل كتابه عربياً مبيناً بلغة العرب وكلامهم، وجعله مع ذلك لا يشبه الشعر ولا الرسائل ولا الخطب ولا السجع، ولكنه أبانه من ذلك كله، فلا يطيق أحد أن يأتي بمثله.

وأن الله قد أقام سنة نبيئه فيما لم يبينه في الكتاب مفسراً مشروحاً، من عدد الصلاة وأوقاتها وحدودها، وتفسير الحج والعمرة، وأن ذلك لا يكون إلا إلى الكعبة، وأنه جعل الزكاة في الأموال تؤخذ من الأغنياء وتوضع للفقراء.

وأنه لا يحل مال أحد من أهل الصلاة إلا بطيب من نفسه، أو بالميراث، أو بفرض يلزمه، أو بحق يجب عليه، وإن فجروا فقتلوا بالحدود، مالم يخرجوا من الملة وحرم منهم الدماء وجميع الحرمات، إلا ما أحل الله من إقامة الحدود على من أصابها ممن أقر على نفسه في صحة من عقله، أوقامت عليه بذلك بينة على ما بينه الله في كتابه وسنة رسوله عليه وعلى آله السلام.

وأن القصاص سواء بين أهل الملة جميعاً فيما بين شريفهم ووضيعهم، وأبرارهم وفجارهم، مالم يخرجوا من الملة.

وأن الله أوجب عليهم الامتناع من الظلم إذا قدروا، ومعونة المظلومين إذا استطاعوا، ولا يتعدوا في ذلك ولا في غيره حد الله.

وأن الصيام في شهر معلوم، شهر رمضان، سوى ما يجب لله من كفارة اليمين والظهار، وقتل الخطأ وفي التمتع بالعمرة إلى الحج إذا لم يجد الهدي، وفيمن أوجب على نفسه نذراً، وفيما أوجب على المسافر والحائض من قضاء ما فاتهم من شهر رمضان، وكذلك المريض ثم يبرأ، وفيما يتقون ويأتون من الطعام والشراب والنكاح، ومن الغسل من الجنابة.

وأن من الكتاب ناسخاً ومنسوخاً نحو أمر القبلتين، وإمساك النساء الفواجر في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً.

(251/1)

وأن من تعمد أن يخبر بما يعلم أنه لم يكن فيقول إنه قد كان، أوبما يعلم أنه لا يكون فيقول إنه يكون، أو يقول قد كان فهو كاذب، أو بما لا يعلم أو بما لا يفعل فهو جاهل، وأن الله من ذلك بري.

وأن شرائع الأنبياء كانت مختلفة، وأنها على اختلافها يجمعها اسم الدين والطاعة، والإيمان، والهدى، والتقوى، والبر والإحسان، وأن بعضهم لم يقصص علينا باسمه، ولم يبين لنا في كتابه، ولا سمى نبياً بعينه، وأنَّ عِلْمَ ما جهلنا من ذلك كان ديناً وإيماناً فرضه الله على تلك الأمم ووضعه عنا.

وأنه لا يجوز لمدع دعواه إلا ببينة، فمن ادعا مما في يد غيره مما لا يدرك علمه إلا بالشهود لم يعط ما ادعا إلا بشاهدي عدل، أو بإقرار من المدعى عليه للمدعي. ثم بين سنته في الشهود فأبطل شهادة كل فاسق منهم أو خصم، وأن بعض الشهود ربما شهدوا بالزور والذي لا يعلمه إلا الله، وأن على الحكام أن يمضوا الشهادة مع جهلهم بما يعيب به الشهود، إلا أنَّ الله يعلم أنهم قد شهدوا على باطل.

وأنَّ أفضل الدين كله العلم بالله تبارك وتعالى وبدينه، وأنه لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل إلا بعلم في أثبات اسم ولا ثواب، وذلك أن من أقر بالحق ولم يعمل به لم يستحق الأسماء الزكية، ولا ثواب أهلها، ومن ضيع العلم بالله وبدينه لم ينتفع بشيء من عمله. وأنَّ كلهم متعلم، وكلهم محتاج إلى العلم مفضل له ولأهله، وذام للجهل عايب له ولأهله.

وأنهم لم يزالوا يتقربون إلى الله بالقول السديد، والعمل الصالح، ويعبدونه بذلك، ويدينون له بذلك.

وأنَّ اسم دينهم الذي تعبدهم الله به ودانوا به الذي بلغ بالإيمان والإسلام والتقوى والبر ونحو ذلك.

(252/1)

وأنَّ قد حرم الله على المسلمين أنْ يزكوا أنفسهم، وأنَّ قد أوجب عليهم أن ينسبوا جميع المسلمين إلى الإيمان والإسلام، وأنهم قد كانوا يثبتون لهم اسم الإيمان ثم لا يعلمون سرائرهم، وأنهم قد كانوا يتولى بعضهم بعضاً على أنهم سمعوا منهم بعض ذلك وإن لم يروا منهم عملاً، وكذلك يفعلون فيمن يرونه يعمل وإن لم يسمعوا منهم قولاً، فإن الاسم الذي قد ثبت عندهم على الظاهر وإن لم يعلموا الباطن، وأنه لا يحصي أحد منهم جميع ما فرض الله، فإن الله لم يكلفهم إحصاءه ولا إحصاء أهله.

وأن دينهم أنهم يرجون ثواب الله، ويخافون عقابه.

وأنه لا خوف على أولياء الله في الآخرة ولا هم يحزنون، وأن أولياء الله المؤمنون.

وأن الله قد استحق ولاية وليه، وعداوة عدوه على جميع العالمين الذين قد قامت عليهم بذلك حجة الدين، وأن من لم تنفع ولايته وتضر عداوته معيب عندهم منقوص، وأن الله أحق أن تنفع ولايته وتضر عداوته من جميع الخلق.

وأن الأنبياء لم تزل مستحقة لثواب الله منذ بعثها الله، وأنها لم تكفر قط، ولم تفسق، ولم تُقِم على

شيء من الذنوب بعلم ولا بعمد، وربما أذنبت على الظن وطريق النسيان، وأن ذنوبها صغائر مغفورة، وأنها لا تأتي الكبائر، وأن من قذف الأنبياء بالكفر والكبائر فهو أولى بالكفر.
وأن المؤمنين مقرون جميعاً على أنفسهم بالذنوب، وأنهم ينتفون من الكفر والفسق، ويكرهون أن ينسبوا إليه.

(253/1)

وأن الله قد ميز بين صغائر الذنوب وكبائرها، فلم يجعل السبة والكذبة والنظرة كالقتل والزنى والربا والسرقة وأشباههن، ولم يجعل القتل وأشباهه كالكفر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والكتاب وأشباه ذلك. وأنه قد خالف بين أحكامهن وأسمائهن وأسماء أهلن. وأنهم لا يشهدون على ذنب بعينه أنه صغير مغفور، إلا أن يكون الله قد سمى من ذلك شيئاً في الكتاب بعينه، أو سماه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ما خلا ذنوب الأنبياء عليهم السلام. وأنهم لا يزالون يفسقون أهل الكبائر من أصحاب الحدود، ويبغضونهم، ويشتمونهم، ويحبون أهل الخير وإن أذنبوا على الظن والنسيان، مالم يخرجوا إلى الكبائر. وأنه لا ينبغي لأحد أن يشهد على ذنب بعينه أنه صغير مغفور. وأنهم لم يزالوا يعظمون القتل والزنى والسرقة ونحوهن ممن فعله. وأن معنى الكثير والقليل والعظيم واحد. وأن الجنة دار للمتقين، وأن النار دار للفاسقين. وأنهم لا يزالون يبغضون من اطلعوا على فسقه، وإن كان يستغفر حتى يظهر التوبة النصوح. وأنهم يستحبون أن يكتم كل امرء على نفسه وإن أصاب حداً، وأن التوبة عندهم مقبولة ممن حد وممن لم يحد. وأن من سمى أهل الحدود كافرين ثم حكم عليهم بحكم الكفار عابوه، ومن سماهم مؤمنين وحكم لهم بحكم المؤمنين عابوه وعنفوه. وأن اسم الملة اسم يجمع جميع المنطوين إلى الإسلام وإن كان فيهم فجور. وأن الله قد بين حكمه في جميع الكافرين من مشركي العرب من أهل اللات والعزى، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمتنقلين من جميع أصناف أهل الكفر من دين إلى دين، والمرتدين عن الإسلام بعد إظهار الدين، وبين حكمه في المؤمنين والفاسقين والمنافقين والمستسرين. وأنه لم يكن يقاتل أحداً من المشركين حتى يدعوه، وأنه قد أبان ذلك كله وفصله، وأنه لا يوجد في زمن النبي عليه السلام كافر ليس بمشرك. وأنهم لا يعتمدون أحداً ممن أقر بالنبي عليه السلام وعلى آله بكفر إلى يوم

(254/1)

القيامة أويلحق بالمرتدين. وأن النفاق استسرار بالطعن في دين الله ودين الرسول، وأن الله قد أقام حجته فيما فرض من دينه بتحريم الشك فيه والإنكار له جميعاً.

وأن التقية جائزة فيما حمل الناس عليه وهم له كارهون، يخافون القتل والمثلة، وذلك فيما لا يرجع ضرره على أحد من العالمين. وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد كان يعذر نفسه وغيره فيما لم يأت جبريل من الدين مما لم يُعرف إلا بالسمع مما لم يأته جبريل عليه السلام حتى يأتيه به، وأنه لم يكن يترك أهل دعوته يظهرون قبيحاً، وأنه لم يكن يكتم شيئاً من الدين الذي أمره الله بإظهاره، ولا يعطى فيه تقيه، وأنه لم يزل له مظهراً يأمر أتباعه بإظهاره والدعاء إليه.

وأن الشيطان يحب دفن الدين ويدعو إلى إماتته. وأنه لا يجوز تغيير شيء مما أثبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، وأن الدنيا فانية، وأن الآخرة باقية الأبد.

وأن الملائكة والجن والإنس أجناس شتى، وأن الملائكة أفضل برية الله، وأنهم مقربون في كل خير، مقربون في كل منزله، مفضلون في كل ذكر.

وأنه جعل من دينه مؤقتاً محدوداً، صلاة وصياماً ونحوهما، وجعل منه متمهلاً فيه لا يدرك حده: بر الوالدين، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونحو ذلك من الأمور التي تعرف عند المشاهدة.

وأن الله لا يلبس حكمه، ولا يخلف قوله. وأن من دينهم التثبت فيما غاب عنهم حتى يجيئهم اليقين من تواتر الأخبار وتظاهرها.

وأن الله لا يظلم عباده شيئاً، ولا يعذب إلا بعد إنذار، ولا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يحملها إلا طاقتها، ولا يفرض طاعته إلا على أهل الصحة والسلامة والعقل والقوة، وأنه دعا جميع عباده المكلفين إلى دينه، وأنه يحب طاعته، ويبغض معصيته.

(255/1)

وأنه جعل بعض الأعمال أفضل من بعض، وبعض الأقاويل أفضل من بعض، وبعض العلم أفضل من بعض. وأن من العلم غامضاً خفياً، ومنه واضحاً جلياً، وأن جهل بعض ذلك واسع، وجهل بعضه ضيق.

وأنه لا يُنزل أحد من الناس كلهم منزلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تصديق له ولا في تكذيب، ولا شك في قوله. وأنهم يعملون بالأخبار المجتمع عليها، ويشكون في القول الشاذ، وإن روي عن النبي عليه السلام.

وأن الله افترض اتخاذ الإمام العادل إماماً ليؤتم به، وسمي خليفة ليخلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أعماله. وأنه من خالف حكمه حكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفارقه فليس بإمام، ولا

خليفة، ولكنه متبر ظالم.
وأن الأخذ بجميع ما أجمعوا عليه صواب بر وهدى، وأن الترك لما أجمعوا عليه ضلال وخطأ.
فهذه صفات جملة الدين وكثير من تفسيرها في التوحيد وغيره، ونرجوا أن تكون هذه الجملة تدل على الصواب كله، وتنفي الخطأ كله، وأن نكون قد ذكرنا فيها أموراً قد أقام الله بها حجته على جميع العالمين، في جميع ما هم ذاكرون من خطأ أو صواب، وأن يكون قد دخل في هذه الجملة جميع الاختلاف، وقول أهل البدع، فمن زعم أن هذه الجملة على غير ما ذكرنا، فليعرض جميع ما قال الناس عليها، فما وافقها قبله، وما خالفها تركه، فإنا نرجو أن لا يخرج من ذلك شيء أبداً إلا أدرك صوابه وخطاه من هذه الجملة إن شاء الله.
ومن ظن أن شيئاً من هذه الجملة ليس بحق فليعرضه على كتاب الله وسنة رسوله عليه وآله السلام وفطرة العقول، فمن فعل بما أمره الله به، وانتهى عمَّا نهاه الله، ودان بذلك فله ما لنا وعليه ما علينا، نتولى كل مهتد مضى قبلنا، وسيرتنا في ولينا كسيرة نبينا عليه وعلى آله السلام في ولينا، وسيرتنا في عدونا كسيرة نبينا في عدونا.

(256/1)

الله ربنا، ومحمد نبينا، والقرآن إمامنا، والإسلام ديننا، والكعبة قبلتنا، والموت غايتنا، والحشر يجمعنا، والموقف موعدنا، وحكم الله يفصل بيننا، والجنة والنار أمامنا.
نسأل الله الجنة برحمته، ونعوذ بالله من النار بعفوه، إلى هذا ندعوا من أجابنا ونجيب من دعانا، هذا ديننا ونحلتنا، والطيبون من آل محمد قادتنا، فمن وافقنا على هذا فهو ولينا، ومن خالفنا فهو عدونا، والله ولي المؤمنين، وعدو الفاسقين.
تم الأصل والحمدلله وصلى الله على محمد وآله
وله صلوات الله عليه:

(257/1)

كتاب أصول الدين
بسم الله الرحمن الرحيم
قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:
سألت يا بني، فهمك الله ونفعك، عما ندين الله به، ولا يسع أحداً من المكلفين جهلُه، من معرفة

الأصول من توحيد الله وعدله، وإثبات وعده ووعيده، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإثبات الإمامة في المصطفين من آل نبي الله عليه السلام:

(258/1)

التوحيد

فإنا ندين بأن الله واحد أحد، ليس كمثله شيء، ولا له ند من الأشياء ولا ضد؛ لأن الند لما يناده مكاف، والضد لما يضاده مناف، وليس من الأشياء ما يكافيه، ولا يضاده فينافيه. وأنه ليس بجسم محدود، ولا شبح مماثل، وأنه بكل مكان على غير اجتنان، ولا كينونه، وكذلك قال تبارك وتعالى: ؟وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ؟[الحديد: 4]، وقال: ؟مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا؟[المجادلة: 7]، وقال عز وجل: ؟وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؟[ق: 16]، وقال: ؟وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ؟[الزخرف: 84]، مع آيات كثيرة تدل على أنه لا يحتاج إلى المكان، وأنه بكل مكان مدبر، وأنه كان قبل كل مكان وحين وأوان، وأنه كان ولا سماء ولا أرض، ولا عرش ولا كرسي، ولا كلام ولا صوت، ولا حروف. وأنه كان قبل التوراة والإنجيل والقرآن، وأن القرآن أنزله على نبيه عليه السلام، وأنشأه، وخلقه، ووصله، وفصله، وألفه، وأحدثه، وأنه يقدر أن يذهب به، ويجيء بغيره، وأنه محفوظ، وأن الله حافظه، وأنه يقدر أن يجي بمثله، كما قال سبحانه: ؟مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا؟[البقرة: 106].

(259/1)

وأن الله لامثل له ولا نظير، وأن الأبصار لا تدركه في الدنيا ولا في الآخرة؛ وذلك أن كلما وقع عليه البصر فمحدود ضعيف ذليل، محتاج، محوي، محاط به، له كل وبعض، ولون وطعم، ورايحة ومحسة، وفوق وتحت، ويمين وشمال، وخلف وأمام. وأن الله لا يوصف بشي من صفات المخلوقين؛ لأنه غني قديم، وهكذا قال: ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ؟[الشورى:11]؛ لأن الله تبارك وتعالى ليس بشخص، فتجاهره الأبصار؛ ولا هو صوت فتوعية الأسماع؛ ولا رائحة، فتشمه المشام؛ ولاحار ولابارد، فتذوقه اللهوات؛ ولا لين ولا خشن فتلمسه الأيدي؛ لأن الله سبحانه خلق الأيدي وما لمست، وخلق الأبصار وما جاهرت، والأسماع وما وعت، والمشام وما شمت، واللهوات وما ذاقت، فهذه الخمس الحواس المدركات كلها مخلوقات مجعولات محدثات، ليس فيها شي يشبه الله، ولا الله

عز وجل يشبه شيئاً منها؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ؟لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟[الأنعام: 103]؛ لأن ما وقع عليه البصر فمحدود ضعيف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(260/1)

العدل والحكمة

وندين بأن الله عز وجل عدل في قضائه، جواد في عطائه، رحيم بعباده، ناظر لخلقه، لايكلفهم ما لا يطيقون، ولا يسألهم ما لا يجدون، ؟إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا؟[النساء: 40]، وأنه لم يخلق الظلم ولا الجور، ولا الكفر في العباد، ولم يرد الظلم والفساد، ولا الجهر بالسوء من القول. وأنه لا يشاء قتل أوليائه، ولا تكذيب رسله. ولا يقضي ولا يقدر شتم نفسه، ولا الفرية عليه. وأن من فعل ذلك، أو أراد معه الصاحبة والولد فغير حكيم ولا عليم.

(261/1)

وأن الله رحمن رحيم حكيم عليم لا يجوز عليه العبث، فكيف يمنع عباده من الإيمان ثم يقول في كتابه: ؟وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ؟[الإسراء 64]، ؟وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؟[النساء: 39] ؟فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ؟[الانشقاق: 20]؟! أو يأمرهم بالهدى ويصرفهم عنه، ثم يقول ؟أَنَّى تُصْرَفُونَ؟، ويخلق فيهم الكفر ثم يقول: ؟لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا؟[مريم: 90]!! بل نقول سهّل ربنا لعباده السبيل، وأقام لهم الدليل، وأرسل إليهم الرسول، وأنزل عليهم القرآن، وجعل فيه الشفاء والبرهان، أحل فيه الحلال، وحرم فيه الحرام، وأقام الحدود والأحكام، ثم مكنهم مما طوقهم، ثم دعاهم جميعاً إلى الإيمان به، ثم أمرهم ونهاهم، ثم آمنهم من ظلمه، ورغبهم في جزيل ثوابه، ولم يرد منهم غير ما به أمرهم، ولم يزجرهم وينههم عما يريده منهم ويشاءه، لما في ذلك من خلاف الحكمة والرحمة، كما قال سبحانه: ؟وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا؟[الأعراف: 180]، ويقول: ؟إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ؟[التوبة:117]، وقال: ؟أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إلا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى؟[النجم: 39]، ؟وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ؟.

(262/1)

صدق الوعد والوعيد

وندين بأن الله صادق في أخباره كلها، وأنه لا يخلف الميعاد، ولا يبدل القول لديه.

وأن أهل الكبائر من أهل ملتنا إن لم يتوبوا من ذنوبهم، وخرجوا من الدنيا مصرين عليها، غير نادمين ولا مستغفرين، أنهم من أهل النار، خالدون مخلدون، لا يخرجون منها، ولا يغيبون عنها، بل يبقون فيها أبداً سرمداً، لقوله: ؟وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ؟[النساء: 14]، ولقوله: ؟إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وإن الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ؟[الانفطار: 14]، ولقوله: ؟إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟[النور: 23]، والملعون في الآخرة لا يدخل الجنة؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار عمل وبلوى. ولقوله: ؟وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا؟[النساء: 30]، وبمثل آية الفار من الزحف، وبمثل آية القاتل، وبمثل آية آكل أموال اليتامى ظلماً، فبهذه الآيات علمنا أن الله يعذب أهل الكبائر بالنار ثم يخلدهم فيها أبد الأبد.

(263/1)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وندين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن نصر المظلوم والأخذ على يد الظالم فرض لازم، وحق واجب، لأن في ترك الأمر بالمعروف للحق إماتةٌ، وفي ترك النهي عن المنكر للباطل حياةٌ، ولذلك أوجبه الله على عباده، وفرضه عليهم فرضاً، بكل ما أمكنهم ولذلك قال رب العالمين:

؟وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ؟[المائدة: 2]، وقال: ؟فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ؟[الحجرات: 9]، وقال: ؟وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ؟[التوبة:71] مع آيات كثيرة تدل على ما قلنا، وتصحح ما شرحنا.

(264/1)

إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام

وندين بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه خير هذه الأمة بعد نبيها عليه السلام؛ لطاعته لربه، وبذله لمهجته واستغراقه لقوته في طاعة الله وطاعة رسوله عليه السلام، وقرب قرابته من رسول الرحمن، وعلمه بما أنزل الله من القرآن، وزهده في هذه الدنيا، ولأقوال رسول صلى الله عليه وآله المشهورة المعلومة فيه يوم غدير خم: ((من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، واخذل من خذله، وانصر من نصره.))، ولقوله: ((علي مني بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.)) ، ((وأنت قاضي ديني ومنجز وعدي.))، مع ما قد خصه الرسول عليه السلام من علم ما يكون من أمته من الأحداث والفتن، وما كان علي ينادي به من قصة المرادي الذي قتله، وغير ذلك من الفرقة القاسطة والناكثة والمارقة، مع إجماع أمتنا على أن خلال الخير كلها كانت مجتمعة فيه،مفترقة في غيره، وذلك أنهم أجمعوا أنه كان أحد السابقين، وأحد العلماء، وأحد الزهاد، وأحد الباذلين لأنفسهم، ولم يجمعوا على أن هذه الخصال اجتمعت في غيره، فتبين فضله عليهم.

ثم كان ابن عم محمد عليه السلام، وأبا السبطين الحسن والحسين، وزوج فاطمة صلى الله عليهم أجمعين، وقد أجمعوا جميعاً أن علياً صلى الله عليه كان يصلح للخلافة موضعاً لها يوم قبض الله نبيه عليه السلام، واختلفوا في غيره فالحق ما أجمعوا عليه، والباطل ما اختلفوا فيه.

(265/1)

الخلاف بين الأمة فيمن تكون فيهم الإمامة

وجميع أهل الصلاة عندنا خمسة أصناف: الشيعة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجية، والعامة.

فقالت المعتزلة، والخوارج: الإمامة جائزة في الناس كلهم، ما صلحوا بأنفسهم، وكانوا عالمين بكتاب الله ربهم، وسنة نبيهم عليه السلام.

وقالت المرجئة، والعامة: الإمامة جائزة في قريش، محظورة على غيرهم.

وقالت الشيعة: الإمامة جائزة في آل محمد، محظورة على غيرهم.

فإذاً ذلك إجماع من الفرق كلها في آل محمد، وذلك أن من أجازها في قريش فقد أجازها في آل محمد؛ إذ كانوا خير قريش وأوسطهم داراً. فأما المعتزلة والخوارج فشهادتهم ساقطة إذ ادعوها لأنفسهم، وفي السنة أن لا تجاز شهادة الجار إلى نفسه. فجميع هذه الفرق قد أقرت للشيعة بجواز هذا الأمر في آل محمد، وأنكرت الشيعة أن تكون جائزة في غيرهم، فالحق ما أجمعوا عليه، والباطل ما اختلفوا فيه.

وأجمعت الأمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل

الجنة وأبوهما خير منهما.))، وقال هما ((إمامان قاما أو قعدا.)). وأجمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي؛ إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.)) فكما لا يجوز ترك التمسك بالكتاب، كذلك لا يجوز ترك التمسك بالعترة؛ لأن الكتاب يدل على العترة، والعترة تدل على الكتاب، ولا يقوم واحد منهما إلا بصاحبه. وقال عليه السلام: ((مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى.))، مع ما جاء فيهم، وفي أبيهم، من تواتر الأخبار، وتظاهرها، عليهم صلوات الله ورحمته وبركاته.

(266/1)

فهذه الأصول هي التي ندين الله بها، فمن دان بها فهو أخونا ولينا. ندعوا إليها من أجابنا، ونجيب من دعانا، هذا ديننا ونحلتنا، والطيبون من آل محمد قادتنا، فمن وافقنا فهو ولينا، ومن فارقنا عليه حاججناه بالمحكم من كتاب الله، ورددناه إلى المجمع عليه من سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن قبل ذلك كان له ما لنا، وعليه ما علينا. نتولى كل مهتد مضى قبلنا، وسيرتنا في ولينا وعدونا سيرة نبينا. الله ربنا، ومحمد نبينا، والقرآن إمامنا، والإسلام ديننا، والموت غايتنا، والحشر يجمعنا، والموقف موعدنا، وحكم الله يفصل بيننا، فمن أقر بما أقررنا به وجبت ولايته ومؤاخاته، ومن أبى إلا المخالفة للحق، والمعاندة للصدق، كان الله حسيبه وولي أمره، والحاكم بيننا وبينه، وهو خير الحاكمين.

تمت الأصول والحمدلله، وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم.

(267/1)

مسألة في العلم والقدرة والإرادة والمشيئة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

سألت، أكرمك الله، عمَّا يقال لمن سأل عن علم الله وقدرته وإرادته ومشيئته فقال: هل بينهما في المعنى اختلاف أم معناهما مجتمع على الائتلاف؟

واعلم هداك الله أن ليس بين ذلك شيء من الاتفاق بل هما على غاية ما يكون من الافتراق.

والحجة في ذلك أن علم الله وقدرته صفتان قديمتان أزليتان دائمتان - وليس قولنا صفتان قديمتان

أن مع الله صفة يوصف بها، ولا أن ثم صفة ولا موصوفاً، ولا أن ثم شيئاً سوى الله عند ذوي العقول مجهولاً ولا معروفاً، وإنما نريد بقولنا صفتان أنهما غير محدثتين ولا مكونتين، وأنهما الذات والذات هما، فهو سبحانه العالم بنفسه، القادر بنفسه، فتعالى من ؟لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟[الشورى:11] – وأن إرادته ومشيئته حادثتان محدثتان.

(268/1)

واعلم هُديت أن معنى الإرادة شاء، وأن معنى شاء أراد، ومعنى أراد هو شاء، وأن معنى المشيئة من الله تعالى للشيء هو إحداثه وخلقه، لا فرق بينهما في الله تبارك وتعالى، ولا يقال لله إنه شاء أن يخلق ثم خلق من بعد المشيئة، فيفصل بين المشيئة وبين الشيء بمهلة بعد، قلّت أم كثرت، وإنما يقع الفرق بين المشيئة وبين الشيء على الآدميين، ومن لا يحيط علمه بعاقبة فعله من المخلوقين، فيحتاج ويضطر إذا شاء الشيء أن ينويه ويضمره، ثم ينتظر به من الأوقات ما يصلح له صنعه فيه من الليل والنهار، وانتظار حركة منه أو قعود أو قيام، أو انتظار من يأمر من الأعوان، ثم لعله أن يعجز عمَّا أراد، أو يعجزوا هم، ولا يتهيأ له ولا لهم، والله تبارك وتعالى محيط بعلم الأشياء، لا يعزب عنه شيء من الغيوب، ولا يعجزه مستصعب من الأمور. إذا شاء شيئاً كان بلا كلفة ولا اضطرار، وليس المشيئة منه بالنية والإضمار، ولا بالمهلة والانتظار، مشيئته للأشياء إيجادها، وإيجادها مشيئته، فتبارك من كوَّن الأشياء بقدرته، ودل على نفسه بما ابتدع من فطرته.

فإن قال: قد فهمنا ما ذكرت وشرحت من الاختلاف بين العلم والقدرة وبين الإرادة والمشيئة، فما تنكر أن يلتئم هذا كله في أحد المعنيين، في أفضلهما وأقواهما وأكبرهما وأعلاهما؟

(269/1)

قيل له: أنكرنا التئام ذلك كله على معنى واحد من أحد هذين الوجهين؛ لأنا علمنا أنا لو حملنا الإرادة والمشيئة على معنى العلم والقدرة، وقد علمنا وصح في معقولنا أنهما غير محدثين، ولا مخلوقين، وأن الله القادر العالم بنفسه، لوجب علينا أن نقول إن المشيئة والإرادة غير محدثتين، ولا مخلوقتين وأنهما صفتان للقديم الواحد الدائم الماجد؛ لأنه لا يكون قديماً إلا الله وحده لا شريك له، فلو قلنا ذلك، لوجب علينا أن نقول: إن الله سبحانه قد شاء إغراق فرعون وقومه قبل خطيئتهم وعصيانهم له، فتعالى عن ذلك علواً كبيراً، ولوجب علينا أن نقول: إن الله قد شاء أن يسخط على إبليس، وشاء إخراجه من الجنة قبل خطيئته وعصيانه له. وقد بين وأخبر ربنا عن نفسه أنه لا يشاء

عقوبة عبد من عبيده إلا من بعد الإعذار والإنذار. فإنا لوحملنا العلم والقدرة على معنى الإرادة والمشيئة، وقد علمنا وصح عندنا أنهما حادثتان، ولو قيل بذلك، لكان يلزم من قال به أن يكون قد ألحق بالله تعالى عن ذلك الجهل في الدهر الذي كان قبل تكوين العلم وإحداثه، ولكان يلحق بالله في قوله العجز، إذ كانت القدرة حادثة فيما كان قبل تكوين القدرة وإحداثها.

فسبحان المتعالي عن قول القائلين، وعن كل وصف الواصفين، فقد بان ولله الحمد وصح لذوي العقول والفطن والأفهام ما سميناه من الاختلاف، وتباعد الائتلاف.

تمت المسألة بحمد الله ومنه

(270/1)

كتاب الرد على سليمان بن جرير

بسم الله الرحمن الرحيم

(271/1)

حدوث صفات أفعال الله تعالى

ذكر الهادي عليه السلام ومن وافقه من العلماء - ما خالفه في ذلك إلا سليمان بن جرير وهو ممن يدعي العلم وهو من المجبرة - أن الرضى والسخط والولاية والمحبة من صفات الفعل، وأنها محدثة، وأنه تعالى لا يسخط ولا يرضى ولا يوالي ولا يعادي إلا عند وجود الأفعال من العبد التي يستحق بها ذلك.

ذكر عن سليمان بن جرير أنه قال: إن الله تعالى لم يزل ساخطاً على من علم أنه يعصيه، وراضياً على من علم أنه يطيعه، موالياً من لم يوجد من أوليائه، معادياً لمن هو معدوم من أعدائه، وأن العبد قد يكون مؤمناً والله تعالى معاد له ساخط عليه، إذا كان ممن يكفر في آخر عمره، ويكون راضياً عن الكافر موالياً له محباً له، إذا كان يؤمن بالله في آخرعمره.

قال الهادي إلى الحق عليه السلام:

واعلم أن السخط والرضى والولاية والمحبة كما ذكرنا من صفات الأفعال، والسخط: اسم لكراهية الفعل إذا وقع لوجود المكروه، وكذلك الرضى هو: اسم لإرادة الفعل إذا وقع من العبد على الوجوه المرادة. وكذلك يوصف من أراد فعل غيره، ووقع على مراده وعلى ما أراد بأنه راض عنه؛ ويوصف من كره فعل غيره، ووقع على ما كرهه بأنه ساخط له. وكذلك يوصف العبد بما دخل تحته من

الأفعال. وقد يقال في الفعل الواحد إن زيداً راض به وعمراً ساخط له إذا أراده زيد، وكرهه عمرو. وإذا لم تكن حقيقة السخط والرضا ما ذكرنا، لم يمتنع أن تكون هذه الصفة من صفات الذات، وإذا كانت كذلك، فكان من علم أنه يطيعه مرضياً عنه وهو في حال كفره، فإذا كان العلم هو الموجب للطاعة والمعصية فلا مخرج للعبد إذا من ذلك.

(272/1)

قال الهادي عليه السلام: وقد يكون العبد في المعاصي الجليلة فيكون الله ساخطاً عليه معادياً له، ثم ينتقل إلى الطاعة فينتقل عليه ضد ذلك من الرضا، والولاية، والمحبة والمعونة له، وقد يكون في طاعة الله عز وجل فيكون الله راضياً عليه، ثم ينتقل إلى المعاصي فينتقل عليه ضد ذلك الرضى وهو السخط.

واعلم أن الرضى بالفعل هو غير الرضى عن الفاعل، وإنما يرضى عن الفاعل إذا أتى كمال مراده منه، ولأن العبد قد يرضي الله في جميع أفعاله، ويسخطه في وجه. تبيين ذلك أن الصغيرة الواقعة من الأنبياء عليهم السلام مسخطة لله، وإن كان سائر أفعالهم مرضية له. وتبيين ذلك أيضاً أن الواحد منا قد يكون مرضياً لغيره في وجه، ومسخطاً له في آخر. وكذلك في طاعة الكافر وكفره. فإذا صح ذلك لم يجز متى رضي تعالى ببعض أفعال المكلف أن يكون راضياً عنه؛ لأن الرضا ههنا معلق بالفعل. وإنما يتعلق الرضى بالفاعل إذا أرضى الله عز وجل في أفعاله على قولنا في استحقاق المدح والثواب، فإذا كان العبد مسخطا لله في وجه ومرضياً له في وجه، قيل إن الله راض ببعض فعله ساخط لبعضه، ولم يتعلق السخط والرضا هاهنا بالفاعل، فإذا علق بالفاعل كان محالاً أن يوصف الله بأنه راض على من هو ساخط عليه، فأما الولاية من الله تعالى للمؤمنين فإنما يتولى تعظيمهم ومدحهم، ويأمر بذلك بعد استحقاقهم لذلك بأفعالهم. وأما العداوة فحقيقتها إنزال المضار بالعاصي، واستعمال العدواة لله من الكافر مجاز؛ لأن الكافر لا يقدر على إنزال المضار به تعالى، وإنما يوصف بذلك من حيث كان عدوا لأوليائه. والمحبة من الله للمؤمنين فإنما المراد بها منه إيصال المنافع اليهم تفضلاً واستحقاقاً.

(273/1)

واعلم أن هذه الصفات إرادة من حيث كان عدواً لأوليائه والمحبة من الله للمؤمنين، فإنما يجوز أن يريد الأفعال ويكرهها، والإرادة فقد صح أنها من صفات الفعل. وإنما يجب أن لا يجيز هذه

الأوصاف على الله عز وجل من لا يثبته مريداً على الحقيقة، ولا كارهاً، فإذا صح أنها من صفات الفعل وجب القضاء بأنه إنما سخط ورضي بعد وجود ما يوجب ذلك، وذلك لا يجوز إلا بعد التكليف، وبعد تصرف المكلف بالطاعة والمعصية؛ لأن جميع ذلك منه تعالى جزاء على الأفعال، ولا يحسن مجازاة الفاعل قبل إقدامه على الفعل، وذلك بين، ومما لا يحتاج فيه إلى إطناب.

فأما ما ذكر عن سليمان بن جرير فإنما أتي من قبل قوله بأنه يقول: إن الله تعالى لم يزل مريداً؛ و يثبت ذلك من صفات الذات، فقال ما قاله، وقد دللنا على بطلان ذلك ببطلان أصله الذي يتعلق به في أن الإرادة من صفات الذات. ومما يبين فساد ذلك أن الساخط إنما يحسن منه أن يسخط على من فعل قبيحاً من علمه فاعلاً لذلك القبيح، لا لعمله بأن الفعل المسخط له سيقع، ألا ترى أن ذلك يقبح فيه قبل وقوع القبيح كما يقبح منا أن تعاقب بالضرب والإيلام من لم يأت ما يستحق ذلك منه، فإذا ثبت ذلك لم يجز منه تعالى أن يسخط على المؤمن من حيث علمه أنه سيكفر في آخر أمره، ولو حسن منه ذلك لحسن أن يسخط عليه ويعاقبه ويجرمه في حال إيمانه لعلمه بما سيقع منه؛ لأنه بعلمه عاقبه لا بفعله؛ لأنه لم يقع منه فعل يوجب عقابه، لكن بعلمه عاقِبَتَهُ ، ولو حسن ذلك منه لحسن أن يعاقبه وأن يقدره على الطاعة، ولحسن أيضاً أن يعاقبه مع أنه المانع له من الطاعة، وفساد ذلك ظاهر، وهذه طريقة ما سلكها أحد من الأئمة ولامن العلماء من غيرهم سوى هذه المجبرة فاعلم ذلك.

تَمَّ والحمدلله وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامُه.

وله أيضاً عليه السلام:

كتاب تفسير الكرسي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله وعلى أهل بيته، وأن يجعلك من أهل ولايته، ويحبوك بحفظه وكلايته، ثم إني سأذكر لك نبأ أهل الزيغ من المشبهة عليها لعنة الله، وأقص عليك سبيل ضلالها عن الهدى ومن حيث ضلت وعميت.

التشبيه في عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله

واعلم رحمك الله أن فريقاً من المشبهة كانوا على عهد رسول الله صلى عليه وآله وعلى عهد علي أيضاً رحمة الله عليه، وقد ذكر الله عز وجل هولآء الذين كانوا على عهد نبيئه صلى الله عليه وعلى آله وسلم في آي الكتاب الذي نزله فقال سبحانه: ؟وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً؟[الإسراء: 91]، وفيهم يقول سبحانه: ؟لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا؟[الفرقان: 21:23]، فعاب الله تبارك وتعالى كفرهم في اعتقادهم التشبيه في الله عز وجل، وجعل مصيرهم إلى النار بذلك.

وكذلك هؤلاء الملحدون، أيضاً، فهم على ذلك السبيل وبه يعتقدون، وعنهم وعن أشياعهم نقلوا هذه الروايات.

(276/1)

أقوال المشبهة

فقالت فرقة منهم إن الله جل وتعالى خلق آدم صلى الله عليه على خلق نفسه، وإنه يضحك حتى تبدوا نواجذه، وقالت فرقة بل هو نور من الأنوار يكل عنه النظر ولا ينفذه البصر. وزعموا في زعمهم أن لله عرشاً مشتملاً عليه، وأن النبي صلى الله عليه وعلى أهله أسري به إلى السماء ووصل إلى الله عز وجل ووجد برد أنامله في جسده، وأنه سمع الله سبحانه وهو يقول: كن كن.

وقالت فرقة أيضاً إن الله تعالى ذكره يظهر يوم القيامة ويُرى عياناً. وإنه يكون يوم القيمة جالساً على العرش، ورجلاه على العرش، وإنه يكشف لهم ساقه ويحتجب عن الكفار فلا يرونه، فصغروا الله، سبحانه وجل ثناؤه، غاية التصغير، وجهلوا قول الله: ؟وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ؟.

فنقول لهم: أيها القوم إنكم جهلتم الله سبحانه فلم تعرفوه، وأشركتم بالله عز وجل فلم توحدوه، والله سبحانه فقد وصف نفسه بغير ما وصفتموه، ونفى عن نفسه ما نسبتم إليه، فاسمعوا إلى قولنا وأنصفوا من أنفسكم، واقبلوا الحق إذا عرفتموه، ولا يفتننكم الشيطان ليخرجكم من أديانكم، فإن الله سبحانه يقول: ؟وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً؟[الفرقان: 29].

(277/1)

الاحتجاج على المشبهة

فمما نذكر لكم ونحتج به عليكم ما ذكر الله سبحانه في هذه الآية من قوله: ؟وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ؟[البقرة: 255]، فأخبر الله سبحانه أن كرسيه قد وسع السموات والأرض، يريد عز وجل أن هذا الكرسي اشتمل على السموات السبع فأحاط بأقطارها، وكذلك اشتمل على الأرضين السفل فأحاط بأقطارها أيضاً، فصار الكرسي مشتملاً على السموات السبع، عالياً فوقها، واسعاً لها. والواسع للشيء هو الذي انبسط فوقه حتى اشتمل عليه. فكانت السماوات والأرض أضيق من الكرسي، وكان الكرسي أوسع منهما، فنقول إن الكرسي قد اشتمل على السماوت والأرض حتى أحاط بما فوقهما وتحتهما وأحاط بأقطارهما، فكانت السموات والأرض داخلتين في الكرسي، فصار مثل الكرسي لإحاطته بالسموات والارض كمثل البيضة المشتملة على الفرخ في جوفها، فالبيضة مشتملة على هذا الفرخ في جوفها، ملتئمة عليه ليس فيها صدع ولا ثقب، ولا لما في جوفها منها مخرج، حتى يأذن الله عز وجل لما في جوفها بالخروج. وهذا الكرسي أيضاً مشتمل على هذه الأرض وهذه السماء كما اشتملت هذه البيضه على هذا الفرخ؛ لأنه محيط بأقطار السماء وأقطار الأرض، وكل شي مما خلق الله عز وجل في السموات والأرض داخل في هذا الكرسي، فليس لشي مما خلقه الله سبحانه خروج من هذا الكرسي. وهذا الكرسي فليس وراءه منتهى ولا غاية، فاعرف هذا الكرسي كيف هو، فقد ثبت، والحمد لله، أن هذا الكرسي هو المحيط بجميع الأشياء الواسع لها، فصار هذا الكرسي خارجاً منها ظاهراً عليها، وباطناً فيها ظاهراً عليها؛ لإحاطته بها، وباطنا فيها؛ لدخولها فيه، وليست هذه الأشياء الداخلة في هذا الكرسي بممازجة له؛ لأنها أصغر شي في إحاطته.

(278/1)

سؤال أبي ذر رضي الله عنه عن آية الكرسي

وسأ ذكر لك في إحاطة الكرسي بالأشياء خبراً مذكوراً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر عن أبي ذر الغفاري رحمة الله عليه أنه قال: ((يا رسول الله أي آية أنزلها الله تبارك وتعالى عليك أعظم؟ قال: آية الكرسي، ثم قال: يا أبا ذر ما السموات والأرض عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض.))، فانظر إلى ما ذهب إليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. يريد أن الكرسي اشتمل على السموات والأرض كما اشتملت الأرض على الحلقة الملقاة في جوفها، فدخلت السموات والأرض في الكرسي كما دخلت الحلقة في الأرض، فبطل كل شيء مما خلق الله عز وجل وهلك وغاب، فذهب من كل عرش وسماء وأرض، وثبت هذا الكرسي لا غيره، وكان هذا الكرسي من وراء كل شيء واسعاً لكل شي. فلم يبق عرش، ولا مخلوق، ولا سماء، ولا أرض، ولا جنة ولا نار، ولا

جن، ولا إنس، ولا ملآئكة، ولا هواء، ولا شي مما خلق الله عز وجل حتى صار داخلاً في هذا الكرسي؛ لقول الله سبحانه: ؟وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ؟[البقرة:255]، فكل شي مما خلق الله سبحانه فقد أحاطت به السموات والأرض وما بينهما، وهذا الكرسي فقد أحاط بالسموات والأرض وجميع ما فيهما، فاعرف هذا الكرسي معرفة جيدة، وتدبره وانظر فيه نظراً مكرراً، فإني قد كررت لك الوصف فيه لتدبره وتعرفه كيف هو، وقِف على ما وصفت لك فيه وتيقنه فإذا عرفته ووقفت عليه بما وصفت لك سواء فانظر الآن إلى ما ذهبت إليه وما الذي أُريد بذكر هذا الكرسي.

(279/1)

اعلم رحمك الله أن هذا الكرسي مثل ضربه الله لعباده؛ ليستدل به العباد على عظمة الله تبارك وتعالى وإحاطته بالأشياء، واتساعه لها، فهذا الكرسي مثل يحكي عن الله سبحانه، وليس ثم شيء سوى الله عز وجل، وهذه الإحاطة بجميع الأشياء فإنما هي إحاطة الله عز وجل، وليس ثم كرسي مخلوق، ولا شي سوى الخالق أحاط بجميع ما خلق، فليس شي مما خلق الله عز وجل إلا والله سبحانه محيط به، وليس شي مما خلق الله بمحيط به، هو أصغر وأحقر من ذلك إذا لكان الشي المحيط بالله جل الله أوسع من الله وأكبر منه، وسأذكر لك في هذا أخباراً، وأضرب لك فيه أمثالاً، حتى تتحقق في قلبك المعرفة بالله عز وجل، ويحذف عن قلبك الشك والارتياب.

اعلم رحمك الله أن هذه الفرقة من المشبهة قوم هم عند الله أكذب الكاذبين، وأخسر الخاسرين، ولأ قسمت يميناً بالله عز وجل صادقاً إن الواحد منهم ممن يرى أنه على شيء ليصلي ويصوم ويتنفل، وإن قلبه ليحكي له بُعده من الله تبارك وتعالى، وإنه لا يتقرب من الله أبداً، ولا يزداد لكثرة عمله إلا بعداً، وأن قلبه لنافر من الله سبحانه؛ لأن القلوب إنما تقر وتهدأ وتطمأن على تحقيق المعرفة، فإذا عرف اطمأن وهدأ. ونحن فلا نقول: إنهم جحدوا الله سبحانه، وذلك أن الله فطرهم على معرفته، ولكنا نقول: إنهم جهلوا الله وصغروه، فلهم أصغر صغير، وأحقر حقير عند الله عز ذكره، فإذا عرفت الله سبحانه ووصفته بهذه الإحاطة التي ذكرت لك فقد عرفت الله سبحانه حق المعرفة، ألا تسمع إلى قول الله عز وجل: ؟وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ؟[البقرة:255] يخبر عز وجل أنه أعلى وأعظم من أن تحفظه السموات والأرض.

ونحن نقول إن الله سبحانه هو الحافظ للسماء والأرض. وسأصف لك السموات والأرض كيفهما، وأصغرهما لك على عظمهما، حتى تعلم أنه لا شيء أعظم من الله سبحانه، ولا شيء أوسع من الله سبحانه، فقف على ما أذهب إليه وتدبره.

(280/1)

يروى عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: ((هل تدرون ما هذه التي فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: إنها أرفع سقف محفوظ وموج مكفوف. هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن بينكم وبينها مسيرة خمسين ومائة عام، وبينها وبين السماء الأخرى مثل ذلك، حتى عد سبع سموات، وغلظ كل سماء مسيرة خمسين ومائة سنة. ثم قال: هل تدرون ما هذه التي تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها الأرض، وبينها وبين الأرض الآخرى مسيرة خمسين ومائة سنة، حتى عد سبع أرضين، وغلظ كل أرض خمسين ومائة سنة. ثم قال والذي نفس محمد بيده لو دليتم أحدكم حتى يصير إلى الأرض السابعة السفلى لكان الله عز وجل معه، ثم تلا هذه الآية: ؟هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟[الحديد: 3].)).

وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: ((لو أن ملكاً من ملائكة الله عز وجل الذين عظم الله خلقهم هبط إلى الأرض لما وسعته.))؛ لأن الله جعل السموات أوسع من الأرض والسماء العلياء من السموات أوسع من السماء السفلى؛ لأن السماء العليا مشتملة عليها. فانظر إلى هذه السموات والأرضين ما أوسعها وأعظمها، وسأصغرهما لك الآن في عظمته سبحانه، حتى تعلم علماً يقيناً أنه لا شيء أعظم من الله عز وجل، قال الله في الأرض والسماء: ؟وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ؟[الزمر:67]، فمثل الله سبحانه صغر الأرض في عظمته وقدرته كالقبضة في الكف، فكان في هذا ما يدل على تعظيم الله سبحانه، وكذلك قال: ؟وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ؟[الزمر:67]، فكان هذان مثلين من أمثال الله عز وجل يحكيان عن عظم الله تبارك وتعالى وصغر الأشياء، أنها في عظمة سعته واقتداره أصغر صغيره عنده سبحانه وتعالى.

تم والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

(281/1)

وله أيضاً عليه السلام:

(282/1)

كتاب العرش والكرسي

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى العرش والكرسي والوجه والكتاب والصراط والميزان...

قال يحي بن الحسين صلوات الله عليه:

والكرسي، والعرش، والقبضة، والبطش، والإتيان، والمجيء، والكتاب، والصراط، والميزان، والكشف عن ساق، واليدان، والقبض، والبسط، والوجه، والحجاب أمثالٌ كلها، لا يضاف شيء منها إلى صفات البشر، فمن أضاف شيئاً منها إلى صفات الخلق فقد كفر، وإنما هذه الصفات من أمثال القرآن وهو قوله: ؟وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ؟[العنكبوت: 43]، وقد ذكر الله الأمثال في كثير من القرآن.

فنقول: إن المعنى في العرش والكرسي والوجه سواء، ليس بينهما فرق، والمعنى فيها واحد، فنقول: إن معنى الوجه في الله هو الله، ومعنى الكرسي في الله هوالله، ومعنى العرش في الله هو الله، لا شك في ذلك عندنا ولا ارتياب فيه.

ونقول: إن معنى قول الله سبحانه: ؟أَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ؟[البقرة: 115]، كمعنى قوله: ؟وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ؟[البقرة: 255]، ومعنى قوله عند ذكر الوجه: ؟إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ؟[البقرة: 115]، كمعنى قوله عند ذكره الكرسي: ؟وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ؟[البقرة: 255]، وكمعنى قوله: ؟الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى؟[طه: 5]. وإنما هذه الثلاثة أصناف كلها تشريف لله عز وجل: فالوجه الذي ذكره الله يستدل به على بهائه وحسن عظمته؛ والكرسي يستدل به على ملكه، ومعنى يستدل به على ملكه أنه يستدل به عليه لأنه الملك نفسه، وليس شيء مما خلق يزيد في ملكه؛ وكذلك الوجه يستدل به عليه؛ وكذلك العرش يستدل به عليه؛ لأنها أمثال قدمها الله تحكي من حسن الله وبهائه، أعني حسنه في ذاته، وبهاءه في ذاته، وليس ذلك الحسن والبهاء الذي هو لله عز وجل على شيء من صفات حُسْنِ الخَلْقِ وبهائهم.

ولا نصف الله عز وجل بشيء من صفات البشر، بل نقول: إن معناه ذلك كله؛ إذ يعود كل صنف إلى أصله، أنه هو الله عز وجل لا غيره، وليس نقول: إن ثم عرشاً مخلوقاً، ولا كرسياً مخلوقاً، ولا وجهاً مخلوقاً، وليس من هذه الثلاثة الأمثال العرش والكرسي والوجه يوجد أبداً بصفة من الصفات، ولا بحلية من الحلات، إنما المعنى في هذا كله الله الذي لا إله غيره وحده لا شريك له.

فإن قال قائل أو سألنا سائل، فقال: ما معنى العرش الذي ذكره الله في كتابه؟

قلنا له: اسم يدل على الله في ارتفاعه وعلوه فوق خلقه من أهل سماواته وأرضه.

فإن قال لنا: ما الكرسي الذي ذكره الله في كتابه؟

قلنا له: اسم يحكى عن صفات الله في ذاته.

فإن قال: وكيف صفات الله في ذاته؟

(285/1)

قلنا له: إن الكرسي يدل على الله، وهو اسم من أسماء ملك الله، وليس ثَمَّ شيء سوى الله. ومعنى ؟وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ؟[البقرة: 255] أنه هو وسع السموات والأرض بكرسيه، ومعنى وسع السموات والأرض بكرسيه، أي وسع السموات والأرض بعلوه واقتهاره، ألاَ تسمع إلى قوله: ؟وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا؟[البقرة: 255]، يريد سبحانه أن السموات والأرض لا يحفظانه، يخبر أنهما لا يمسكانه، وكيف يمسكانه أو يحفظانه عز وجل، وهو يخبر أنه خارج منهما، محيط بأقطارهما؟ واصل من ورائهما ووراء ورائهما إلى ما لا يصل إليه غيره عز وجل. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رحمة الله عليه: ((يا أبا ذر ما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في الأرض.)) يقول صلى الله عليه وآله وسلم: ما السموات والأرض بأقطارهما في ورائهما مما هو أوسع منهما من حد أقطارهما إلى ما لا منتهى له، إلا كالحلقة الملقاه في الأرض. فأخبر صلى الله عليه وآله وسلم بعظمهما وجسمهما أنهما داخلتان في الكرسي كدخول الحلقة في الأرض فما لعسى موضع الحلقة من الأرض؟ أليس كأنما وراء الحلقة من أقطار الأرض إلى تخومها وجبالها وأشجارها وأنهارها وما فوقها وتحتها أوسع وأعظم وأرحب مما وسعت الحلقة منها، وكانت الحلقة أصغر شيء منها، وكان القليل الحقير الصغير اليسير ما قد وسعه الله، وأحاط به، وهو يخبر سبحانه أنه هو الذي وسعهما، وأحاط بهما، حتى صارتا بعظمهما وكبرهما في إحاطة علمه كالحلقة الملقاه في الأرض.

ومعنى قولي: في إحاطة علمه أي في إحاطته بنفسه؛ لأنه لا علم له غيره، فالله عز وجل قد أحاط بالسماوات والأرض كإحاطة الأرض بالحلقة الملقاة في جوفها، وهاهنا والله تاهت العقول، وضلت الأحلام، وانقطعت الفكر في الله عز وجل.

(286/1)

وفي كتاب الله تصديق هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قول الله عز وجل: ؟وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ؟[البقرة: 255]، يخبر أنه هو الذي وسع السموات والأرض، وأنهما لم تسعاه، ولم تحوياه، ولم تمسكاه، ولم تحفظاه، بل كان هو عز وجل المحيط بهما، والواسع لهما، والممسك لهما، والحافظ لهما، وذلك قوله عز وجل: ؟إن اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إن أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ انه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا؟[فاطر: 41]، يخبر عز وجل أنه يمسك السماء بعظمها في الهواء، ويمسك السموات السبع أيضاً، وكل سماء منهن أعظم وأوسع مما دونها، وكذلك الأرضون السبع، كل أرض أوسع مما فوقها، لأن السماء العليا مشتملة على السماء السفلى، وكذلك الأرضون والسموات السبع معلقات في الهواء، لا يرفدهن شيء، ولا يمسكهن إلا الله عز وجل، وكذلك الأرضون فكل ذلك في الهواء لا يمسكه إلا الله عز وجل، وليس من وراء هذا شيء يمسك الله هو أصغر وأحقر وأضعف، والله أوسع منه وأعظم.

(287/1)

والدليل على أن الله أوسع من السموات والأرض قوله: ؟وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ؟[البقرة: 255]، فأخبر أن السموات والأرض داخلتان في كرسيه، يريد سبحانه أنهما داخلتان في قبضته، وأنهما أصغر صغير وأحقر حقير عنده؛ إذ كان الممسك لهما في الهواء، ولولا إمساك الله لهما لسقطت السموات والأرض، وما إمساك الله للسماء في مستقرها بعظمها وجسمها ورحبها، إلا كإمساك الطير في جو السماء لا فرق بينهما عند الله عز وجل إلا بزيادة الخلق وسعة السماء، والسماء والطير في ضعفهما وصغرهما ودناتهما سواء سواء وكلاهما فقد صار إلى الهواء، وقد قال الله سبحانه فيهما: ؟وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ؟[الحج: 65]، وقال في الطير: ؟أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا اللّهُ؟[النحل: 79]، فصير الطير بضعفه وصغره كالسماء بعظمها وجسمها، لا يمسكهما غيره.

(288/1)

الرد على من قال: إن لله عز وجل عرشاً في السماء محيطاً به

فمن قال: إن لله عز وجل عرشاً في السماء محيطاً به فقد زعم أن العرش أوسع منه وأعظم، وأقوى وأجسم، فزعم أن العرش هو المحيط بالأشياء ليس الله، وأن العرش هو الواسع ليس الله، وأن العرش هو القوي ليس الله. ويزعم في زعمه أن الله أصغر من العرش، إذ كان في زعمه في جوف العرش،

وكان العرش مشتملاً عليه محيطاً به، فصير العرش ربه. وزعم أن العرش هو الواسع العليم؛ إذ زعم أنه أوسع من الله العزيز الحكيم، وأخرج الله عز وجل من قوله: ؟اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؟[النور: 35] – يريد أن بحياته حيينا، وبقدرته استقامتنا، ولولا هو لزالتا وامحتا وهلكتا، وهلك ما عليهما، لولا إحياؤه لهما – وقد قال الله عز وجل: ؟هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟[الحديد:3].

فنقول لهؤلاء الملحدين في الله سبحانه: أخبرونا عن العرش أهو الظاهر على الله، أم الله الظاهر عليه؟

فإن قالوا: إن العرش هو الظاهر على الله.

قلنا لهم: فلقد أكذبكم الله في كتابه بقوله هو: ؟الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ؟، فأخبر عز وجل أنه هو الظاهر، وأنتم تقولون: إن العرش هو الظاهر، فقد كذبتم على الله في قولكم، وقلتم بخلاف قوله عز وجل، وقد ضللتم ضلالا بعيداً بكذبكم على الله، وافترائكم عليه.

وإن قالوا: بل الله هو الظاهر على جميع الأشياء، لم يقدر أحد أن يدفع هذه الحجة عنهم.

قلنا لهم: قد قلتم بالحق، ورجعتم إلى الصدق، فإذا كان هو الظاهر على جميع الأشياء كان ظاهراً على كل عرش وغيره، والله من وراء ذلك العرش محيط، كما قال الله عز وجل: ؟وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ؟[البروج: 20]، فالله عز وجل من وراء كل عرشٍ وغيره محيطٌ، وظاهر على كل شيء.

(289/1)

معنى قوله تعالى: ؟الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى؟طه:5 وقوله تعالى: ؟وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؟هود:7

فإن قال قائل: فإذا قلتم: إن العرش هو الله؛ فما معنى قوله: ؟الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى؟[طه: 5]، وقوله: ؟وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؟[هود: 7].

قلنا له: إنما قلنا: إن العرش هو الله إذ كان العرش اسماً يدل على الله؛ لأن العرش من صفات الملك، وليس هو عرش مخلوق، إنما هو اسم من أسماء الملك يدل على ملك الله. ومعنى يدل على ملك الله أنه يدل على الله، إذ هو الملك بنفسه، فكان في المعنى عندنا سواء أن يقول القائل: لا ملك إلا ملك الله، أو يقول: لا عرش إلا عرش الله؛ فلذلك قلنا: إن العرش متصل بالله، كاتصال الكف بساعدها، لأنه في غاية المعنى أن العرش علو الله على جميع الأشياء بنفسه.

وإنما مثل الله علوه على جميع الأشياء وإحاطته بها كعلو الملك على سريره إذا استوى عليه، واستعلى فوقه في المثل لا غيره، وليس في الشبه والصفة إلا في المثل، والعرش الذي ذكره الله عز وجل هو مثل ضربه الله في استوائه على ملكه، وإنما تفسير هذا المثل الذي ضربه الله لعباده في العرش والكرسي أن الملك من ملوك الدنيا إذا قعد على كرسيه وعلى سريره استعلى فوقه، والعرش

فهو السرير، فمثل الله عرشه وكرسيه بهذا العرش وهذا الكرسي، فكان كرسي الملك من الملوك كرسياً ضعيفاً صغيراً، والذي استوى فوقه أضعف منه وأحقر منه، وكذلك العرش أيضاً فهو في الضعف والصغر كمثل الكرسي وسواء الكرسي والعرش، كلاهما مقعد للملك يقعد عليه، ويستوي فوقه.

(290/1)

وكرسي الله عز وجل فقد وسع السموات والأرض حتى صار من عظم سعته السماء والأرض في كرسيه كالحلقة الملقاة في الأرض، وصار الكرسي محيطاً بهما كإحاطة الأرض بتلك الحلقة، فكانت السموات والأرض لصغرهما وضيقهما في سعة الكرسي عليهما كضيق الحلقة، وصغرهما في سعة الأرض عليها، وكان الكرسي مشتملاً على السموات والأرض كما اشتملت هذه الأرض على هذه الحلقة، والواسع لهما بعظمهما كما وسعت الأرض هذه الحلقة الله الذي لا إله إلا هو، وسع الأشياء كلها، حتى أحاط بها وملأها وغمرها.

وليس ثم كرسي غير الله، إنما هو مثل مثله الله لعباده؛ ليستدل به على عظمته واتساعه على جميع الأشياء وإحاطته بها.

(291/1)

الدليل على أن الله عزوجل يذكر الكرسي والعرش معرفة عباده بسعة ملكه

ومن الدليل على أن الله عز وجل أراد بذكر الكرسي والعرش أن يعرف عباده عظم سعته وإحاطته بالأشياء قوله عز وجل: ؟لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا؟[الطلاق: 12]، وقوله: ؟وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ؟[البروج: 20]، وكثير في كتاب الله مما يدل على أن الله محيط بالأشياء، وهذا الكرسي مما يدل على إحاطة الله بجميع الأشياء واتساعه عليها، وتفسير العرش أيضاً كتفسير الكرسي سواء سواء فهذا معنى قولنا: إن العرش هو الله، وإن الوجه هو الله، وإن الكرسي هو الله.

(292/1)

معنى قوله تعالى: ؟رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟التوبة:129 و ؟رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ؟المؤمنون:116

فإن قال قائل: ألستم تقولون: هو الله؟

قلنا له: نعم.

فإن قال: فما معنى قوله: ؟رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟[التوبة: 129]؟ وقوله: ؟رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ؟[المؤمنون: 116]؟

قلنا له: معنى ذلك عندنا كمعنى قوله سبحانه: ؟سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ؟[الصافات: 180]، وهو العزيز بنفسه. وكذلك قلنا: إن العرش هو الملك، وهو الملك بنفسه. ومعنى رب الملك ورب العزة أي مالك الملك ومالك العزة، يريد صاحب الملك وصاحب العزة، ومالك الشيء ورب الشيء سواء في المعنى؛ فلذلك جعلنا العرش متصلاً بالله؛ لأنه ملك الله، وملك الله متصل به؛ ولذلك لم يكن بين الملك وبين الله فرق؛ لأنه لو جاز لنا أن نفرق بين الله وبين ملكه لقلنا: إن الله خلق الملك في زمن الملك في ذاته، وملك الله عز وجل فلا يقاس بملك العباد؛ لأن العباد إنما صاروا ملوكاً بما ملكوا، والله فهو الملك بنفسه، ولا يزيد بشيء مما خلق في ملكه.

(293/1)

معنى قول الله تعالى: ؟وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؟هود:7

فإن قال قائل: فما معنى قوله: ؟وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؟[هود: 7]؟

قلنا له: إن إحاطته بجميع الأشياء هي العرش العالي فوق جميع الأشياء، وذلك العرش العالي فوق جميع الأشياء فهو الله العالي على جميع الأشياء، فالله عز وجل هو المحيط بجميع الأشياء بعرشه يريد أنه المحيط بجميع الأشياء بملكه، أي أنه علا فوق جميع الأشياء بنفسه، ليس ثم عرش ولا ملك غيره. ومعنى قوله: ؟وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؟[هود: 7]، يريد: أنه كان المحيط بالماء من قبل خلقه للأرض والسماء، فذلك العرش المحيط بالماء، لم يتغير عن حاله، ولم يزل هو المحيط بالماء، والمحيط من بعد الماء بالأرض والسماء، فذلك العرش إنما هو مقام الله.

ولايجوز لنا أن نقول هو مجلس الله، ولكنا نقول هو مقام الله تعالى، وليس كمقام الانتصاب إنما ذلك كمال الله بنفسه، فهو الجليل الكامل بنفسه، العظيم الجبار، ذو الشرف والبهاء والسناء العظيم، فهذا معنى قول الله عز وجل: ؟وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؟[هود: 7]، يخبر أنها لم تكن أرض ولا سماء سوى الماء. ونحن نقول: إنه قد كان عرش الله ولا ماء، ونقول: إن عرش الله لم يزل، وإن أسماء الله لم تزل، وإن صفات الله ومدائحه كلها لم تزل؛ لأن الله يقول في كتابه: ؟الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى؟[طه: 5]، ولا يجوز لنا أن نقول: إنه لم يكن مستوياً على عرش ثم استوى، إذا لقلنا بخلاف قوله عز وجل، بل نقول: إن الله لم يزل ذا عرش عظيم، يريد بذلك العرش العظيم الله العظيم.

(294/1)

وقلنا له: ليس ثم عرش لله عز وجل، وإنما ذكر العرش فعرفنا به الملك، ولم يصفه بصفة معلومة معروفة، وأما قوله في يوم القيامة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾[النازعات: 40]، فكذلك المقام هو ذلك العرش، وذلك العرش هو الله العلي، لا شيء استعلى، إنما هو العلي بنفسه. تم والحمد لله حق حمده وصلواته على سيدنا محمد وآله.

فرغ من زبر هذا الكتاب الجليل ضحوة يوم الإثنين المبارك شهر رجب الأصب سنة 1335هـ فلله الحمد كثيراً بكرة وأصيلاً.

بقلم أسير ذنبه ورهين كسبه الفقير إلى الله الغني أحمد بن عبدالله بن أحمد بن علي مشحم غفر الله لهم وللمؤمنين آمين.

تم الكتاب والحمد لله المنعم الوهاب

وله أيضاً عليه السلام:

(295/1)

كتاب الرد على المجبرة القدرية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحي بن الحسين صلوات الله عليه:

الحمد لله الذي لا تراه عيون الناظرين، ولا تحيط به ظنون المتظنين، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. الداني في علوه، العالي في دنوه. الذي أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، وأعطى على قليل كثيراً. البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن القضاء بالفساد، الممكن لعباده من العملين الدال لهم على النجدين، المبين لهم ما أحل لهم، الموضح لهم ما حرم عليهم، المرسل إليهم الأنبياء، الداعي لهم إلى الخير والهدى، المخوف لهم بالنيران، المرغب لهم بالجنان، الذي لا تحويه الأقطار، ولا تجنه البحار، ولا تواريه الأستار، وهو الواحد العلي الغفار.

وأشهد أن لا إله إلا هو سبحانه شهادة حقاً، أقولها له جل جلاله تعبداً ورقاً، الذي رفع السماء فبناها، وسطح الأرض فطحاها، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالبينات، ونزل معه الآيات، وأنقذ به من الهلكات، وأكمل به النعم والخيرات، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، وعبد ربه حتى أتاه اليقين. ثم تولى فَقِيداً محموداً

فصلوات الله عليه، وعلى أهل بيته الطاهرين، الطيبين الأخيار، الصادقين الأبرار، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وجعلهم أمناء على وحيه، ودعاة لخلقه، أمر العباد بطاعتهم وافترض عليهم ما افترض من اتباعهم، اختصهم دون غيرهم بذلك، وجعلهم عنده كذلك، تكريماً منه لهم، وتعظيماً لما به خصهم من ولادة المصطفى، محمد خير الأنبياء، ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال:42].

ثم نقول من بعد الحمدلله والثناء عليه، والصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد:

(296/1)

فإن القدرية المجبرة الغاوية الضالة المضلة، زعمت أنها إنما أُتيت في ارتكاب سيئاتها، وفعل كباير عصيانها من ربها لا من أنفسها، تبارك ربنا عن ذلك وتعالى علواً كبيراً.

ثم قالوا إنه سبحانه أدخلها بقضائه عليها في كبائر ذنوبها، جبرها على ذلك جبراً، وأدخلها فيه قسراً، ليعذبها على قضائه إشقاء منه لها بذلك، تعالى ربنا أن يكون كذلك، ولعنة الله على أولئك.

فرأينا عندما قالت وذكرت، وبه على الله من عظيم القول اجترأت، أن نضع كتاباً نذكر فيه بعض ما ذكر الله في منزل الفرقان مما نزله على محمد خاتم النبين في الكتاب من إكذاب القدرية المجبرين.

(297/1)

فكان أول ما نقول لهم من ذلك، ونسألهم عنه، أن نقول لهم خبرونا عن قول الله تبارك وتعالى فيما حكى عن الفاسقين الظلمة المنافقين الفجرة المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله رب العالمين:

؟وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟[التوبة: 42]، فقلنا للقدرية: أتزعمون أنهم حين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا مستطيعين للخروج معه، أوغير مستطيعين له؟ فإن قالوا: إنهمكانوا مستطيعين له، وإنهم تركوه عنوة واجتراء على ذي الجلال والطول، واطراحاً لقول الله وقول رسوله صلى الله عليه وآله؛ تركوا قولهم الذي كانوا يقولون به من أنه لا يستطيع أحد فعل شيء حتى يقضي الله عليه به، ويدخله الله سبحانه فيه. وإن قالوا: إن المتخلفين عن الخروج مع الرسول لم يكونوا بمستطيعين للخروج معه، وإنهم كانوا غير مستطيعين الجهاد؛ فقد قالوا كما قال المتخلفون، وصدقوا قول المنافقين، وأكذبوا قول رب العالمين؛ لأن الله سبحانه قد أكذبهم، وشهد بخلاف ما قالوا من قولهم، حين يقول: ؟وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟[التوبة: 107]؛ قالت المجبرة: هم صادقون لا يستطيعون، ولو استطاعوا لخرجوا، وقال الله

سبحانه: هم الكاذبون فيما يقولون وشهد أنهم للخروج مستطيعون، وأنهم لو أرادوا الخروج لخرجوا، ولذلك أكذبهم الله في قولهم؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يكذب صادقاً، ولا يصدق كاذباً.

(298/1)

ثم قلنا لهم: أخبرونا عن قول الله تبارك وتعالى: ؟فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ؟[التغابن: 16]، أليس إنما أمر العباد أن يتقوا الله ما استطاعوا؟ فإذا قالوا: نعم. قيل لهم: فإن رجلاً لم يصل ولم يصم من شهر رمضان إلا يوماً واحداً، أو ركعة واحدة في كل يوم وليلة، هل كان يستطيع غير ذلك؟. فإن قالوا: نعم؛ تركوا قولهم. وإن قالوا: لا يستطيع. قيل لهم: أفتأمرونه بالصلاة والصيام وهو لا يستطيع ذلك. فإن قالوا: لا نأمره بشيء من ذلك؛ فقد أجازوا له ترك الصلاة والصيام. وإن قالوا: بل نأمره وإن كان غير مستطيع؛ خالفوا القول وردوا كتاب الله؛ لأن الله يقول: ؟فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ؟[التغابن: 16]، ويقول: ؟لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا؟[البقرة: 286]، ويقول: ؟لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا؟[الطلاق: 7]، فقد كلفتموه ما لم يؤته ربه. ثم يقال لهم: أرأيتم إنساناً جلِداً قوياً صحيحاً قال: لست أقدر على أن أصوم من شهر رمضان أكثر من عشرة أيام. ماذا كنتم تقولون له؟ وكذلك إن قال: لست أقدر على الصلاة؟ فإن قالوا: نأمره بالصلاة والصوم، ونقول له أنت مطيق لذلك؛ تركوا قولهم لأنه يقول لهم إنما أمرني الله أن أعبده ما استطعت، ولست أستطيع غير هذا، وأنتم تأمرونني أن أتعبد لربي بما لا أستطيع وأعبده بما لا أطيق، فأيكم أوْلى أن أقبل قوله أنتم أو ربي؛ لأن ربي لم يكلفني إلا ما أستطيع، وأنتم تكلفوني ما لا أستطيع. وإن قالوا له: لا تصم ولا تصل لأنك لا تستطيع كما قلت، ولو نزل عليك من الله الاستطاعة لفعلت؛ كانوا قد أباحوا للعباد ترك الصيام والصلاة، وهذا كفر بالله وشرك.

(299/1)

ويقال لهم: أخبرونا عن قول الله تبارك وتعالى: ؟وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً؟[آل عمران: 97]، ما هو السبيل عندكم؟ فإن قالوا: هو أمان الطريق، وإمكان الزاد والراحلة، وصحة البدن. قيل لهم: أفرأيتم رجلاً كثير المال، كثير الإبل، صحيح البدن، آمن الطريق جلس ولم يحج، وقال: لم يقض لي بالحج، ماذا تقولون له؟ أتقولون: إن فرض الله قد لزمه أو لم يلزمه؟ فإن قالوا: قد لزمه وعليه أن يحج؛ تركوا قولهم. وإن قالوا: لا يمكنه الحج حتى يقضى عليه به؛ ردوا كتاب الله ونقضوا قوله، وخالفوا كل الأمة.

ثم يسألون فيقال لهم: خبرونا عن قول الله تبارك وتعالى: ؟وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟[المجادلة: 3 – 4]، أرأيتم من حنث في ظهاره، وكان مؤسراً كثير الرقيق صحيح البدن، قوياً على الصيام، فقال لا أعتق رقبة ولا أصوم، ولكني أطعم؟ فقيل له: هذا لا يجوز لك؛ لأن الإطعام لمن لا يجد عتقاً ولا يقوى على صيام. فقال أنا غير مستطيع لذلك؛ لأن الله لم يقض لي به، فلست أفعل إلا ما قضى الله لي به من الإطعام، ما تقولون له؟ فإن قالوا: نقول له: أطعم ولا تعتق ولا تصم، لأن الله لم يقدره عليك، ولم يقض لك به؛ ردوا كتاب الله وخالفوا رسوله. وإن قالوا: بل نقول له: هذا لا يجوز لك، وقد أوجب الله عليك العتق فأعتق؛ تركوا قولهم، ورجعوا إلى الحق.

(300/1)

ومما يُسألون عنه يقال لهم أخبرونا عن قول موسى عليه السلام للخضر: ؟لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا؟[الكهف: 77]، أتقولون: إنه قال لو شئت وهو لا مشيئة له، فتخطئون موسى عليه السلام؛ أم تقولون: إنه لم يقل إلا الحق وإن الخضر قد كان يقدر أن يفعل. فإن قالوا: لا مشيئة له ولا استطاعة؛ خطأوا نبي الله وجهّلوه. وإن قالوا: قد كانت له مشيئة واستطاعة؛ تركوا قولهم ورجعوا إلى الحق.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله عز وجل: ؟يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا؟[النساء: 60]، أفتزعمون أنهم أرادوا أن يتحاكموا إلى الطاغوت؛ أم الله أراد ذلك وقضى عليهم به؟ فإن قالوا: إن الله أراد ذلك وقضى به عليهم، ردوا كتاب الله وخالفوه؛ لأن الله سبحانه قد نسب ذلك إليهم، وذكر أنهم الذين أرادوا ذلك، والمجبرة القدرية يزعمون أن الله أراد منهم أن يتحاكموا إلى الطاغوت دونه ودون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإن قالوا: بل هم أرادوا ذلك والله لم يرده؛ خرجوا من الباطل ورجعوا إلى الحق، وقالوا على الله بالصدق. فيقال لهم: قد نسمع الله يقول ويذكر أن الشيطان هو الذي أراد أن يضلهم ضلالاً بعيداً، والمجبرة تزعم أن الله أضلهم فالله أَوْلى بالصدق منهم، والله سبحانه فأصدق الصادقين، وأبعد الأبعدين من إضلال الضالين، والمجبرة والقدرية فأكذب الكاذبين على الله رب العالمين.

(301/1)

ويُسألون عن قول الله سبحانه فيقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: ؟إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ؟[المائدة: 91]، أتقولون: إن ذلك من الشيطان كما قال الله؟ أم تقولون إنه من الرحمن؟ فإن قالوا: هو من الشيطان كما قال الله، وهو قضاء منه وتزيين لا من الله؛ تركوا قولهم ورجعوا إلى الحق وإلى قول أهل العدل. وإن قالوا هو من الله لا من الشيطان خالفوا في ذلك، وردوا قول الله؛ لأن الله يقول: ؟إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ؟[المائدة:91]، وهم يقولون إنما يريد الرحمن، وكفى بهذا لمن قاله كفراً.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله عز وجل: ؟وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ؟[غافر: 31]، وعن قوله: ؟وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ؟[فصلت: 46]، فهل يقولون: إن الله يريد ظلماً لأحد من عباده؟

فإن قالوا: لا؛ تركوا قولهم الذي يقولون به إن الله أدخلهم في المعاصي، ثم يعذبهم عليها، ويشقيهم بها. وإن قالوا: إن الله يريد ظلمهم؛ ردوا كتابه وكفروا به.

ومما يُسألون عنه من محكم كتاب الله أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله عزوجل: ؟يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا؟[النساء: 27]، أفليس إنما أراد الله البيان والتوبة والهدى، وأراد الكافرون الزيغ والردى؟ فإن قالوا: نعم؛ رجعوا إلى الحق وتركوا قول الباطل وقالوا بقول أهل العدل. وإن قالوا: بل الله الذي أراد الميل وقضى به عليهم؛ خالفوا الله في قوله فاستوجبوا منه العذاب.

(302/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله عز وجل: ؟تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ؟[الأنفال: 67]، أليس قد أخبر الله تبارك وتعالى أنهم يريدون غير ما أراد، وأنهم يفعلون غير ما يشاء؟ فإن قالوا: نعم؛ تركوا قولهم ورجعوا إلى العدل. وإن قالوا: إنهم لا يشاؤن إلا ما يشاء الله، ولا يريدون إلا ما أراده؛ خالفوا الله في قوله؛ لأن الله قد أخبر أنهم يريدون الدنيا، وأنه يريد الآخرة، والدنيا غير الآخرة، فكذلك إرادة الدنيا غير إرادة الآخرة، ومن زعم أنهم أرادوا ما أراد الله، فقد زعم أنهم أرادوا الآخرة، وفي ذلك رد كتاب الله؛ لأن الله يقول: ؟تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ؟[الأنفال: 67].

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله عز وجل: ؟يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ؟[البقرة: 185]، أتزعمون أن الله أراد ما يريد كثير من الناس من العسر، أم لم يرده. فإن

قالوا: بل الله يريده ويقضى به على من أراده؛ ردوا كتاب الله صراحاً. وإن قالوا: إن الله لا يريده؛ تركوا قولهم ورجعوا إلى الحق.

(303/1)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ؟[الأنعام: 137]، أيقولون: إن شركاؤهم هم الذين زينوا لهم قتل أولادهم ليردوهم بقتل أولادهم؟ فإن قالوا: نعم هم المزينون لهم دون الله؛ رجعوا عن قولهم، وقالوا بالحق في ربهم. وإن قالوا: بل الله قضى بذلك عليهم وزينه لهم؛ فقد ردوا كتاب الله بذلك. ثم يقال لهم: كيف يزين الله لهم ذلك ثم يرمي به شركاءهم وهو الفاعل له دونهم؟! أما يسمعونه سبحانه يقول: ؟وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا؟[النساء: 112]، فكيف يعيب الله سبحانه شيئاً ثم يفعل مثله؟! تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: ؟وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ؟[الأنفال: 48]، أتقولون: إن الشيطان زين لهم أعمالهم، وقال لهم ما قال مما ذكر الله عنه، أم تزعمون أن الله الذي قال لهم وزين؟ فإن قالوا: بل الشيطان زينه لهم وقاله؛ تركوا قولهم وخرجوا من الباطل. وإن قالوا: إن الله الذي زينه لهم؛ لزمهم أن يقولوا إن الله زين لهم الخروج إلى قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه هو الذي قال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، وفي هذا إكذاب الله والكفر به.

(304/1)

ومما يحتج به عليهم ويسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ؟[الزخرف: 45]، فيقال لهم: هل الله الذي جعل آلهة تعبد من دونه وقضى بذلك فيها؟ فإن قالوا: إن الله جعل ذلك وقضى به؛ ردوا كتاب الله وكفروا به. وإن قالوا: لم يجعله ولم يقض به؛ تركوا قولهم، وخرجوا من الظلم إلى الحق.

ويقال لهم: أليس الله ؟هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ؟ كما قال وذكر أنه أهلهما؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فهل يجوز أن يكون الظلم والمعصية من الله كما كانت التقوى والمغفرة منه؟ فإن قالوا: نعم؛ كفروا وخالفوا الكتاب، ونسبوا إلى الله غير الصواب. وإن قالوا: لا يكون الظلم والمعصية من الله؛ تركوا قول المبطلين، ورجعوا إلى قول المحققين.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: ؟إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً؟ [الإنسان:29]، وعن قوله: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا؟[الكهف: 29]، أَمَنْ شاء أن يفعل خيراً فعله، أم ليس هو عندكم كما قال الله؟ فإن قالوا: ليس هو كما قال الله؛ كفروا. وإن قالوا: هو كما قال الله رجعوا إلى الحق، وقالوا على الله بالصدق، وأقروا أن العباد ممكنون من العمل، وأنهم يفعلون ماشاؤا بما جعل الله فيهم من الاستطاعة التي ركبها فيهم؟ فإن قالوا: ليس هو كذلك ردوا كتاب الله وكذبوه، ومن فعل ذلك فقد كفر.

(305/1)

ومما يُسألون عنه من محكم كتاب الله أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وإِن أَنتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ؟[الأنعام: 148]، أفتقولون: إنهم صدقوا في قولهم إن الله لم يشأ إيمانهم؟ فإن قالوا: صدقوا؛ كذَّبوا الله في قوله، وكفروا بالله. وإن قالوا: لا، بل كذبوا على الله في قوله، وقد شاء منهم الإيمان ودعاهم إليه، ولم يشاء منهم الشرك؛ رجعوا عن قولهم، وصاروا إلى القول بالحق.

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه: ؟وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم؟[الزخرف: 20]، فيقال لهم: أليس قد أخبر سبحانه أن قوماً قالوا لو شاء الرحمن ماعبدنا غيره؟ فإذا قالوا: نعم. يقال لهم: أليس قد قال الله: ؟مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ؟[الزخرف: 20] - والخرص هو الكذب، فما تقولون في ذلك؟ فإن قالوا: صدق الله إنهم لكاذبون فيما ادعوا عليه؛ تركوا قولهم ورجعوا إلى الحق وقالوا بالعدل. وإن قالوا: هم كما قالوا لو شاء الله ما عبدوا غيره؛ فقد صدقوا قول الفاسقين، وردوا قول رب العالمين، ومن قال بذلك كان بالله من الكافرين، ولعذابه من المستوجبين.

(306/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ؟[الصف:8]، أفتقولون: إن الكافرين هم الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله من دونه، أم هو الذي أراد أن يحملهم على إطفاء نور الله؟ فإن قالوا: أراد إتمام نوره؛ تركوا قولهم، ورجعوا إلى الحق، وقالوا بقول الله في ذلك. وإن قالوا: بل الله الذي أراد إطفاء نور نفسه؛ ردوا قول الله، وكفروا به؛ لأن الله يقول في كتابه: ؟يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ؟[التوبة: 32]، والله

يقول: إنهم يريدون إطفاء نور الله، والمجبرة والقدرية تقول: بل الله يريد إطفاء نور نفسه إذ زعمت أنه يقضي على الفسقة بذلك.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: ؟وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ؟[آل عمران: 28] أتقولون إن فاعل ذلك فعله بغير قضاء من الله؟ فإن قالوا: نعم فعله بغير قضاء من الله، وإن فعله ليس من الله في شيء؛ دخلوا في قول المعدلين، وقالوا بالحق في رب العالمين. وإن قالوا: فعل ذلك من الله، وإنه ليس بمعدول عنه، وإنه بقضاء منه؛ فقد ردوا على الله قوله، وخسروا خسراناً مبيناً، إذ قالوا: هو من الله، والله يقول: ليس هو منه.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؟ [الفتح:25] أتقولون إنهم صدوهم عن المسجد الحرام كما قال الله، أم الله صدهم وقضى بذلك عليهم؟ فإن قالوا: الله الذي صدهم؛ ردوا قول الله، وخالفوا تنزيله. وإن قالوا: بل المشركون صدوهم عن المسجد الحرام، والله تبارك وتعالى بريء من فعلهم، ولم يقض به عليهم؛ خرجوا من قولهم، ودخلوا في قول المحقين.

(307/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ؟[الأعراف: 71]، وعن قوله: ؟إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم؟[النجم: 23]، أيزعمون أنهم سموها وأباؤهم كما قال الله، أم تزعمون أن الله سماها دونهم؟ فإن قالوا: إنهم سموها دون الله؛ فقد أصابوا وصدقوا قول الله، وخرجوا من الباطل إلى الحق. وإن قالوا: إن الله الذي سماها دونهم؛ خالفوا قول الله وردوا عليه قوله؛ لأنه يقول سبحانه: ؟سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم؟[النجم:23]، وهم يقولون سماها دونهم، وهذا فأكفر الكفر وأجل الشرك.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: ؟قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا؟[الشمس: 10]، نبئونا عن المزكي والمدسي من هو واحد هو أو اثنان؟ فإن قالوا: الله زكاها ودسّاها. قيل لهم: إن الله قد ذم من دسّاها، أتقولون إنه ذم نفسه، أم ذم غيره؟ فإن قالوا: ذم غيره؛ خرجوا بذلك من قولهم إن الله جبر العباد على أفعالهم، وقضى بها عليهم، إذ أثبتوا أن العبد مذموم على فعله لا على قضاء ربه. وإن قالوا: بل ذم نفسه، إذ هو القاضي على المدسي بالتدسية، فهو الفاعل بالعبد، الحامل له على التدسية، لا أن العبد حمل نفسه؛ كفروا بقولهم، ونسبوا إلى الله الذم لنفسه على فعله لعباده.

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: ؟مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ؟[النساء: 79]، فيقال لهم: قد نجد الله سبحانه أخبرنا أن السيئات أفعال

العباد لا من فعله أفتقولون إنه كما قال الله سبحانه أم لا؟ فإن قالوا: بل هو كما قال الله؛ خرجوا من الجبر، وتركوا قولهم بالباطل. وإن قالوا: هو على غير قول الله؛ كفروا بالله.

(308/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله عز وجل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ؟مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ؟[المائدة: 103]، أفتقولون فيما فعلوه إن الله جعل ذلك، وقضى به وبفعله على من فعله من مشركي قريش، فقد صح لنا أن أول من فعل ذلك قصي بن كلاب؟ فإن قالوا: إن الله جعله وقضى به وأدخله فيه؛ فقد صدقوا قول قريش إن الله قضى بذلك وفعله بهم، وأكذبوا قول الله؛ لأن الله قد نفى ذلك عن نفسه، وأخبر أنه لم يقض به، وأكذبهم فيما قالوا به عليه من ذلك وفيه حين يقول: ؟مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ؟[المائدة: 103]، والقدرية تقول: هو جعل الله وقضاؤه، ولولا أن الله قضى به ما فعلته قريش ولا أطاقته. أقول: الله أصدق عند من عرف الله، أم قول قريش القدرية؟ بل قول الله أصدق وقول من سواه باطل.

ومما يُسألون عنه مما لا يستطيعون رده من كتاب الله قول الله سبحانه: ؟إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إنما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ؟[آل عمران: 155]، فيقال لمن زعم أنه لا يقدر عبد على فعل إلا بعد قضاء الله به عليه، وإدخاله إياه فيه بالقضاء اللازم، أما يجد الله سبحانه يخبر أن توليهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان من استزلال الشيطان، وأنه منهم ومنه، وأنتم تزعمون أنه من الله، وأنه قضى به عليهم وبالتولي، ما تقولون أقول الله أصدق أم قولكم؟ فإن زعموا أن قول الله أصدق؛ رجعوا عن قولهم وصاروا إلى العدل. وإن قالوا: إن قولهم أصدق؛ فقد كفروا بالله، وكذبوا على الله؛ لأن ربنا قد ذكر أن ذلك من عدو الله الشيطان، والقدرية تزعم أنه من الرحمن، وأن الشيطان منه بريء.

(309/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: ؟وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم؟[البقرة: 109]، أفتقولون إن هذا الحسد من عند الله قضى به على الكفار أن يحسدوا المؤمنين على الإسلام، أم حسداً من عند أنفسهم يعاقبون عليه؟ فإن قالوا: هو من عند الله قضى به عليهم؛ برؤا الكفار من المذموم، وجعلوه لله دونهم، وقد قال الله

خلاف ذلك، فقد كذبوا الله في قوله وكفروا به. وإنقالوا: هو من عند أنفسهم ومنهم لا من الله كما قال الله؛ خرجوا من الباطل إلى الحق، ورجعوا إلى العدل.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ؟[محمد: 25]، أفتقولون إن الشيطان برئ من ذلك، وأنه لم يسول لهم منه شيئاً؟

فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا الله، وخرجوا بذلك من الدين. وإن قالوا: بل هو كما قال سبحانه من الشيطان لا من الرحمن؛ فقد صدقوا ورجعوا إلى الحق، وقالوا بالعدل، وأقروا بأن الارتداد من المرتدين، بتسويل الشيطان لهم، لا بقضاء الله بذلك عليهم؛ لأن الله لا يقضي بالارتداد، ولا غير ما أمر به من اتباع دينه، والائتمار بأمره، والانتهاء عن نهيه.

(310/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ؟[آل عمران: 165]، أتزعمون أنه من عند أنفسهم كما قال الله، أم هو قضاء من عند الله قضاه عليهم؟ فإن قالوا: إن ذلك من أنفسهم؛ قالوا بالحق، وتعلقوا بالصدق. وإن قالوا: هو من عند الله وهو قضاؤه؛ قيل لهم: أفقولكم أصدق، أم قول الله سبحانه؟ فإن قالوا: قول الله صدقوا وأسلموا؛ وإن قالوا: قولنا؛ كفروا؛ لأن المصيبة لم تكن إلا بمخالفتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أمرهم أن لا يبرحوا من باب الشعب، فخالفوا ورجعوا، فوجد الكافرون السبيل إلى دخول الشعب، فدخلوا فأصابوا ما أصابوا ووقعت المصيبة. فكانت منهم بمخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوالهم من مواقفهم التي أوقفهم لانتظار أمره.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه فيما حكى عن نبيئه يوسف صلى الله عليه من قوله: ؟مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي؟[يوسف: 100]، أتقولون إن الشيطان نزغ بينهم كما قال الله؟ أم تقولون إن الله الذي نزغ بينهم وأدخلهم فيما فعلوا بنبيه صلى الله عليه وقضى به عليهم فلم يجدوا منه بداً؟ فإن قالوا: إن الشيطان الذي نزغ كما قال الله سبحانه وذكر يوسف؛ صدقوا، ورجعوا إلى الحق من بعد الباطل، وخرجوا من الجبر إلى العدل. وإن قالوا: بل الله الذي نزغ بينهم بقضائه بذلك عليهم؛ كذبوا قول يوسف في الشيطان، وردوا الذنب على الرحمن، وقالوا على الله بخلاف قوله في نفسه وقول نبيئه فيه. فهل يقول بإكذاب الله سبحانه وإكذاب نبيه يوسف، وتصديق المجبرة من دون الله مؤمن يؤمن بالله أو يعرفه؟!

(311/1)

ومما يُسألون عنه من كتاب الله سبحانه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ؟إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إلا بِإِذْنِ اللَّهِ؟[المجادلة: 10] – يريد: إلاّ بتخلية الله، والتخلية هاهنا فهي ما جعل الله في الشيطان من الاستطاعة التي أمره أن يطيعه بها ويرضيه، فنهاه عن الوسوسة للعباد، والمقاربة لهم – أفيقولون: إن النجوى من الشيطان كما قال الرحمن؟ أم يقولون إنها من الرحمن، ويبرؤن فيها عدو الله الشيطان؟

فإن قالوا: بل نقول إنها من الشيطان – كما قال الله وقوله الحق – لا من الله؛ صدقوا وخرجوا بذلك من الجبر، والظلم لله والكفر به والعدوان. وإن قالوا: بل نقول إن كل ماجاء من نجوى للكافرين وتناجيهم بالإثم والعدوان، والتراضي بالعدوان، والمحاربة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قضاء من الله قضى به عليهم في نبيه، وأدخلهم فيه، وأنه من الله لا من الشيطان، كفروا بالله وأكذبوا قوله، وخرجوا بذلك من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ورجعوا وتعلقوا بدين الجاهلية الأولى، وقولهم الذي أنكره الله عليهم وأكذبهم فيه.

(312/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً؟[النساء: 82]، أفتقولون إن ما كان من قول الجاهلية من قولهم: (إن القرآن الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم ليس من الله بل هو من عند نفسه، وأنه يكهنه ويكذبه على الله) هو كما قالوا، وإن الله قضى بذلك القول عليهم في نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنطقهم به عليه، وإنهم لم يقولوا ذلك إلا بقضاء الله عليهم به؟ فإن قالوا: نعم نقول بذلك ونزعمه؛ ردوا الكذب على الله بإكذاب نبيئه، وزعموا أن الله أكذب نبيئه لا قريش، وفي ذلك الكفر بالله والشرك به. وإن قالوا: بل هو من عندهم لا من عند الله رجعوا إلى الحق، وقالوا له ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالصدق، وصاروا من أهل القرآن.

(313/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الرحمن، فيما نزل من النور والفرقان: ؟وإن مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟[آل عمران: 78]، أتقولون إن ليَّهم بالكتاب، وتمويههم على المؤمنين بذلك وفيه من أنفسهم؟ فإن قالوا: من الله قضاءً قضى به عليهم. قيل لهم: فإنا نجد الله يقول خلاف قولكم، ويبطل ما لفظتم به؛ لأنه يقول: ؟وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟[آل عمران: 78]، فذكر أنهم يكذبون عليه فيما قالوا إنه منزل هذا الباطل وجاعله، فشهد عليهم سبحانه بالكذب عليه في ذلك، وأنتم تشهدون لهم بالصدق في قولهم؛ لأنكم تزعمون أن كل فعل منهم فمن الله لا منهم، وبقضائه لا بفعلهم، وفي ذلك والقول به ما به الكفر بالله والشرك. وإن قالوا: هو كما قال الله من عندهم، وهو كذب منهم، والله منه بريء؛ رجعوا إلى الحق، وقالوا في الله بالعدل.

(314/1)

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا؟[الأحزاب: 69]، أفتقولون إن موسى عليه السلام كان بريئاً مما قالوا به فيه، وكذبوا عليه سبحانه بأنه شهد لموسى بالبرآة، وقالوا هم ليس ببرئ، ومن شهد بالبرآة لغير برئ فهو فاسق غوي، والله عن شهادة الزور فمتعال علي. فإن قالوا: إن موسى عليه السلام بريء من ذلك، وإن الله صادق فيما شهد له به؛ آمنوا ورجعوا إلى الحق، وقالوا في الله بالصدق والعدل. وإن قالوا بل الله الذي قضى عليهم بأذية موسى عليه السلام؛ فقد زعموا أن الله المتولي أذية نبيه صلى الله عليه، وقضى عليهم بالقذف له، وفي هذا إبطال ما قال الله وشهد به عليهم، وبرأ نفسه ونبيه من هذا الفعل العظيم.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه فيما يحكي عن نبيه نوح صلى الله عليه إذ يقول: ؟أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ؟[يونس: 41]، أفتقولون: إن نبي الله صادق في قوله: (أعمل)، و(تعملون) فتوجبون له العمل. أم تقولون إنه ليس له في ذلك اختيار ولا عمل ولا لهم، وإن ذلك كله من الله دونهم، فإن قالوا: بل نقول عمله وعملهم، وإنه صادق في ذلك؛ فقد برأوا الله من أفعال العباد، ورجعوا إلى الحق. وإن قالوا: بل هو فعل الله لا فعله ولا فعلهم؛ فقد كفروا وكذبوا قول رسول الله صلى الله عليه.

(315/1)

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه: ؟وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ؟[التوبة: 3]، فما قولكم فيما تبرأ الله منه من المشركين؟ أهو خلق أبدانهم، وما فطر من صورهم، أم هو أفعالهم وما يأتون به من كفرهم وعصيانهم؟ فإن قالوا: إنه تبرأ من أن يكون خلقهم وجعلهم، وأوجدهم وفطرهم؛ كفروا بالله وأشركوا في الخلق معه غيره تعالى الله الكريم. وإن قالوا تبرأ من أفعالهم وعصيانهم؛ فقد أقروا أنه بريء من أفعال العاصين، متعال عن القضاء بفساد المفسدين، وتركوا قولهم بالإجبار، وصاروا من القائلين على الله بالعدل والإحسان.

ومما يُسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ؟فإن عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ؟[الشعراء: 216]، أتقولون: إن الله عز وجل أمر نبيه أن يتبرأ مما يتبرأ الله منه، أم يقولون: إن الله أمره أن يتبرأ مما لم يتبرأ منه؟ فإن قالوا: بل أمره أن يتبرأ مما تبرأ منه؛ فقد صدقوا، وإلى الحق رجعوا، وقالوا: إن الله لم يقض بما برئ منه، ولم يُدخِل فيما نهى عنه. وإن قالوا: إن الله أمره أن يتبرأ مما لم يتبرأ هو منه؛ فقد زعموا أن الله أمر نبيه بمخالفته، وبأن يتبرأ هو منه، ويتبرأ مما تولى هو جل جلاله، وهذا فأكفر الكفر بالله، وأبين الشرك به تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(316/1)

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه فيما يحكي عن أهل النار: ؟رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ؟[الأعراف: 38]، أتقولون: إن الله سبحانه الذي أضلهم، وإن أهل النار ظلموا هؤلاء الذين ادعوا عليهم، وإن الله حكى باطلاً من قولهم، وإنه مضل لهؤلاء المعذبين دون من ذكروا، أم تقولون كما قال الله سبحانه وحكى، إن الكافرين بعضهم أضل بعضاً؟ فإن قالوا: بل الله أضلهم لا هؤلاء؛ كفروا، وردوا ما حكى الله من الحق. وإن قالوا: بل هؤلاء أضلوهم دون الله، فإن الله لم يضل عباده عن طاعته؛ صدقوا وآمنوا، ورجعوا إلى الحق.

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه: ؟فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟[المائدة: 30]، فيقال لهم: خبرونا آلله سبحانه طوَّع له ذلك وقضاه عليه، أم نفسه كما قال الله؟ فإن قالوا: بل نفسه طوعت له ذلك، ولم يقضه الله عليه، ولم يدخله فيه؛ فقد أصابوا وتركوا قولهم، وما كانوا عليه من كفرهم. وإن قالوا بل الله طوَّع له ذلك بقضائه عليه وإشقائه له به؛ فقد خالفوا الله وكذبوه في قوله. والمجبرة تقول: إن الله طوع له ذلك، وقضى به عليه وأدخله فيه، ولولا أنه قضى بذلك عليه لم يفعله. والله يتبرأ عن ذلك ويخبر أن نفسه طوعت ذلك له، وأنه بريء من ذلك سبحانه.

(317/1)

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه فيما يحكي عن الكافرين في يوم الدين من القول حين يقولون: ؟رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ؟[ص: 61]، فقال سبحانه: ؟لِكُلٍّ ضِعْفٌ؟، يريد سبحانه: لكم ولمن قدم ذلك لكم وبه أمركم، وزينه في قلوبكم، وأدخله في صدوركم. فيقال للمجبرة: أخبرونا عن الذي قدم ذلك لهم، وأدخلهم فيه، وقضى عليهم به، فإنا نجد الله سبحانه يخبر أن له ولهم ضعفاً من العذاب، فإن قالوا: إن الله قضى به، وأدخلهم فيه بقضائه؛ فقد زعموا أن الله قد أوعد نفسه العذاب، وأوجب عليه إذ قضى بالكفر عليهم، وأدخلهم بقضائه فيه، وهذا الكفر بالله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وإن قالوا إن الله سبحانه لم يقض بذلك عليهم، ولم يدخلهم فيه، وإن إخوانهم من شياطين الجن والإنس أدخلوهم فيه، وزينوه لهم وحملوهم عليه، وإنهم هم أهل الوعيد الذي ذكر الله سبحانه؛ فقد أصابوا وخرجوا من قول المجبرة، ورجعوا إلى قول أهل العدل.

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه فيما يحكي عن الفاسقين الكفرة الضالين حين يقولون: ؟رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ؟[فصلت: 29]، فيقال للمجبرة: قد نجد أهل العذاب من الكفار يقولون يوم القيامة ما تسمعون، وينسبون ما كان من سبب إغوائهم وإضلالهم إلى الجن والإنس، ويُبرِّؤون الله سبحانه في ذلك اليوم من فعلهم، وأنتم تزعمون أن الله هو الذي أدخلهم في الضلال دون مَن زَعَم أهل الضلال؛ أفتقولون كما يقولون؟ أم تقولون لهم: كذبتم لم يضلوكم؟ فإن قالوا كما قال الله أصابوا، وخرجوا من الكفر. وإن قالوا: بل الله أضلهم دون من ذكروا من الجن والإنس كفروا وخالفوا قول الله.

(318/1)

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه: ؟يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ؟[آل عمران: 71]، فيقال لهم: خبرونا من لبس الحق بالباطل، وخلط عليهم أمرهم، وأخرجهم من هداهم ورشدهم، أنفسهم أم الله؟ فقد نجد الله جل جلاله يقول: ويذكر أن ذلك منهم، فما قولكم أنتم؟ فإن قالوا: هو من الكفار وليس هو من الله؛ فقد أصابوا ورجعوا إلى الحق. وإن قالوا: هو من الله بقضاء وقدر، ولولا القضاء والقدر لم يدخلوا في ذلك، ولم يلبسوا الحق بالباطل؛ فقد كذبوا قول الله، وصدقوا قول الجاهلية، وهذا هو الشرك بالله، بل قول الله الحق المُصدَّق، وقولهم الكَذِب المكذَّب.

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول آدم صلى الله عليه: ؟رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا؟، أفتقولون: إن آدم الذي ظلم نفسه بالخطيئة، وأساء إليها بإدخالها في المعصية، كما قال صلى الله عليه؟ أم

تقولون إن الله أدخله في المعصية، وأخرجه بالقضاء من الطاعة وظلمه بذلك، وإن آدم وحوى لم يظلما أنفسهما؟ فإن قالوا: بل الله الذي أدخلهما في المعصية بقضائه عليهما؛ فقد كذبوا قول آدم وما حكى الله عنه، وفي ذلك الأمر العظيم والجرأة على الله عز وجل وعلى آدم صلى الله عليه. وإن قالوا: بل صدق آدم، فقد رجعوا إلى العدل، وتركوا القول بالجبر وأسلموا.

(319/1)

ومما يسألون عنه قول الله سبحانه: ؟وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى؟[فصلت: 17]، يريد: آثروا الضلال والغي والهوى على ما إليه دعوا، وبه أمروا من الهدى. أفتقولون: إنه كما قال الله، وإنهم آثروا العمى على ما إليه دعوا من الهدى؟ أم تقولون: إنهم لم يستحبوا، ولم يؤثروا العمى على الهدى، وإنهم أُدخِلوا في الهوى، وأُخرِجوا من الهدى بالقضاء من الله الغالب لكل أحد الذي لا غالب له؟ فإن قالوا: بل هم الذين استحبوه، ودخلوا في الهوى من أنفسهم، وخرجوا من الهدى، فقد آمنوا وقالوا بقول الله في ثمود. وإن قالوا: بل الله أخرجهم من الهدى، وأدخلهم في الهوى، فقد كذبوا قول الله، وكفروا به وضلوا ضلالاً بعيداً.

وممّا يسألون عنه قول الله سبحانه: ؟وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى؟[النجم: 23]، فأخبر سبحانه أن الهدى من الله، وزعمت القدرية أن الضلال بأمر الله، وإذا ثبت ذلك فالهدى من رأيهم لا من رب العالمين؛ لأن الهدى والضلال ضدان مختلفان متباينان، لا يجتمعان لجامعهما في حالة، ولا يفعلهما فاعل. والقدرية تقول إن الهدى لم يأت العاصين الضالين من رب العالمين، والله يقول قد آتاهم الهدى من قِبَله، وحل لديهم من عنده، فتركوه ولم يفعلوه، وخالفوه ورفضوه. فأي القولين أصدق وأحق بأن يقبل، أقول الله أم قولهم؟ بل قول الرحمن الصدق والحق، وقولهم الباطل والمحال والفسق.

(320/1)

وممَّا يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه فيما حكى عن أهل جهنم من القول حين يقول: ؟أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ؟[المؤمنون: 105]، فذكر إقرارهم على أنفسهم بأن الفسق والمعاصي كانت منهم، ونفاها عن نفسه أن يكون قضى بها عليهم، بل قال واحتج في ذلك عليهم بقوله: ؟أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ؟[المؤمنون: 105]، فأخبر أن الأمر بالطاعة لهم، ونهيه إياهم عن المعصية كان في حياتهم منه إليهم، فأبَوْا واتبعوا الهوى، وتركوا ما به أمرهم ربهم من اتباع الهدى. ولو كان ذلك

من الله نزل بهم لقالوا: ربنا غلب علينا قضاؤك؛ ولم يقولوا: ؟غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا؟. فإن قالت المجبرة: إن قضاء الله الذي منعهم من الطاعة، وغلبهم على المعصية؛ فقد كذبوا قول الله. وإن قالوا: بل هو كما قال المعَذَّبون وحكاه الله عنهم؛ فقد تابوا وآمنوا، ورجعوا إلى الحق والعدل.

والمعَذَّبون مُقرُّون بالحق على أنفسهم، والمجبرة ترمي به الله وتلزمه إياه، فتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ومما يُسألون عنه قول الله سبحانه: ؟إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى؟، ولم يقل: منَّا الضلالة والردى؛ فيقال لهم: أتقولون إنه كما قال إن منه الهدى الذي ذكره الله، ولم يذكر ضده؟ أفتقولون إنما ذكره عن نفسه فهو منه، وما لم يذكره فليس منه، أم تقولون إنما ذكره ونفاه عن نفسه، فهو كل منه؟ فإن قالوا: بل ما ذكر أنه منه فهو منه، وما لم يذكر أنه منه فليس منه؛ فقد رجعوا إلى الحق وآمنوا. وإن قالوا: بل ما قال إنه منه فهو منه، وما قال أيضاً ليس منه فهو منه؛ فقد كفروا وكذبوا على الله.

(321/1)

وممَّا يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه فيما يحكي عن موسى عليه السلام في قتله الكافر الذي قتله عن غير دعوة منه له إلى الله ولا معرفة أن موسى رسول الله: ؟قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ؟، ولم يقل: هذا من قضاء الله ولا عمله. أفتقولون: إن ذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه من قِبَل الشيطان، أم تقولون إن موسى أُتي من قبل الرحمن؟ فإن قالوا: بل أُتي من قبل الشيطان كما قال الله، وكما قال موسى عليه السلام، وهو أعرف بالله وبكل أمر كان من الله، ولو كان من الله لقال صلى الله عليه وسلم: هذا من قضاء الله؛ فقد صدقوا ورجعوا إلى الحق، وتابوا وخرجوا من الباطل، وصاروا عادلين، ولنبي الله عليه السلام مصدقين. وإن قالوا: بل لم يؤت موسى في ذلك إلا من الله، والله أدخله في قتله ومعصية ربه بقضائه على موسى بقتل الرجل، ولولا قضاء الله لم يقتله موسى؛ كانوا في ذلك لموسى عليه السلام مكذبين، وقد زعموا أنهم أعلم بالله من موسى عليه السلام، وهذا غاية الطعن على الله عز وجل، وعلى نبيه صلى الله عليه، وفي ذلك الكفر بالله صراحاً.

(322/1)

وممَّا يسألون عنه: قول الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ؟وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ؟[الشورى: 52]، فيقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ؟لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ؟، أفتقولون: إنه كما قال الله عنه، وإنه هداهم إلى صراط مستقيم، أم تقولون لم يهدهم؟ فإن قالوا: بل

هداهم بأمر الله، وذلك فِعلٌ لمحمد صلى الله عليه وآله، وسلم حمده الله وأثنى فيه عليه؛ فقد صدقوا وآمنوا، وقالوا بالحق في الله وفي نبيه صلى الله عليه وآله وسلم. وإن قالوا: لم يهد محمد أحداً، وإنما فِعْلُ محمدٍ هو فِعْلُ الله، والله أدخله في ذلك كرهاً، وجبره عليه جبراً، ولم يكن لمحمد فيه فِعْلٌ؛ فقد زعموا أن الله مدح محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بفعله لا بفعل محمد نفسه، وأنه أثنى عليه بغير ما اكتسب وفعل، وهذا غاية الفسق.

وممَّا يسألون عنه قول الله سبحانه: ؟إنا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا؟[الإنسان: 3]، فأخبر جل جلاله أنه هدى الخلق، ولم يهدِ من عصاه وخالف أمره وأباه، وأنه قد اهتدى بهداه الموقنون، وكانوا هم الشاكرين، وكان المخالفون هم الكافرين. فإن قالوا بهذا آمنوا، واهتدوا وصدقوا. وإن قالوا: بل نقول إن شُكْرَ مَن شَكَرَ، وكُفْرَ مَن كَفَرَ مِن الله وبقضاء منه وإدخال لهم فيه، كان ما كان من ذلك؛ أبطلوا قول الله وكذبوه، وخرجوا من الإسلام بذلك.

(323/1)

وممَّا يسألون عنه ويُكَذِّبون به في قولهم قول الله عز وجل فيما يحكي عن الفاسقين من القول، والإقرار على أنفسهم في يوم الدين من قوله سبحانه: ؟وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ؟[سبأ: 31]، ولو كانوا أُتوا من قِبَل الله، لقالوا: لولا الله لكنَّا مؤمنين؛ ولكن ذلك اليوم يوم لا يقال فيه إلا الحق، ولا ينفع فيه إلا الصدق. فماذا تقول القدرية المجبرة، أهو كما ذكر الله عمن يقول ذلك، أم لا؟ فإن قالوا: بل هم كاذبون، وإنما أُتوا من قِبَل الله لا من قبل المشركين من إخوانهم المجرمين؛ فقد قالوا باطلاً وزوراً، وقد أكذبهم المستكبرون في قولهم؛ لأنهم يزعمون أن المستضعفين من قبل الله أتوا وصدوا، وقد قال المستكبرون للمستضعفين في ذلك اليوم وفي ذلك الموقف مجيبين، وكلتا الفريقين المستضعفين والمستكبرين لم يقولوا بما قالت القدرية، بل كلتاهما برأت الله من ذلك سبحانه وجل جلاله، ولم يقولا فيه بقول القدرية.

(324/1)

وممَّا يسألون عنه قول الله سبحانه: ؟فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ؟[الصف: 50] – والإزاغة منه ههنا: فهي الخذلان لهم والتبري منهم، فلما تبرأ منهم، وعدموا التوفيق وفقدوا الترشيد، زاغوا وتزايدوا في الردى والزيغ عن الهدى – أفتقولون: إن الله عزوجل ابتدأهم بالزيغ كما تذكرون، أم بقول الله وما

ذكر عن نفسه تقولون؟ فإن قالوا: بل هو ابتدأهم بالإزاغة قبل زيغهم، وقضى به عليهم وأدخلهم فيه؛ كفروا بإكذابهم قول ربهم؛ لأنه يقول ؟فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ؟، والقدرية تقول: بل الله سبحانه بالزيغ ابتدأهم. وإن قالوا: إن الإزاغة من الله عقوبةً منه لهم على زيغهم عن الهدى، وتركهم ما أُمروا به من التقوى؛ قالوا بالحق، وتعلقوا بالصدق، وشهدوا لله بما شهد لنفسه، وفي ذلك ما يقول الرحمن الرحيم: ؟إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ؟[الرعد:11]، ويقول سبحانه: ؟ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ؟[الأنفال:53].

(325/1)

وممَّا يسألون عنه من قول الله سبحانه مما يبطل ما في أيديهم قوله سبحانه: ؟فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ؟[البقرة: 79]، فأخبر سبحانه أنهم مختارون لكتاب ما كتبه المشترون، المكتسبون لفعل ما فعلوا، وأوعدهم على ذلك وأخبرهم أنهم من أهل النار والويل إذا فعلوا ما لم يرد الله ولم يشاء.
وقالت القدرية: إن الله أدخلهم فيما عنه نهاهم، وإن ذلك الكتاب منه، ولولا أنه قضى به عليهم، وجعله فيهم لم يفعلوه ولم يكتبوه. فأكذبوا قول الرحمن، وصدقوا قول الشيطان، وزعموا أنهم أعلم بأمر الكاذبين المجرمين من رب العالمين، وادعوا أن قولهم الصدق، وزعموا بذلك أن قول ربهم باطل، وأنه ادعى عليهم ما لم يفعلوا، ورماهم بما لم يكسبوا، وأنه فعل ذلك بهم، وذكره عنهم، ورده عليهم، كأن لم يسمعوا قول الله سبحانه وذمه لمن كان كذلك أو قارب شيئاً من ذلك، حين يقول: ؟وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا؟[النساء: 112].
وممَّا يسألون عنه: قول الرحمن الرحيم، الواحد الكريم: ؟وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ؟[الذاريات: 56 - 57]، فأخبر سبحانه أنه خلقهم لعبادته وطاعته، ومن أطاعه أدخله الجنة. وزعمت القدرية أنه خلق الخلق من الجن والإنس ليعبدوا غيره وليطيعوه، وأنه خلق الكافر كافراً في بطن أمه، والله يقول غير ذلك، ويكذبهم في قولهم، ويرد عليهم في كذبهم بقوله: ؟وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ؟[الذاريات:56].

(326/1)

وممَّا يسألون عنه قول الله سبحانه: ؟وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ؟[التوبة: 115].
وله أيضاً عليه السلام:

(327/1)

كتاب الرد على المجبرة القدرية أجاب به صلوات الله عليه ابنه المرتضى محمد
مما أجاب به صلوات الله عليه ابنه المرتضى محمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم جميعاً.
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمدلله أحق ما افتُتِح به رد الجواب، وخوطب به ذوو الألباب، حمداً يوصل إلى جنته، ويوجب المزيد من فضله، فإليه أرغب في الصلاة على محمد، صلى الله عليه وعلى آله.
سألت يا بني، أرشدك الله ووفقك، وسددك للفهم وعلَّمك، عما اختلف فيه الناس، وكثر فيه عند أهل الجهالة الالتباس، حتى نسبوا الله فيه إلى أقبح الصفات، وبرأوا أنفسهم من ذلك وصانوها بزعمهم عنه، واستقبحوه، وبلغوا أشد ما يكون من الغضب على من نسبهم إلى شيء منه، ورضوا به في العزيز، ودعوه به.
فزعموا أن الله شاء شيئاً ونهى عنه، وأراد شيئاً ومنع منه، وأنه أرسل رسله إلى جميع خلقه يدعوهم إلى أمر قد منعهم منه، وذكروا من هذا شيئاً وضروباً يكثر شرحها، وأنا مُبَيِّن لك جميع ذلك وشارحه في مواضعه، ومحتج لله سبحانه بالبراءة مما نسبوه إليه وسموه به - يا بني - حتى يصح لك فساد أمرهم، وقبيح لفظهم بما فيه المنفعة والشفاء والبرهان، والاكتفاء من كتاب الله الفصيح وبما يصح عند كل ذي لب صحيح.

(328/1)

زعم أهل الجهل أن الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء - فكذلك الله عز وجل - وتأولوا ذلك بجهلهم على أقبح التأويل وأسمج المعاني، ولم يعلموا ما أراد الله سبحانه من ذلك، ولو ميزوا ما قبل هذه الآيات وما بعدها، لَتبيَّن لهم الحق ووضح.
فأما ما قال الله سبحانه مخبراً عن قدرته: ؟يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء؟ [النحل:93]، ولم يقل أضللت ولا هديت في هذا الموضع؛ لأنه ذكر الضلال والتثبيت منه في موضع آخر، فانظر كيف

ذكر ذلك، وكيف قال ومن فعله، فقال سبحانه: ؟يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء؟[إبراهيم:27]، كل هذا التثبيت والضلال لم يكن إلا مادة وزيادة للمؤمنين، وحرباً ونقمة للظالمين، ألا ترى كيف يقول: ؟الَّذِينَ آمَنُواْ؟ ولم يقل: الذين ظلموا؛ غير أنه لم يثبت إلا المؤمنين والمستحقين اسم الإيمان بعملهم، ولم يضل إلا الظالمين المستوجبين اسم الضلالة بفعلهم.

ويخبر سبحانه عن قدرته في خلقه، وأنه أراد هدى المؤمنين وثبتهم، وأنه لا يغلبه شيء من جميع الأشياء إذا أراده من جهة الجبر والقسر لأهله؛ لكن الله سبحانه أخبر عن قدرته في خلقه، وأنه لو أراد أن يضلهم أو يهديهم جميعاً لكان ذلك غير غالب له، غير أنه لم يرد ذلك، إلا من جهة التخيير منهم والاختيار لعبادته والرغبة فيما رغبهم فيه والوقوف عما حذرهم منه، وليخبر الجهال أن ما كان من العباد من الضلال والعمى لو أراد أن لا يكون لأمكنه ذلك، وأن قدرته تبلغ كل شيء.

(329/1)

مزاعم المجبرة

وإنما قوله: ؟يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء؟ خبراً عن نفسه، وإثباتاً له القدرة على كل شيء، لكي لا يظن جاهل أن الله عاجز عن أن يمنع الضلال من الضلالة؛ لأن في الناس متجاهلين كثيراً، ألا ترى إلى قوله سبحانه، يحكي عن الجهال إذ قالوا: ؟إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء؟[آل عمران:181]، فأراد سبحانه أن يثبت الحجة لنفسه على الجهال الذين يقولون مثل هذه المقالة فيه.

واحتجوا أيضاً بقول الله سبحانه: ؟وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ؟[يونس:100]، فصدق الله عز وجل، لولا أنه أَذِن بالإيمان وخلَّى بينهم وبينه، ما عرفوه، ولا دلهم عليه، ولا أمرهم به، ولا أرسل إليهم المرسلين حتى بينوا لهم فضله وشريف منزلته، فأي إذن أكبر أو فعل أخطر مما فعل الله بهم، ألا ترى إلى قوله: ؟وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ؟[الزمر:54].

واحتجوا أيضاً بقوله عز وجل ذكره: ؟كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ؟[يونس:33]، فصدق الله العظيم، لقد علم منهم أنهم لا يؤمنون اختياراً منهم ومحبة للفسق، ولو أنهم كانوا عنده مطيعين لا مستحقين للفسق ما سماهم به، وإنما حقت كلمته عليهم بعد فسقهم وصدهم عن أمره ونهيه، وبعد الكفر منهم، لا الابتداء منه لهم، ألا ترى إلى قوله: ؟حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ؟، ولم يقل سبحانه: على الذين آمنوا؛ ولا: على المسلمين؛ وإنما معنى: ؟حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ؟، أي وجب عليهم حكمه ووعيده، وقوله: ؟أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ؟ اختياراً منهم للكفر ومحبة له، وأنه قد حكم عليهم بالفسق لما فسقوا وخالفوا عن أمره ونهيه.

(330/1)

وأما قوله: ؟ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً؟ [البقرة:208]، يعني بكافة: جميعاً، فإذا كان أمره للجميع فكيف يدخل قوم في السلم قد أدخلهم فيه؟ وكيف يأمر قوماً بالدخول فيه، وقد منعهم؟ هذا فعل متلعب عباث، لا ينفذ له أمر في شيء مما يأمر به، ولا مما يريده، فتعالى الله عن ذلك أحكم الحاكمين.

ثم احتجوا بقوله سبحانه: ؟وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ؟، وجهلوا ما قبل ذلك من قوله: ؟أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ؟[الجاثية:23]، فصدق الله عز وجل؛ لم يضله حتى اتخذ إلهه هواه وعبده من دون الله، وعلم ذلك منه ومن فعله، فأضله الله بعد ما فعل وبعد ما كان منه، ولعلمه أنه لا يؤمن ولا يدع ما هو عليه من الكفر، فهذا معنى علم الله به، لم يدخله العلم في شيء، ولم يحل بينه وبين شيء، وإنما هو أخبر بإضلاله له. والإضلال من الله إنما هو في إهماله وترك تسديده، وتوفيقه للخير، ألا ترى كيف يقول سبحانه في موضع آخر: ؟سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ؟[البقرة:6]، وذلك لعلمه سبحانه أنه قد استحوذ عليهم إبليس وأحبوا ما هم فيه من الكفر والضلال حتى لم يتلفتوا إلى شيء مما يوعظون به، ولا تعمل فيهم الموعظة، ولا يتدبرون ما هم عليه من الكفر الذي قد دخل في قلوبهم، فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم، أو وعظتهم أم لم تعظهم لا يؤمنون، أي لا يصدقون بشيء مما تدعوهم إليه ولا يخافون مما تخوفهم منه، قد أعمت حلاوة الكفر أبصارهم، وأصَمَّت أسماعهم، وختمت على قلوبهم حتى منعت حلاوة الموعظة أن تصل أو تدخل في قلوبهم، أو يلتفتون إلى شيء مما يعظهم به محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(331/1)

واحتجوا أيضاً بقوله: ؟مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا؟[الحديد:22]، وتأولوا في ذلك بأقبح التأويل، ولم يتدبروا الآية فيصح لهم فساد تأويلهم، وزعموا أن المصيبة هي الكفر وغيره من أعمال الإثم، وليس ذلك كذلك؛ لأن آخر الآية يدل على غير ما تأولوا وقالوا، وإنما أراد بقوله سبحانه: ما أصاب الناس في الأرض من مصيبة، ولا أصابتكم في أنفسكم، إلا وقد علم الله ذلك من قبل أن يبرأ النفس، وهو خلقها بروؤها، فعنى ما في الدنيا من الآفات التي تقع في الأموال والثمار وغيرها من المصيبات التي يكثر شرحها، ولم يرد بذلك سبحانه الإيمان والكفر والعصيان. ولو أراد سبحانه، ما تأوله الجاهلون من الجبر على الإيمان والكفر، ما قال: ؟وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ؟، وكيف يكون كافراً وفاسقاً من كان محسناً صابراً، ومبشراً بالخير؟ ألا ترى

إلى تصديق ما قلنا في تمام الآية حين يقول: ؟لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ؟[الحديد:23]، فصح عند كل فَهِمٍ أنه إنما أراد بهذا القول محن الدنيا وبلواها، وفرحها وحزنها، وكثرة المال ونقصانه، وزكاة ثماره، ولو كان مراده عز وجل بهذا القول الكفر والإيمان لم يقل: لا تأسوا على الإيمان إن فاتكم ولا تسروا به إن نلتموه، ولا تفرحوا بفوات الكفر لكم، فأي سرور يسر العبد إذا لم يسره الإيمان؟ وأي فرح أعظم منه على العبد وأحلى من فوات الكفر له وتخلصه منه؟ والحجة في هذا نفسه قول من قال بما ذكرناه، ولم يقل: الذين إذا أصابهم الإيمان والكفر فقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون. فبهذا علمنا أن المعنى هو ما ذكرنا من محن الدنيا وآفاتها، ولو كان على ما تأوله الجاهلون ما سمي مصيبة، ولا أمرهم بالصبر عليه للعلة التي شرحت لك، كيف يجوز أن يأمرهم بالصبر على الكفر

(332/1)

ويبشرهم بالثواب؟! هذا أحول المحال.

واحتجوا أيضاً بقوله: ؟إلا أَن يَشَاء اللَّهُ؟ [الإنسان:30]، فصدق الله، لولا أنه يشاء لهم التعريف بالإيمان والكفر، ودلهم على ما عرفوه فعرفهم به، وأرسل إليهم المرسلين وحضهم على اتباعهم، ما عرفوا الإيمان من الكفر، والرضى من السخط، ثم قال في ذلك: ؟يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ؟[النساء:26]، فهذه إرادة الله ومشيئته في خلقه، لا ما قال به الجاهلون.

(333/1)

ومما احتجوا به أيضاً: ؟فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ؟، فتأولوا ذلك على أحكم الحاكمين بأقبح التأويل، ولعمري لو نظروا ما في الآية من قبل هذا الكلام لأسفر لهم الأمر ولعرفوه. ألا ترى كيف يقول سبحانه: ؟يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ؟[هود:105]، يخبر عز ذكره أن ذلك الشقاء والسعادة إنما تكون في ذلك اليوم يعني يوم القيامة لا أيام الدنيا، ولعمري أن يوم القيامة ليوم التغابن والحسرة والندامة، فمنهم ذلك اليوم شقي وسعيد؛ شقي قد شقي بعمله وبما وقع عليه من حكم الله له بالعذاب، وسعيد قد سعد في ذلك اليوم بعمله وبما قد حكم الله له به من الثواب. والشقي أشقى الأشقياء من شقي في ذلك اليوم، والسعيد أسعد السعداء من سعد في ذلك اليوم. وإنما أخبر الله سبحانه عن شقائهم وسعادتهم في ذلك اليوم، لا في الدنيا، ألا ترى كيف يقول: ؟ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ

النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ؟[هود:103]، يعني يوم القيامة، ولو كان الأمر على ما ظنوا لكانت المخاطبة عند أهل اللسان والمعرفة على غير هذا اللفظ، وكان اسم الشقاء والسعادة قد انتظمهم قبل ذلك اليوم، وكانوا مستغنين عن إرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، ولم يكن لله سبحانه عليهم حجة إذ كان المشقي لبعض والمسعد لبعض، والمدخل لأهل الشقاء في المعصية، ولأهل السعادة في الطاعة. هذا أقبح ما نسب إلى الله وقيل به فيه، فنعوذ بالله من الضلالة والعمى، ونسأله الرشد والهدى.

(334/1)

ومما يحتجون به أيضاً، قول الله سبحانه: ؟وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؟[السجدة:13]، يقول: بفعلهم وعملهم حق عليهم قولي وثبتت عليهم حجتي ووقع بهم العذاب؛ لأن قولي وحكمي بالعذاب قد سبق مني على من عصاني، ثم قال: ؟فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إنا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟[السجدة:14]، فصدق الله عز وجل، لو شاء أن يهديهم جميعاً من جهة الجبر لهم لفعله ولم يغلبه ذلك، ولكن لم يشأه سبحانه إلا بالتخيير والاختيار؛ لأنه لو جبرهم على ذلك وأدخلهم فيه غصباً كان المستوجب للثواب دونهم. ألا ترى إلى قوله في آخر الآية متبرئاً من فعلهم: ؟وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟، ولم يقل: بمشيئتي لكم، ولا: بقضائي عليكم، ولا بإرادتي فيكم، ولا: بإدخالي لكم في القبيح من الفعل. فافهم، وفقك الله، ما شرحت لك.

والنسيان من الله، هو: الترك لهم والإمهال، تقول العرب: نسيت الشيء ونسأته أي: تركته ولم أفعله.

ومما يحتجون به أيضاً قول الله سبحانه: ؟وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ؟[يونس:99]، فصدق الله، لو شاء ذلك لأمكنه أن يكرههم على الإيمان إن شاءوا أو أبوا، ولم يكن ذلك بغالب له، ولا ما هو أعظم منه؛ إذ كان ذلك معجزاً وغالباً لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا يقدر على ذلك منهم، ولا يمكنه فيهم، فأخبر الله سبحانه أن ما لا تقدر عليه لو أراده هو من جهة الجبر والإكراه، لأمكنه، ولكنه لم يرده إلا من جهة التخيير منهم والاختيار والرغبة لما استوجبوا بذلك الفعل بثوابه وعقابه. فافهم ذلك وميزه إن شاء الله.

(335/1)

ومما يحتجون به قول الله سبحانه: ﴿قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾ [النساء:78]، فصدق الله عز وجل في قوله، غير أنهم لم يفهموا التأويل؛ لأنه يقول سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[آل عمران:7]، وليسوا من أولئك. وإنما أراد الله عز وجل أن ينقض على الكفار قولهم لأنه إنما كان الكفار إذا أصابهم مما يحبون من جميع الخير مثل: الخصب، وزكاء الزرع، وكثرة النسل، ابتداء لهم من الله بالإحسان والمن، وتوكيداً للحجة عليهم والإنعام، قالوا: هذا من عند الله؛ وإذا أخذهم الله بشيء من فعلهم، وخبث نيّاتهم، وعظم جرمهم، وإكذابهم لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولما جاءهم به، وابتلاهم الله بنقص الخصب، وقلة المطر، والزرع، والنسل، قالوا: شؤم محمد، ومن معه. فأخبر الله سبحانه أن هذه الزيادة والنقصان في جميع ما ذكرنا من الله فقال: ﴿كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾، ثم شرح ذلك مبيناً للخبر: ﴿فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء:78، 79]، يقول: ثواب من الله سبحانه لكم على ما كان من الطاعة، وخزي وعقاب منه سبحانه لكم على ما كان من أنفسكم من المعصية والعمل القبيح، وترك الائتمار لأمره، فيقول: ما أصابكم من الزيادة فيه والصلاح فمن نعم الله عليكم وتفضله وإحسانه إليكم، وما أصابكم من نقصان ذلك وفساده فمن قبيح أعمالكم وسوء نياتكم، وإصراركم على المعاصي، وإنما دخل عليكم من أنفسكم لما فعلتم ما فعلتم حتى وجب الشنآن عليكم بذلك الفعل من الله سبحانه، وهذا تفسير ما جهلوا من ذلك.

(336/1)

ومما يحتجون به أيضاً، قول نوح عليه السلام لقومه عندما جادلهم في الله، فأكثر، فقالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[هود:32]، فقال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[هود:33، 34]، يقول لهم صلى الله عليه: إن جدالي ونصحي لا ينفعكم إذا جاءكم عذاب ربكم ونزل بكم؛ لأنه لا يرد عذاب الله سبحانه إذا نزل بقوم، وهي سنته في الذين خلوا، لا يقبل توبتهم إذا نزل العذاب بهم. وكذلك إذا أراد الله أن يغويكم؛ فالإغواء من الله العذاب، فيقول: لا ينفعكم نصحي إذا نزل بكم إغواء الله وهو عذابه، كما قال عز وجل في موضع آخر: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم:59]. ولم يرد نوح عليه السلام بالإغواء ما تأوله الجاهلون من الضلال لهم وإمدادهم بالغي والتمادي والكفر، وإنما أراد بالإغواء العذاب النازل – ثم كذلك الإغواء في جميع ألسن العرب: لقيت غياً، أي عذاباً وبغياً، ولقي فلان غياً – كل هذا تحذير لهم لنزول العذاب بهم، وأنه لا تنفعهم نصيحة إذا نزل العذاب بهم، لم يصرف عنهم، كذلك قال الله سبحانه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا

رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ؟[غافر:85]. وكثير مثل ما ذكرنا في القرآن مما احتجوا به وتأولوه على غير ما أنزل الله، وفي فساد ما أفسدنا عليهم من تأويلهم فيما ذكرنا واحتججنا عليهم به ما يغني عن كثير من حججهم وقبيح تأويلهم وباطل قولهم.

(337/1)

ما يستدل به أهل العدل على أهل الجبر

وقد قال الله سبحانه محتجاً على من نسب مثل ما نسبوا إليه في كثير من القرآن، وفي مواضع هي أكثر مما احتجوا به وتأولوه، فقال سبحانه: ؟إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ؟ [النحل:90].

وقال عز ذكره مكذباً للمشركين ولمن قال بقولهم، ومحتجاً عليهم ومخبراً بإفكهم وعوارهم: ؟وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِن اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟ [الأعراف:28].

(338/1)

ثم قال عز ذكره: ؟وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ؟ [التوبة:115]، ينفي عن نفسه عز وجل ما أسندوا إليه من خلقهم شقياً وسعيداً، ومن أن يضلهم بعد أن كان منه من الابتداء لهم بالإحسان والدعاء، والدلالة على الهدى، وعلى ما يحب وعلى ما يكره، وما يحذرون، وما يتقون؛ فإذا تبين لهم ذلك، فصدوا عنه حقت عليهم كلمة الضلال، وحاق بهم الإضلال من الله بذنوبهم ودنيء فعلهم. ثم نسب مَن نسب إليه هذا القول وقال به عليه إلى قول الذين أشركوا: ؟سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وإِن أَنتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ؟[الأنعام:148، 149]، يقول: مثل هذا القول قاله الذين من قبل هؤلاء حتى نزل بأسنا وذاقوه، وذلك أنهم كانوا يعملون الخبائث والمعاصي، فإذا نهوا عنها وقال لهم أنبياؤهم ومن يتبع الأنبياء: لا تفعلوا، ولا تعصوا ربكم؛ قالوا: لو شاء ما أشركنا، ولكنه أدخلنا في المعصية وقضاها علينا؛ فأخبر الله عز وجل أن ذلك ليس كذلك، وأنهم كانوا في ضلال وتكذيب لمن يقول لهم: إن الله لم يأمرهم ولم يقض عليهم بالمعصية؛ حتى ذاقوا بأسه وهو عذابه. وتبرأ من ذلك، وعلم أنه لو كان شاء لهم الإشراك ما نزل بهم بأسه. ثم قال محتجاً

عليهم: ؟هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟، يقول: من علم عن الله فبينوا لنا أن هذا الفعل والقول والمشيئة من عند الله. ثم قال مكذباً لهم أيضاً: ؟إِن تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وإِنْ أَنتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ؟[الأنعام:148]، يقول: إن يتبعون إلا أهواءهم بما

(339/1)

يظنون، وإن هم إلا يخرصون، أي يكذبون في قولهم على أنه شاء لهم ومنهم الكفر، وأنه لو شاء ما أشركنا، ولكنه أدخلنا فيه ومنعنا من الدخول في الطاعة. ثم قال: ؟فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ؟[الأنعام:149]، يقول: فلله الحجة بما قدمه إليهم ودعاهم إليه، وأنذرهم على ألسن رسله صلوات الله عليهم. ثم قال: ؟فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ؟، يعني يجبركم جميعاً على الهدى، ولكنه لم يشأ ذلك إلا بالتخيير منكم والاختيار له، وكذلك أرسل إليكم الرسل، وأمركم بطاعتهم وحذركم معصيتهم، ولو شاء لكم الإيمان بالجبر منه والإكراه والمنع لكم ما احتاج أن يرسل إليكم رسله ولا يدعوكم إلى طاعته؛ لأنه إذا أجبركم على ما يريد ولم يُمَكِّنكُم ولم يفوضكم ولم يجعل لكم إرادة ولا قوة ولا استطاعة فهو الذي يجبركم على ما يريد، ولا خيار لكم ولا حاجة له ولا لكم إلى الرسل، ولا إلى الدعاة؛ لأنه قد أشرككم فيما يريد من خير وشر، ومن كانت هذه حاله فإنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، غير ملوم في عمل الشر، ولا محمود في عمل البر ولا حجة عليه؛ فإن عذب على قبيح فقد ظلم، وإن أثيب فلم يستأهل ثواباً على جليل الطاعة، وليست هذه الصفة من صفة الحكماء.

(340/1)

ألا ترى إلى قوله: ؟وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ؟[الذاريات:56، 57]، فأخبر سبحانه أنه لم يخلقهم إلا لعبادته، ولم يخلقهم لمعصيته، ولم يشقِ ولم يسعد ولم يجبر، ولم يطبع أحداً على شيء من هذا، ولم يسم مؤمناً ولا كافراً إلا بإيمانه وكفره وفعله، لا بخلقه عز وجل؛ لأنه ليس بظلام للعبيد. ولو طبعهم على شيء من هذا كان المحسن غير محسن، والمسيء غير مسيء؛ لأن كل من فُعِل به شيء وأدخل فيه غصباً كان غير محمود عليه، ولا مذموماً فيه، وكان المحسن ليس بأحق باسم الإحسان من المسيء، ولا المسيء بأحق باسم السواية من المحسن، والتبس الأمر فيما بينهما، وأمكن لكل أن يدعي ما أحب؛ لو قال المسيء: أنا محسن؛ لأمكنه ذلك، ولما عرف المسيء من المحسن على قولهم وقياسهم.

ثم قال سبحانه: ؟لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ؟ [النساء:123]، يقول: ؟يَعْمَلْ؟، ولم يقل: عملت به وقضيت عليه؛ وإنما كان أهل الكتاب، يعني اليهود وغيرهم من أهل الكتاب يقولون: ليس يعذبنا الله، نعمل ما شئنا، نحن أبناء الله وأحباؤه، فأكذبهم الله وأعلمهم وغيرهم أنه لا يظلم أحداً، وأنه من عمل شيئاً جزي به.

ثم قال سبحانه: ؟أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ؟[إبراهيم:28]، يقول: بدلوا ما أنعم الله به عليهم من إرسال الرسل والدعاة، والدلالة على الخير كفراً بذلك، أي جحدوا به، ودعوا الناس إلى المعصية والكفر به وأحلوهم.

(341/1)

ثم قال مخبراً لهم محتجاً عليهم: ؟وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ؟ [الأنعام:151]، والله أعدل وأحكم من أن ينهى عن شيء وهو منه، أو ينهى عبداً عن شيء قد أراده، أو عن شيء لا يقدر على عمله أو على الخروج منه، أو يأمرهم بشيء لا يمكنهم الدخول فيه، ولم يكلف الله عباده إلا ما يقدرون عليه ويطيقونه برحمته ورأفته وفضله، وكل ما نهى الله عنه فليس منه ولم يشأه، ألا ترى إلى قوله عز وجل: ؟وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ؟[الزمر:7]، معنى الكفر هاهنا: الجحود له ولنعمه وفضله عليهم الذي ابتدأهم به، وإن يشكروا أي يطيعوا فيعملوا بطاعته يرضى ذلك الفعل منهم ويثيبهم عليه.

ثم قال أيضاً: ؟وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى؟ [فصلت:17]، يخبر عز ذكره، ويبين أن الذنوب من العباد بالاختيار والاستحباب منهم، وأنه قد هداهم فاستحبوا الكفر وآثروه على ما فعل بهم من الهدى، ثم قال: ؟وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى؟[الأعلى:3]، أي ابتدأ الخلق بما ذكرنا من الدلالة لهم على الخير والهدى.

ثم قال عز وجل لنبيه عليه السلام متبرئاً من الضلالة مسنداً لها إليهم: ؟قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ؟[سبأ:50]، معنى ذلك: إن ضللت فإنما أضل من نفسي، (على) تقوم مقام (من)؛ لأن حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً، وهذا كثير في أشعار العرب، قال الشاعر:

لدى لججٍ خضر لهن نئيج

شربن بماء البحر ثم ترفعت

(342/1)

يريد: من لجج؛ فجعل مكانها: (لدى)، وكذلك حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً. أَفَترى محمداً يضل من نفسه ويهتدي من الله، وهذا الخلق يضلون من عند الله؟ معاذ الله!! كيف ننسب هذا الفعل القبيح والاسم إلى الله، والظلم ونبرئ منه أنفسنا، والله عز وجل يقول: ؟وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ؟[الأعراف:180].

ثم قال عز وجل: ؟قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ؟ [الأعراف:28].

(343/1)

وقال: ؟وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إلا إِيَّاهُ؟ [الإسراء:23]، ولم يقل: وقضى ربك أن تكفروا به وتعبدوا سواه من الحجارة والنار وغيرهما من المعبودات، فكان أمره وقضاؤه ومشيئته أن لا يعبدوا غيره، بالتخيير من العباد لا من جهة الجبر لهم على تركها، فقال: ؟وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا؟[الإسراء:31]، ثم قال أيضاً: ؟وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى انه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً؟[الإسراء:32]، ثم قال عز وجل: ؟وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إلا بِالحَقِّ؟[الإسراء:33]، ؟وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟[الإسراء:34]، ثم قال: ؟وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً؟[الإسراء:36]، ثم قال: ؟وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا؟[الإسراء:39]، أفترى الله سبحانه قضى أن يجعل معه إلهاً آخر ورضي ذلك أو أراده أو شيئاً مما ذكرنا من قتل المشركين أولادهم، ثم عظَّم ذلك وذم عليه فاعله أشد الذم، ورضي بالزنا ثم قال: ؟إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً؟، وبقتل النفس بغير حق، أو بأكل مال اليتيم، أو الكذب، ثم قال: ؟كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً؟. فإن كان قضاه سبحانه، فكيف يسألهم عن شيء هو فعله بهم؟ وإن كان منهم فالسؤال لازم لهم والحجة عليهم. وإن كان منه، فكيف يسألهم عن فعله؟! هو سبحانه أعلم بما يفعل بهم منهم بأنفسهم.

(344/1)

انظر إلى تبيان ذلك، كيف يقول: ؟وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا؟ [الكهف:4-6]، أَفَترى الله، سبحانه وتقدست أسماؤه، قضى وأمر وشاء وأراد أن يقول الجاهلون: إنه اتخذ ولداً؛ ثم قال: ؟كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ؟؟ فكيف تكون كبيرة وهي قضاؤه وأمره؟ ثم قال: ؟إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا؟، فكيف يقضي عليهم سبحانه بالكذب أو يكذب نفسه؟ تعالى

عن إكذاب نفسه وظلم عباده، فهو يتبرأ منه وينسبه إلى عباده. ثم قال لنبيه عليه السلام عندما عظم إشراكهم عنده: لعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا، فلا تفعل بنفسك ذلك، فإنا قادرون على جبرهم وقسرهم على الإيمان.

(345/1)

ثم قال: ؟وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا؟ [الكهف:29]، فقال مفوضاً إليهم: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ؟، أَفَتَراه قال هذا القول، وقد منع الكافر من الدخول في الإيمان، وحال بين الفريقين، وبين المشيئة والاختيار لأنفسهم، ثم قال ساخراً منهم مستهزئاً بهم: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ؟؟ معاذ الله ما كان ربي بظلام للعبيد؛ لكن مَكَّنَهم وأعطاهم من القوة والاستطاعة ما مَكَّنهم به من الإيمان والكفر، ورغَّبهم وحذَّرهم ومكنهم وفوضهم، ثم قال حينئذٍ: من شاء الكفر فقد جعلت السبيل إليه، ومن شاء الإيمان، فقد جعلت له الطريق. ثم أعلمهم أن الكفر ظلم لأنفسهم، وأنه قد أعد للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، زيادة لهم في الوعيد على معاصيه، ثم قال: ؟إن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إنا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً؟[الكهف:30]، فأخبر أنه لا يضيع أجرهم إذا عملوا حسناً، ترغيباً منه لهم بالوعد على طاعته، وترك معصيته، ولو كان قضاه عليهم، ما قال: عملوا؛ لأنهم مجبرون على ذلك الحسن، ومن جُبِر على شيء فغير محمود فيه، ولو كان ذلك كذلك لم يقل: ؟إنا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً؟، كيف يكونون أحسنوا عملاً، وهو المحسن بهم والحاتم عليهم، ثم ما أقبح ما أسند أهل هذا القول إلى الله سبحانه.

ثم قال: ؟أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ ؟ [النور:21]، فأخبر سبحانه أن الفحشاء والمنكر من الشيطان، وتبرأ منهما ونسبهما إلى غيره، ووعد من اتبعه العذاب، فالله يبرئ نفسه من كل ظلم وفحشاء ومنكر وباطل وإضلال، والجاهلون يلزمونه ذلك.

(346/1)

وقال: ؟أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا؟ [الفرقان:43]، كل هذا يخبر عنهم بالقدرة على المعصية والفعل لها، وأن ذلك ليس منه ولا أراده؛ لأنه أكرم من أن ينهى عن شيء وهو يريده، أو يأمر بشيء وهو يريد غيره، أو يحمل العباد عليه. وكل ما نهى الله عنه فليس منه، وكيف يكون

منه ما نهى عنه؟ هذه صفة اللّعابين، تعالى الله عنها علواً كبيراً.
وقال مخبراً ومُخيِّراً: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟ [النمل:89، 90]، فأخبر سبحانه أنه يجزيهم بفعلهم في الحسنة والسيئة، لا بفعله بهم وقضائه عليهم، وأن ذلك منهم وفيهم، ألا ترى كيف يقول: ؟هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟؟ أي لم يظلمكم ولم يجزكم إلا بعملكم لا بغيره، توفيقاً منه لهم، وتبرياً من الظلم إليهم. فلو كان قضى ذلك عليهم لما كانت عليهم حجة ولا تبرأ سبحانه من فعله ونسبه إليهم، إذ كان ذلك أكبر الظلم لهم، تبرأ الله عن ذلك، ولم ينزهوه عنه، فقد ظلموا أنفسهم.
ثم قال أيضاً: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ [القصص:84]، وهذا أيضاً القول فيه كالقول في الذي قبله.
ثم قال: ؟أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ؟ [العنكبوت:4]، يقول: أم حسب الذين يعملون المعاصي أنهم يغلبون ويسبقون إلى العمل بها، ولو شئنا ما سبقونا إليها ولا فاتونا بها، فكل هذا يُعلَم أنه بريء من أفعال العباد، وأنها منهم بغير أمر له إلا بما فوض إليهم، ومكَّنَهم وخيَّرهم.

(347/1)

ثم قال لا شريك له: ؟وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ؟ [العنكبوت:6].
وقال: ؟مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ؟[الروم:44]، فانظر كيف تبرأ في جميع الحالات من أعمال العباد، يخبر أنها منهم لا منه، وأنه يجزيهم بفعلهم وعملهم، لا بقضائه ولا بفعله، ولا شيء كان منه مُدخِلاً لهم في شيء من هذه الأعمال.
وقال في قصة لقمان صلى الله عليه: ؟إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ؟ [لقمان:13]، أَفترى الله سبحانه استعظم الشرك وهو منه، وقد قضاه وقدره وحتم به على فاعليه، واستعظمه منهم وهو قضاه عليهم، وحتمه في رقابهم، وأدخلهم فيه، يا سبحان الله!! ما أقبح هذا من القول والصفة في بني آدم، فكيف في الحَكَم العدل؟
وقال: ؟لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ؟ [المدثر:37]، أَفتراه لم يجعل فيهم مقدرة على التقدم ولا على التأخر، وهو يقول: ؟لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ؟.

(348/1)

ثم قال: ؟وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ؟ [محمد:31]، وقال: ؟لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ [يونس:14]، فلو كان الأمر على ما يقول الجاهلون ما كان إليهم تقدم ولا تأخر، ولا احتاجوا إلى بلوى ولا لينظر عملهم. فكان بكل ما يدخلهم فيه عالماً أنهم لا يقدرون على غيره. وأي مشيئة لهم حين يقول: ؟لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ؟؟ وكيف لهم بالتقدم والتأخر وقد منعهم من ذلك، وحال بقضائه وحكمه عليهم بينهم وبين ما أمرهم به من التقدم والتأخر؟ - ومعنى: ننظر، أي: نحكم عليكم بما يكون من خبركم - وكتاب الله كله على ما ذكرت من ثواب الله لعباده، وعقابه لهم كل ؟بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ؟، و؟بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ؟، وبما ؟كَانُوا يَجْحَدُونَ؟، و؟بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ؟، لم يقل عز وجل في شيء منه: بقضاي عليكم، ولا بمشيئتي ولا بإرادتي، ولا بقدرتي فيكم، ولا بإدخالي لكم في الطاعة، ولا بإخراجي لكم من المعصية. كل هذا بين أن ثوابه وعقابه على عملهم، والكتاب كما قلنا يصدق بعضه بعضاً، ليس من كتاب الله شيء ينقض شيئاً؛ لأنه من حكيم عليم، ولولا ذلك لكان فيه الاختلاف، كما قال سبحانه: ؟وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً؟[النساء:82].

ثم قال: ؟قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا؟ [الشمس:9-10]، فكيف يقضي بالفواحش، ثم يقول: ؟قَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا؟؟ أَفتراه خيب نفسه؟! تعالى عن ذلك علواً كبيراً!

(349/1)

ثم قالوا: ؟رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ؟ [ص:61]، وتعالى عن أن يقول هذا لنفسه، ولكن قدَّمه شياطين الإنس والجن، ألا ترى إلى قوله: ؟رَبَّنَا إنا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا؟[الأحزاب:67]، اعترافاً منهم بذنوبهم، وأن عملهم وما نزل بهم من العقوبة كان بطاعتهم لسادتهم وكبرائهم، ولم يقولوا - وقد احتاجوا إلى الحجة لعظم ما نزل بهم -: ربنا أطعناك واتبعنا قضائك وأمرك، وما قدَّرت لنا. ولو كان ذلك ما تركوا قوله لما لهم فيه من الحجة على الله سبحانه. والسبيل فهو سبيل القصد والخير، ألا ترى كيف يقول: ؟إنا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا؟ [الإنسان:3]، يقول: دللناه على سبيل الخير، فإن شكر فذلك واجب عليه ولنفسه يعمل ويمهد، وإن كفر بما قلنا به فذلك راجع ضرره عليه، وإن الله غني حميد عن شكره، وإنما ثواب شكره راجع عليه، ونافع له.

وقال سبحانه: ؟رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ؟ [فصلت:29]، أفترى الله سبحانه أراد بهذا القول نفسه أن كان في قولهم هو المضل لعباده؟ سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. ما أفحش ما يسندون إلى الله!!

(350/1)

ألا ترى إلى ما يقول آدم عليه السلام، عند ما كان منه: ؟رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟ [الأعراف:23]، أفترى آدم عليه السلام استغفر ربه من قضائه عليه وقدره وحتمه لمعصيته عليه أم من ذنب عمله هو من نفسه، والله بريء منه؟ أو ترى أن الله نهاه عن أكل الشجرة، وقد قضى عليه أكلها وحتمه في رقبته. ولو كان ذلك كذلك ما أقر عليه السلام على نفسه بالخطيئة، ولقال: هذا قضاؤك علي ومشيئتك، وإنما أخطأت وأكلت من الشجرة، ولولا قضاؤك ومشيئتك ما قدرت على أكلها، فلعلمه بالله أقر صلى الله عليه أن الخطيئة كانت منه، وبرأ ربه منها، تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. وكذلك قال موسى عليه السلام لما وكز الرجل فقضى عليه، فقال موسى عند ذلك: ؟هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ؟ [القصص:15]، ولم يقل: هذا من قضاء الله علي، ولا من تقديره فيَّ، ولا من إضلاله لي، فبرأه سبحانه من ذلك، ونسبه إلى الشيطان وإلى نفسه، فقال: ؟رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؟[القصص:16]. فهذا قول أنبياء الله يلزمون أنفسهم الخطايا، ويبرئون من ذلك خالقهم، والجهال يبرئون أنفسهم من ذلك ويلزمون الذنوب خالقهم.

وانظر إلى قول الله سبحانه: ؟حَتَّى إذا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ؟ [الزخرف:38]، أفترى الله سبحانه يعني نفسه بذلك أم يعني مجترم الذنب؟ تعالى الله من أن يضل أحداً أو يكون له أحد قريناً.

(351/1)

ثم أخبر عن كفرهم وقولهم الكذب على الله، وأنه غير راض بذلك، فقال: ؟أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؟ [الصافات:151-152]، أفترى الله أمرهم بالكذب عليه وقضاه عليهم ثم تبرأ من شيء هو فعله، ورمى به غيره سبحانه؟ ألا ترى كيف يقول عز وجل: ؟ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا؟[النساء:112]، أفترى الله عز وجل بهتهم بما لم يفعلوا، وظلمهم بما لم يعملوا، ووصف نفسه باحتمال البهتان والإثم المبين؟ كذب من قال على الله بهذا القول.

وقال تقدست أسماؤه: ؟إنا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ؟ [الزمر:41]، فبين لهم أنه بريء من فعلهم، وأنه إنما يجزيهم بما يكون فيهم بعد التبيين لهم، والترغيب والتحذير: ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ؟[الأنفال:42]، أي من أهلك نفسه بالمعصية بعد ما عرفها فهو الهالك المهلك لها؛ لأنه مدخل لنفسه فيها، ومن أحياها بالطاعة فقد عرف طريق الطاعة بما قلناه من تعريف الله لهم

الطريقين، وهدايته لهم النجدين، لكيلا يكون لأحد على الله حجة.

ثم قال عز وجل: ؟لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى؟ [طه:61]، أفتراه يعني نفسه بهذا السحت؟! ثم قال: ؟وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ؟[النساء:171]، أفترى الله نهاهم عن قبيح اللفظ به وهو أمرهم به؟ وكره منهم أن يقولوا: ؟ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ؟[المائدة:73]، وهو قضاه عليهم وشائه منهم، وأراده لهم؟! جل الله عن هذه الصفة المشبهة لصفات اللعابين المتلعبين.

(352/1)

وقال أيضاً لنبيه عليه السلام: ؟لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟ [التحريم:1]، أفترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حرم ما أمر الله بتحريمه، وقدره عليه وقضاه له ثم يستخبره عن ذلك التحريم فينهاه عنه ويعاتبه فيه، ويعيبه عليه، وهو الذي أدخله فيه وقضاه عليه؟! معاذ الله أن يكون هذا أبداً، لكن هذا التحريم كان من فعل محمد لا من فعل الله. ألا ترى إلى أمر الله سبحانه له بترك ما لم يرضه من فعله في ذلك، وأمره أن يرجع إلى ما أحل له، ويكفر يمينه، فقال: ؟قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ؟[التحريم:2].

(353/1)

ثم قال سبحانه: ؟وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ؟ [ق:23- 26]، ثم قال سبحانه: ؟قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ؟[ق:27- 29]، وقال: ؟الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟، أفترى الله سبحانه الذي أضله وأمره أن يجعل معه إلهاً آخر ثم يقول ؟أَلْقِيَاهُ؟، يعني: الضال والمضل؟ أفتراه أراد بهذا نفسه؟ إذ كان في قولهم أنه المضل لهم والمدخل لهم فيما دخلوا فيه من خير وشر، فكيف وقد تبرأ في آخر الآية، فقال: ؟لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ؟، ولم يقل سبحانه: لا تخاصموني ولا تحتجوا عليَّ؛ لأنهم لم ينسبوا إليه شيئاً من الظلم ولا من الضلال لهم، ولا من إدخالهم في شيء مما نهاهم عنه، وإنما نسب ذلك بعضهم إلى بعض. ولو نسبوا إليه كانت الخصومة معه لا مع غيره، وكانت الحجة لهم، والقول عليه؛ ألا ترى إلى قول المذنب الذي جعل مع الله إلهاً آخر كيف يلزم الذنب غير ربه؟ وكيف لم يقل: أمرني ربي أن أجعل معه إلهاً غيره؟ ثم قال: ؟كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ؟، أفترى أن هذه الصفات القبيح وصف الله بها نفسه؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!

(354/1)

ثم قال سبحانه: ؟وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ؟، أفترى الله سبحانه أراد بذكر الشركاء غيره من المغوين أم نفسه بهذا التزيين؟ فإن كان شركاؤهم هم غيره، فقد برأ نفسه سبحانه أن يضل ويزين شيئاً (من المعاصي لأهلها، وإن كان هو الشركاء فقد عنى إذا نفسه) بهذا القول، وهذا غير معروف في اللغة، يذكر غيره ويخاطبه وهو يريد بالذكر نفسه، هذا محال في القول لا يقبله العقل.

وانظر إلى قوله فيما يحكيه عن الهدهد، فقال: ؟وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ؟ [النمل:24]، ولم يقل زيَّن الله لهم السجود للشمس، ولا أنه صدهم عن السبيل.

(355/1)

وكل نبي أو غيره ممن عقل يبرئ الله سبحانه من الذنوب ويستغفره منها، ويسند الخطأ فيها إلى نفسه، ألا ترى إلى قوله سبحانه لموسى صلى الله عليه: ؟اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى؟ [النازعات:25.17]، أفترى الله تبارك وتعالى الذي أضل فرعون وأدبره عن الطاعة، ومنعه أن يتزكى، وأمره بالتكذيب والعصيان، وأن يدعي أنه الله الأعلى، وقد فطره الله على ذلك وحمله عليه، ثم أرسل إليه موسى صلوات الله عليه، يدعوه إلى أن يهتدي ويتزكى، وقد منعه منهما، وفطره على غيرهما، وحال بينه وبين العمل بهما، ثم يرسل إليه من أرسل، وأنزل به العذاب عندما كان من سعيه في طاعة الله وأمره؟ هذا أكبر الظلم وأقبح الصفة في المخلوقين، تعالى الله عما أسند إليه الجاهلون من هذه المقالة الفاسدة الضالة. ألا ترى إلى قول الله سبحانه: ؟وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى؟[طه:79]، ينسب الضلالة إلى فرعون والإضلال، ويبرئ منها نفسه.

وانظر أيضاً إلى قوله عز وجل: ؟اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ؟ [البقرة:175]، يقول سبحانه: استحبوا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، ممثلاً في ذلك بالبيع والشراء؛ لأنه في كلام العرب هذا المثل.

(356/1)

وانظر أيضاً إلى قوله في ابن آدم: ؟فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟ [المائدة:30]، ولم يقل سبحانه: قدرته ولا قضيته عليه، ولا أمرته ولا رضيته منه، بل برَّأ نفسه من فعله، وألزم المعصية أهلها وفاعلها، ألا ترى إلى قوله: ؟فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟ أخبر أن ذلك الفعل من نفسه لا من غيرها.

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى، يحكي عن نوح صلى الله عليه: ؟رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وإِن وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ؟[هود:45]، أفتراه قضى هذا القول على نوح، ثم عابه عليه وعنفه فيه، فقال: ؟إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ؟ [هود:46]. وانظر إلى تنزيه نوح عليه السلام لخالقه من ذلك، وإلزامه الذنب نفسه، فقال عليه السلام: ؟رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ؟[هود:47]، فأخبره أن هذه المسألة منه، فاستغفر منها (ولم يقل إنه قضاؤك وقدرك عليَّ، ولو كان قضاء الله عليه ما استغفر منها)، كيف يستغفر الله من فعله؟ إنما يتوب العباد إلى الله ويستغفرونه من أفعالهم لا من فعله، كذلك كل فاعل قبيح يتوب منه ويستغفر ربه من فعله، ولا يستغفر ربه من فعل غيره، ولا يُلزم الله من فعل غيره شيئاً.

(357/1)

وانظر إلى قوله عز وجل لنبيه عليه السلام: ؟وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا؟ [النساء:105]، أفترى الله سبحانه نهى نبيه عليه السلام عن شيء هو يريده وقد قضى عليه فعله، وأمر نبيه بترك شيء لا يقدر على تركه؟ لو كان ذلك كذلك ما نهاه عنه، لعلمه أنه لا يقدر على تركه. وكثير في كتاب الله عز وجل مما نهى عنه أنبياءه وعابه عليهم وعاتبهم عليه، أفترى الله سبحانه عاب ذلك عليهم، وكرهه من أفعالهم، وهم لايجدون إلى الخروج سبيلاً؟ أو عاتبهم عليه وهو يعلم أنهم يطيقون رفضه والخروج منه؛ فكذلك عاتبهم عليه وذمه من أفعالهم.

وانظر إلى ما يقول لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ؟فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ؟ [الشعراء:213]، أفتراه نهاه عن شيء يقدر عليه، أو عما لا يقدر عليه؟ فإن كان نهاه عن شيء يقدر على تركه فالحجة لله سبحانه قائمة على خلقه. وإن كان نهاه عن شيء لا يقدر عليه فليس لله على خلقه حجة، إذ كانت حاله كحالة من يُدعَى إلى ما لا يطيق، وكُلِّف ما لا يقدر عليه، وعُذِّب بذلك مظلوماً. وكيف يكون ذلك كذلك والله سبحانه يقول: ؟وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا؟[النساء:29]، فأين الرحمة ممن كلفهم ما لا يطيقون، وافترض عليهم ما لا يقدرون

على تأديته، لمنعه لهم منه، وحجزه إياهم عنه؟ كذب من قال على الله بهذا القول وخاب في الدنيا والآخرة.

(358/1)

ألا ترى كيف يخبر عن تمكينه لعباده وتخييره لهم وعن تخيره لهم، وعن الاستطاعة والقدرة التي مكنهم بها من العمل للطاعة والمعصية، فقال: ؟وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟ [المائدة:65]، ثم قال: ؟وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ؟[المائدة:66]، ثم قال: ؟وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ؟[الأعراف:96]. فانظر إلى قوله: ؟وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ؟، ؟وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى؟، ؟وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ؟، ؟وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ؟، وهذا في القرآن كثير يدل عند أهل اللغة والمعرفة والنصفة على أنهم ممكنون مفوضون قادرون على ما أمروا به من العمل به والترك لما نهوا عنه، وكثير مما في كتاب الله عز وجل يشهد لنا بما قلنا، كرهنا بذكره التطويل عليك.

فميز يا بني، علمك الله، ما قد شرحت لك من هذا القول، وتدبر ما حكيت لك من قول الكذابين على الله، يبن لك الصدق، وتعلم الحق؛ لأنه واضح مبين لا يخفى على أهل المعرفة والعقل؛ لأن العقل أكثر حجج الله سبحانه على عباده، ولذلك لم يخاطب إلا ذوي الألباب والعقول، وإياهم قصد بالأمر والفرض والنهي، وأسقط جميع ذلك عن المجانين والصبيان الذين لا عقول لهم. فسبحان البر الرحيم بعباده، المنصف لهم، المتفضل عليهم بالإحسان، الدال لهم على الإيمان، المبتدي لهم بالنعمة قبل استحقاقها، المعافي لهم من النقم بعد وجوبها.

(359/1)

واعلم – يا بني – أن جميع من قص الله عليك نبأه في كتابه من المخاطبين الأنبياء عليهم السلام فمن دونهم مقرون بالذنوب، معترفون بها، مستغفرون الله سبحانه من جميع ذلك، وفي أقل مما ذكرت أكثر الحجج، وأبلغ الكلام، وأجمل الموعظة، وأحسن الهداية عند من عقل وأنصف.

(360/1)

حجج العقل لأهل العدل والتوحيد

ومن أكبر الحجج عليه ما يصح ويثبت عند أهل النُّهى أنهم زعموا أن جميع ما في الأرض من خير أو شر الله قضاه وأراده وشاءه وقدره. وفي الأرض من يقول: إن الله ثالث ثلاثة، وأن له سبحانه ولداً وصاحبة؛ ومنهم من يقول: أنه لا رب ولا خالق، وأن الأشياء لم تزل كذا: ليل ونهار، وشمس وقمر، وسماء وأرض، ومطر وصحو، وموت وحياة؛ ومن ينكح أمه وابنته واخته وعمته، وكل ذي رحم محرم عليه، ويأتي كل قبيح من الفعل رديء، ويغشى الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ويقول: إن ذلك من الله ومن قضائه وإرادته ومشيئته، وأن كل عامل عمل منه شيئاً فبأمر الله ورضاه وإرادته.
فيا سبحان الله!! ما أعجب هذا من قول وأشنعه! وأحمق من زعم أن أحداً ما يعمل شيئاً مما ذكرنا لله عاص! وما أجهل من ذكر المعصية!
كيف تكون المعصية عندهم؟ ومن صلَّى ومن زنا كلاهما مطيع لله؛ قضى لهذا بالصلاة، وقضى على هذا بالزنا. فكل من عمل شيئاً من الأشياء حسناً أو قبيحاً، إيماناً أو كفراً، أو غيرهما من الأشياء كلها ففاعل ذلك الشيء مؤد لأمر الله وقضائه، مستعمل نفسه في أداء مشيئته وإرادته. فليس على وجه الأرض عاص، ولا تعرف المعصية من الطاعة، ولا يعرف من يقع عليه اسم الطاعة، ولا اسم المعصية، ولا من يستحقه.

(361/1)

وكيف يكون من سعى في إرادة الله عاصياً؟! لا يُعرف هذا الكلام في شيء من لغة العرب ولا العجم، ولا اسم المعصية التي ذكرها الله في كتابه، وسمى قوماً عصاة، وسمى من عمل به عاصياً، وبطل كل ما جاء في الكتاب من ذكر ذلك، على قولهم وقياسهم، وكل ما جاء لغير معنى؛ إلا أن تكون المعصية غير هذه الأشياء كلها التي نعرفها ونعقلها، مكنونة عند الله لم يبينها لنا، ولم يشرحها ولم يدلنا عليها؛ غير أنه قد حذرنا العصيان ولم يُعرِّفناه، وعرفناه وعرفنا الإحسان والطاعة وحدهما.
فنحن للعصيان منكرون، إذ كان أكبر الفواحش هي التي عددنا، وهي عند أهل القبلة أشد الكفر، وقد سموها جميعاً كبائر من العصيان والذنوب.
وزعم هؤلاء أن الله شاءها وأمر بها وأرادها، فما كان سواها وسوى ما سموا كبائر فأمره أقرب وهو أهون، ولا يرى معصية ولا عاصياً؛ إذ كان ما كان مضاداً لما ذكرنا من الصلاة والصيام، والحج والإيمان، وجميع أعمال البر الله شاءها وقضاها وأمر بها، فلا ترى بين المنزلتين فرقاً ولا عنهما تأخراً، كلاهما فرض، وكل من عمل شيئاً من الفعلين فهو لله مطيع، والله بفعله راض، وليس على وجه الأرض لله عاص، كلا الفريقين مجتهد في أداء ما فرض الله عليه. فلا بد لمن قال بهذه المقالة أن يبين المعصية، أين هي؟ وإلا فهو مبطل مفتر على الله أقبح الكذب. فنبرأ إلى الله من هذه

المقالة، وممن قال على الله بها.

فبالله إن الأمر لواضح، وإن الشبهة في هذه المعرفة لبينة، وفقنا الله وإياك لأجمل الأقاويل وأحسنها وأليقها بالله؛ لأن الله سبحانه يقول: ؟وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا؟[الأعراف:180]، فالله أحق بكل اسم حسن، وأبعد من كل اسم قبيح من هذا الخلق الذي يقولون عليه بهذا القول الذي يبرئون أنفسهم منه ويزعمون أنه لو كان منهم كان أكبر الظلم.

(362/1)

وزعم هؤلاء القوم أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بعثه الله ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام يدعون عباد الله إلى عبادة الله، ولعمري إن ذلك كذلك، قال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ؟قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا؟[الأعراف:158]، وقال موسى وهارون عليهما السلام، لفرعون لعنه الله: ؟إنا رَسُولا رَبِّكَ؟[طه:47]، وقال: ؟وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ؟[الصافات:147]، معناها: ويزيدون؛ لأن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية ولا تعروه سنة ولا يدخل [عليه] شك، وهذا في أشعار العرب كثير، قال الشاعر:

بكيت على عمير أو عقاق

فلو كان البكاء يرد ميتاً

ثم قال مبيناً أنه يبكي عليهما جميعاً في البيت الثاني:

لشأنهما بحزن و احتراق

على المرئين إذ هلكا جميعاً

فأقام (أو) مقام (الواو). وكذلك قال عز وجل: ؟إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ؟[يس:14].

(363/1)

فإذا كان الأمر على ما قال هؤلاء الظالمون: إن الله تبارك وتعالى قضى على قوم بالمعصية لا يقدرون يعملون غيرها ولا يخرجون منها إلى شيء من الطاعة ولا من أعمال البر؛ وقضى على آخرين بالطاعة له وبالعمل بما يرضيه لا يقدرون يخرجون من الطاعة إلى العمل بشيء من المعصية؛ ممنوعاً من ذلك الفريقان، وكان مُستعملاً فيما حتم في رقبته وقضى عليه لا يطيق الخروج منه إلى غيره، فإلى من أرسل الله الأنبياء والمرسلين، وإلى من دعوا؟ ومن خاطبوا؟ وعلى

من احتجوا؟ أم من تبعهم وأطاعهم؟ أم من كانت حاجة العباد إليهم؟ أم ما كان المعنى عند الله سبحانه في إرسالهم؟ أتراه أرسلهم عبثاً أم سخرياً؟ أم بياناً وتوكيداً للحجة على العباد وتوقيفاً؟ فإن كان سبحانه أرسلهم إلى قوم وقد منعهم من طاعته؛ يدعونهم إلى الدخول فيها وقد حال بينهم وبين ذلك ومنعهم؛ طالباً للحجة عليهم بلا حجة لازمة بينة، فهذا أكبر الظلم وأحول المحال.

ليس أحكم الحاكمين يعبث ولا يغلو ولا يسخر ولا يستهزي، ولا خلق الجنة والنار باطلاً، ولا أرسل المرسلين عبثاً.

(364/1)

لو كان الله سبحانه على ما يقولون؛ ما أرسل إلى خلقه رسولاً، ولا دعاهم إلى طاعة، ولا دلهم على ما يرضيه مما يسخطه، ولا احتج عليهم بالآيات المعجزات، ولا بالبراهين الواضحات التي عجز عنها جميع الكهنة والسحرة، والفراعنة وشياطين الإنس والجن فلم يقدروا أن يأتوا منها بشيء، مثل التسع آيات التي كانت مع موسى عليه السلام، والمعجزات التي جاء بها غيره من الأنبياء، كل هذا احتجاج من الله سبحانه على خلقه، ليطيعوا أنبياءه ورسله، ويجيبوهم إلى خلع الأنداد والأصنام والأوثان والآلهة المعبودة من دونه. ولكن الله سبحانه مكنهم وفوضهم، وأرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى ما هم قادرون عليه، ويندبونهم إليه ليخرجوهم بذلك من ظلمة الشرك إلى نور الإسلام. ألا ترى إلى قوله عز وجل: ؟اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ؟[البقرة:257]، فلولا أن الله تبارك وتعالى قد علم أن عباده يقدرون على طاعة رسله ما أرسلهم إليهم، ولا أمر بطاعتهم ولا حثهم على أداء ما جاءوا به من فرائضه، وما دعوا به من اتباع مرضاته، وذلك لما مكنهم الله منه، وجعل فيهم من القوة والاستطاعة ليركبوا بها طبقاً عن طبق، تفضلاً منه عليهم، وإحساناً منه إليهم، وإكمالاً للحجة فيهم وعليهم لئلا يكون لأحد على الله حجة بعد رسله، وما شرع من فرائضه، وما دعا إليه من طاعته، وحذر من معصيته، وذلك قوله: ؟لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ؟[النساء:165].

(365/1)

ومن أكبر عجائبهم أنهم يزعمون أن الله تبارك وتعالى قضى على العباد بالمعاصي قضاء حتماً لا يمكنهم الخروج من ذلك القضاء، وقدره عليهم وشاءه لهم؛ ثم زعموا مع هذا القول أن محمداً صلى

الله عليه وآله وسلم أُرسل إلى الناس كافة، وأن كل ما أمر به أو نهى عنه من تحليل شيء أو تحريم آخر لله رضى وطاعة ومراداً ومشيئة، إذ رجعوا فأكذبوا أنفسهم وطعنوا على نبيهم فزعموا أن جميع ما نهى الله عنه قضاء ومراد ومشيئة.

فانظر – يا بني – ما بين هذين القولين من التناقض والعمى والحيرة، بينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحث على طاعة الله والقيام بأمره والأداء لفرضه، إذ صار ينهى عن جميع ذلك.

وانظر إلى ما هو أعجب من هذا، قولهم في إبليس – لعنه الله – يزعمون مرة أنه لله عاص وعليه مفتر، بل قد افترض عليه ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وتارة يزعمون أن إبليس لله ولي يدعو إلى قضائه في معنى قولهم، وما تلزمهم إياه الحجة. وإن كانوا غير مصرحين بولايته لله غير أنهم زعموا أن جميع الفواحش التي يدعو إليها إبليس شاءها الله وأرادها، ومن كان إلى طاعة الله ومشيئته ومرداه داعياً، فهو ولي لله مطيع، فمرة (عندهم إبليس مطيع، ومرة) عدو مفتر.

(366/1)

وانظر أيضاً إلى هذا التمييز وهذه العقول التي جعلوا بها سبيل محمد وسبيل إبليس سواء، حتى جعلوا الصفة فيهما واحدة متشابهة كلاهما، وهو عندهم يدعو إلى قضاء الله وأمره ومراده، ويصدقون محمداً عليه السلام مرة فيما جاء به من القرآن والدعاء إلى الله وإلى أمره ومراده. ومرة أخرى يكذبون ذلك ويقولون إن المعاصي من الله، وإن الله شاءها وأرادها من العباد، وإنه عليه السلام نهى عن مشيئة الله وإرادته. فإن كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عما ذكروا أن إبليس يدعو إلى ذلك الذي أراده الله من العباد فلا تراه في قياسهم لله عاصياً، ولا عليه مفترياً إذ كان في الدعاء إلى قضاء الله مجتهداً، ومن كانت هذه سبيله فهي غير سبيل العاصين، ولا أعرف – كما قلنا وعلى قولهم – بينه وبين محمد عليه السلام فرقاً في الدعاء إلى قضاء الله، خاصة إذ كان محمد يدعو إلى بعض قضاء الله، ثم أمر ونهى بزعمهم عن بعض قضاء الله وأمره، وكذلك إبليس – لعنه الله – يدعو على قولهم إلى بعض قضاء الله وأمره وينهى عن بعض قضاء الله وأمره، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نهى عما يدعو إليه إبليس من هذا القضاء، وإبليس – لعنه الله – يدعو إلى ما ينهى عنه محمد، وكلاهما عدو الآخر.

فيا سبحان الله!! ماذا بينهما من التباعد! وما أشد اختلافهما، وأبين تناقض أمرهما عند أهل المعرفة والعقل، وأخبث قولهم هذا الذي قالوا به.

(367/1)

ومن الحجة عليهم، أيضاً، التي لا يجدون لها نقضاً، ولا بد لهم عندها من أن يكذبوا أنفسهم وقولهم، أو يلزموا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم المعصية والتعدي فيما أمره الله به، يقال لهم: أخبرونا عن محمد عليه السلام حين أمره الله بدعاء الناس كافة إلى عبادته والعمل بفرائضه، فوجدهم صلى الله عليه وآله وسلم على ما كانوا عليه وبه عاملين من عبادة النار والحجارة والأصنام والأنداد، وأكل الربا وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وقتل الأطفال، وسفك الدم الحرام، والقول إن الله ثالث ثلاثة، وإن له ولداً وصاحبة، وإنه بخيل، وإن يده مغلولة، وما أشبه هذا القول من الفواحش؛ أمرهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلزوم ذلك، وحثهم على العمل به والاجتهاد فيه؟ وأمر أيضاً من وجده يعبد الله وحده، ويقول إنه ليس معه شريك، ولا له شبيه، ويسجد له من دون المعبودات كلها، ويحرم الزنا، والربا، وأكل مال اليتيم، وقتل الطفل، ويأمر بخلع المعبودات كلها من دون الله، أمرهم بلزوم ما هم عليه، وحثهم على أدائه؟ لم يغير على أحد من العالمين شيئاً، ولم ينههم عن شيء، ولم يأمرهم بشيء غير الاجتهاد فيما هم فيه؟ فقد صدق من زعم أن جميع الأشياء من الله، وله رضا وقضاء وأمر ومشيئة. وإن كان صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن شيء مما ذكرنا من العملين وميز بين المنزلتين، وسمى أحدهما طاعة ووعد من عمل بها الجنة؛ وسمى المنزلة الأخرى معصية، وتوعد من عمل بها النار، فقد كذب من زعم أن كل شيء مراد الله وقضاء. فإن أحبوا فيكذبوا أنفسهم للزوم الحجة لهم، وإن أحبوا أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عاص متعد عليه، ناه عن قضائه وأمره، وأن الله تبارك وتعالى لم يأمرهم بتحريم شيء مما حرم، وأن جميع ما حرم أحل منه بالتكليف منه لا من الله، نقض من قال بهذا كتاب الله عز وجل، إذ يقول له صلى الله عليه وآله وسلم: ؟قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن

(368/1)

رَّبِّي؟[الأعراف:203]، وهذه الصفة والقول لا يجوزان في محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا له.

ومن الحجة عليهم أن يقال لهم: أخبرونا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكان عندكم رؤوفاً رحيماً حريصاً على العباد شفيقاً مريداً لهم أن يطيعوا الله ولا يعصوه؟ وعن قول الله سبحانه فيه: ؟لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ فإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟[التوبة:128]، أكان كذلك أم كان عندكم على غير هذه الصفة من قلة الرأفة والرحمة والحرص؟ فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: كان صلى الله عليه وآله وسلم رؤوفاً رحيماً، كما وصفه الله، فحينئذ يقال لهم: فأين الرأفة والرحمة ممن

يأمر العباد بترك طاعة الله، والخروج عن مشيئته ومراده، والرد لقضائه وأمره، وكيف يكون عندكم حال من نهى عما ذكرنا وحال من أطاعه في ترك ما ذكرنا مما هو لله مشيئة ومراد؟ وأين الرأفة والرحمة ممن يأمر العباد بما لهم فيه الهلاك والغضب عند الله؟ هذا قولٌ ينقض القرآن ويفسده، وهو حجة الله العظمى على عباده، وفيه تحريم ما حرم وتحليل ما أحل، فإذا كان المؤدي له في قولكم وعلى مذهبكم ينهى عن طاعة الله ومشيئته فكيف السبيل عندكم أن يوثق به فيما أدى إلينا من تحليل وتحريم إذ كان ينهى عن قضائه ومراده، فقد احتمل إن كان يفعل ذلك بلسانه أن يفعله ومثله في الكتاب الذي أداه فيحلل الحرام ويحرم الحلال.

(369/1)

تعالى الله عما أسند إليه أهل هذه المقالة الحمقاء من التلعب بعباده والعبث بخلقه، وجل شأن محمد عليه السلام أن يكون فيه شيء من هذه الصفة، أو يكون على شيء مما يكره الله سبحانه. بل لم يزل صلوات الله عليه ناهياً عن نهي الله داعياً إلى أمر الله، مستقلاً في ذلك كله بعداوة الآدميين والناس أجمعين، باذلاً لنفسه، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى قبضه الله إليه وقد غفر ذنبه وشكر فعله صلوات الله عليه وعلى آله.

فميز يا بني القولين، وفكر فيما بين المنزلتين، تصح لك الحجة، ويبن لك الحق؛ لأن الحق غير خفي على ذي مرة سوي.

نسأل الله التوفيق والتسديد، ونعوذ به مما أسند إليه المبطلون وقال به فيه الجاهلون. فكل من قال على الله سبحانه شيئاً مما ذكرنا وأسند إليه سبحانه ما حكينا من قول أهل الضلالة والردى، والحيرة والعمى، فما عرف الله العلي الأعلى في شيء من أيام الدنيا، وهو عند الله من أجهل الجاهلين، وأكفر الكافرين، وأضل الضالين؛ لأنه قد نسبه سبحانه إلى أقبح صفات المخلوقين المستهزئين العباثين المتفكهين بعباد الله، الحاكمين فيهم بغير حكم الله، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

تم الكتاب والحمد لله رب الأرباب، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين وسلم، (وحسبنا الله ونعم الوكيل).

(370/1)

كتاب الرد على الحسن بن محمد بن الحنفية

بسم الله الرحمن الرحيم

(371/1)

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي علا على الأشياء بطوله، وتقدس عن مشابهة المخلوقين بحوله. الذي علا فقدَر، وقدر فقهر، وعُصي فغفر، وأُطيع فشكر. الذي لا مثل له فيساويه، ولا ضد له فيناويه. الذي لا تدركه الأبصار، ولا تجن منه الأستار. العالم بما تجن قعور البحور، وما تكن جوانح الصدور، العالم بما سيكون – سبحانه – من قبل أن يكون. اللطيف الخبير، السميع البصير، الجليل الحكيم، الكريم الرحيم. الذي دنا فنأى، ونأى سبحانه فدنا، رابع كل ثلاثة، وسادس كل خمسة، الداني من الأشياء بغير ملامسة، المحيط بها من غير مخالطة، العالم بباطنها من غير ممازجة، فعلمه بما تحت الأرضين السفلى كعلمه بما فوق السماوات العلى. الموجد للأشياء من غير شيء، وجاعل الروح في كل حي. خلق خلقه حين أراده، وإذا شاء سبحانه أباده، بلا كلفة ولا اضطرار، ولا بتخيل ولا إضمار، ولا حاجة منه إلى الأعوان، إذا أراد إيجاد شيء كان، بلا كلفة. البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، الذي لم يلده والدٌ فيكون مولوداً، ولم يلد ولداً فيكون لذلك محدوداً، الخالق غير مخلوق، والرازق غير مرزوق. الذي بقدرته قامت السماوات بغير عماد، وفرش لعباده الأرض ذات المهاد، فاستقلت الأقطار، وسجرت البحار، وهطلت الأمطار، ونبتت الأشجار، وجرت الأنهار، وأينعت الثمار، فالق الحب والنوى، ومالك الآخرة والدنيا، زارع كل ما يحرثون، ومنزل الماء الذي يشربون، وخالق النار التي يورون، محصي الأعمال، ومؤجل الآجال، ومجري الأرزاق، ومسبب الأرفاق. الصادق في كل قول قوله، النافذ في كل شيء فعله، الذي أمر ونهى، فأمر بالتقوى، وزهد في الدنيا، ونهى عن العصيان، وحض على الإحسان، وخلق ثواباً وجعل عقاباً، فأعد للمطيعين الجنان، وأجج للعاصين النيران ؟لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى؟[النجم:31]، قابل التوبة، مقيل العثرة، مجيب

(372/1)

الدعوة، الذي لا يغافص من عصاه، ولا يخيب أبداً من رجاه، يقبل اليسير الصغير، ويعطي عليه الكثير، الذي لم يزل قادراً ولا يزال، فسبحان ذي القدرة والعز والجلال.

أحمده على نعمائه، وأعوذ به من بلوائه، وأستجير به من نقمته، وأستديمه لنعمته، الذي شملت خلائقه نعماؤه، وتظاهر عليهم إحسانه وآلاؤه، سائق كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأزل. أشهد له سبحانه بالربوبية والعدل والصدق والوحدانية، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،

مقلب القلوب، الغافر لمن تاب من موبقات الذنوب، البريء المتعالي عن كل نصب ولغوب، البائن عن الصفات، فليست تحده القالات، ولا تنقصه الساعات، ولا تعروه السنات، المحمود في كل الحالات.

وأشهد أن محمداً عبده، ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، صلى الله عليه وعلى آله، الداعي إليه، بعثه سبحانه بحجته، واستنقذ به من النار أهل طاعته، بعثه في طامية طمياء، ودياجير مظلمة عمياء، وأهاويل فتنة دهماء، فدفع فنيق الكفر والفساد، وأنهج سبيل الحق والرشاد، وأدحض عبادة الأوثان، وأخلص عبادة الرحمن، وصدع بأمر ربه، وأنفذ ما أمره به، ودعا إليه علانية وسراً، وأمر بعبادته سبحانه جهراً، صابراً على التكذيب والأذى، داعياً لهم إلى الخير والهدى، حتى قبضه الله إليه، وقد رضي عمله، وتقبل سعيه، وغفر ذنبه، وشكر فعله، فصلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار، الصادقين الأبرار.

ثم نقول، بعد الحمد والثناء عليه، والصلاة على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

أما بعد..

(373/1)

فإنه وقع إلينا كلام الحسن بن محمد بن الحنفية، يؤكد فيه الجبر، ويشدد في ذلك منه الأمر، ويزعم فيه أن الله سبحانه جبر العباد أجمعين، من الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وجميع الثقلين، على كل الأعمال، من صالح أو فاسد أو طالح، فرأينا أن نجيبه في ذلك، وننقض عليه ما جاء به من المهالك، ونثبت عليه في ذلك كله، لربنا وسيدنا وخالقنا ما هو أهله مما هو عليه، وما لا يجوز لخلق الله، أن يقول بغيره فيه، فاختصرنا له في قوله الجواب، وتركنا - خشية التطويل - كثيراً من الأسباب. فلينظر من نظر في قولنا وقوله، وجوابنا لسؤاله بلب حاضر، ورأي حي صادر، يبن له الحق إن شاء الله، ويثبت في قلبه الصدق. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، محمد، خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطاهرين وسلم.

(374/1)

المسألة الأولى: عن استطاعة الرسل من بني آدم ترك البلاغ وتغيير الوحي

فكان أول ما سأل عنه أن قال: أخبرونا عن رسل الله، من بني آدم، هل جعل الله لهم السبيل والاستطاعة إلى ترك البلاغ؟ ولو شاءوا لغيروا ما أُمروا به من تبليغ الوحي والعمل بالسنن؟ أو

ألزموا على ذلك إلزاماً، فلا يستطيعون على تركه ولا الزيادة فيه ولا النقصان منه؟

فإن قالوا: نعم، قد جعل الله لهم سبيلاً واستطاعة لترك البلاغ، فلوا شاءوا لغيروا ما نزل إليهم من كتابه وحكمته؛ فقد دخلوا في أعظم مما كرهوا حين زعموا أن الرسل لو شاءوا لم يعبدوا الله بالتوحيد، ولم يعملوا له بطاعة، إذ زعموا أنهم كانوا يقدرون على كتمان الوحي والسنن.

فيقال لهم: وأنتم الآن لا تدرون هل بلغت الرسل كل ما جاءهم من الوحي والسنن أم لا؟

فإن قالوا: نعم، يقدر الرسل على كتمان الوحي والسنن إذا أرادت ذلك؛ احتُج عليهم. وإن قالوا: لم يكن الرسل يقدرون على كتمان الوحي ولا إبدال الفرائض ولا ترك البلاغ، لأن الله ألزمهم البلاغ إلزاماً، فلا يقدرون على تركه وكتمانه؛ فقد أجابوا، وفي ذلك نقض لقولهم.

[جوابها:]

بسم الله الرحمن الرحيم

فكان أول ما سأل عنه، أن قال: أخبرونا عن قولكم فيما نسأل عنه، نبئونا، هل الأنبياء صلوات الله عليهم، مستطيعون لعمل فعلين متضادين في حالين مختلفين؟

(375/1)

وقولنا في ذلك، والله الموفق لكل رشد وخير، والدافع لكل سوء وضير: أن رسل الله صلوات الله عليهم، قد أدوا ما أمرهم الله بأدائه، على ما أمرهم، لم يشبهم في ذلك تقصير، ولم يتعلق عليهم في ذلك من التفريط جليل ولا صغير، وأنهم كانوا في ذلك كله لأمر الله مؤثرين، وعلى طاعته سبحانه مثابرين، وأن الله سبحانه لم يكلفهم أداء الرسالة حتى أوجد فيهم ما يحتاجون إليه من الاستطاعة، ثم أمرهم بعدُ ونهاهم، وكلفهم من أداء الوحي ما كلفهم، فبلَّغوا عنه ما به أمرهم على اختيار منهم لذلك، وإيثار منهم لطاعته، وحياطة لمرضاته، لم يكن منه جبر لهم على أدائه، ولا إدخال لهم قسراً في تبليغه، بل أمرهم بالتبليغ فبلغوا، وحثهم على الصبر فصبروا، فقال سبحانه: ؟يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ؟[المائدة:67]، فقال: ؟بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ؟، ولو لم يكن التبليغ منه صلى الله عليه وآله، باستطاعة وتخيير، لم يقل له: ؟بَلِّغْ؟؛ إذ الأمر لمن لا يقدر أن يفعل فعلاً حتى يُدخَل فيه إدخالاً، ويُقلَّب فيه تقليباً محال؛ لأن الفاعل هو المُدخِل لا المُدخَل، والمقلِّب لا المقلَّب. فلم يأمر الله عز وجل أحداً بأمر إلا وهو يعلم أنه يقدر على ضده، فحثه بأمره على طاعته، ونهاه عن معصيته، ألا تسمع كيف يقول: ؟فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ؟[الأحقاف:35]، فأمره باحتذاء ما فعل مَن هو قبله مِن الرسل، مِن الصبر على الأذى

والتكذيب، والشتم والترهيب، ولو كان الله سبحانه هو المدخل لهم في الصبر إدخالاً، ولم يكن منهم له افتعالاً، لقال: صبرناك كما صبرناهم؛ ولم يقل: ؟فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ

(376/1)

أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ؟. وكيف يأمر ذو الحكمة والفضل مأموراً بما يعلم أنه يفعله من الفعل؟ فجل الله عن ذلك، وجل عن أن يكون كذلك. فهل سمعه من جهله سبحانه يأمر أحداً من خلقه أن يفعل شيئاً مما هو من فعله مما يتولى إحداثه فيهم، ويقضي به تبارك وتعالى عليهم، مما ليس لهم فيه فعل، ولا افتعال، ولا تصرف بإدخال ولا إخراج، مثل الموت والحياة، وإيجاد السمع والبصر والأفئدة؟! بل ذكر ذلك كله عن نفسه، وأضاف فعله إليه بأسره، فقال: ؟إنا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ؟[ق:43]، ولم يأمرهم أن يموتوا ولا بأن يحيوا. وقال سبحانه إخباراً عمن سلف، وتوقيفاً واحتجاجاً على من جاء بعدهم وخلف: ؟وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون؟[الأحقاف:26]، فقال: ؟جَعَلْنَا لَهُمْ؟، ولم يقل: اجعلوا ولا تجعلوا. ثم قال: ؟فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ؟، فأراد سبحانه منهم إذ فعل لهم الأسماع أن يفعلوا هم الاستماع بها، فيستمعوا ما جاء به الرسول من أخبار من هلك من قبلهم، وإنذار من أنذر ممن هو أشد منهم بطشاً فلم يقبل الهدى فأُهلك، قال سبحانه: ؟وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ؟[ق:37]، فأراد إذ فعل لهم سمعاً أن يسمعوا به أخبار من نزل به ما نزل، فينتهوا، ويسمعوا لرسله ويطيعوا ويسلموا للحق ويجيبوا، وكذلك إذ فعل لهم أبصاراً أراد أن يبصروا بها إلى

(377/1)

ما خلق من السماوات والأرض وأنفسهم وما ذرأ وبث، فيعلموا أن لهذا خالقاً ومدبراً فيؤمنوا، وكذلك الأفئدة أراد بجعلها لهم إذ أوجدها فيهم أن يفكروا ويدبروا فيعتبروا ويميزوا فيهتدوا، ولو كان سبحانه وتعالى عن ذلك المتولي لفعل أفعالهم لم يحتاجوا إلى الإسماع والتبصير والتفكير، إذ كان الله المتولي لإنفاذ ما أرادوا، والممضي دونهم لكل فعل منهم، ولم يقل عز وجل: ؟فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ؟، وكيف يستمعون إذا أسمعوا، ويستبصرون إذا أبصروا، وينتفعون إذا فكروا، وهم لا ينالون ذلك ولا يقدرون عليه، وغيرهم الفاعل له المصرف لهم فيه؟

فتعالى من فِعله غير فعل خلقه، ومن أمر عباده باتباع حقه، ألا تسمع كيف قوله سبحانه، وإخباره عن المؤمنين والفاسقين، فقال: ؟مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا؟[النحل:30]، وقال في الفاسقين: ؟وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ؟[النحل:24]، فمدح المؤمنين على ما قالوا من الصدق في رب العالمين، وذم الفاسقين على قولهم الباطل في أحسن الخالقين. ولو لم يكن العباد متخيرين، ولا مما أرادوا متمكنين، وكان الحامل لهم على أفعالهم، المدخل لهم في كل أعمالهم رب العالمين، لكان هو القائل لما نزل من الحق: ؟أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ؟، ولم يكن القائلون بما قالوا من قولهم، والناطقون بما أنطقهم – عند العدل الجواد الرؤوف الرحيم بالعباد – بمذمومين، ولا عليه بمعاقبين، ففي أقل من ذلك حجة لذوي الإيمان المميزين.

وأما ما قال: من أنهم إن كانوا صلوات الله عليهم، قادرين على التبليغ والترك، وكان تبليغهم اختياراً منهم للطاعة على المعصية، ولرضاه على سخطه، فما يدريكم لعلهم قد تركوا وبدلوا وغيروا وخانوا (أو ستروا واجباً) وخالفوا؟

(378/1)

قيل له: في ذلك من الحجة، والحمدلله، أبين البيان، وأنور القول والبرهان، ألا تعلم أيها السائل أن الله سبحانه لا يزكي إلا زكياً رفيعاً، ولا يذكر بالطاعة إلا سامعاً مطيعاً ولا بالأداء إلا مؤدياً. وقد وجدنا الله سبحانه ذكر في توراته التي أنزلها على موسى بن عمران تبليغ من بعثه من أنبيائه بوحيه، من نوح وإبراهيم وغيرهما، وأثنى عليهم بذلك، وحض موسى صلوات الله عليه على الاقتداء بهم، والإيثار لما آثروا من الطاعة لربهم، ثم قص قصة موسى صلى الله عليه، وذكر فضله وتبليغه وصبره واجتهاده، وفعله في الإنجيل الذي أنزله على عبده المسيح، المطهر من كل قبيح، صلوات الله عليه، ثم قص قصة عيسى على محمد، وذكر له قصته من اجتهاده وتبليغه، وتبليغ غيره من الرسل، فقال: ؟وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ؟[الصف: 6]، فصدق بما جاء به موسى، وبشر بما أمر من التبشير به من البشير النذير، الرؤوف بالمؤمنين الرحيم محمد الرسول الكريم، ثم ذكر لنا في كتابه أن رسوله قد بلغ وأنذر، وأخبر أنه قد أدى كل ما يجب عليه، فقال: ؟مَا عَلَى الرَّسُولِ إلا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ؟[المائدة: 99]، وقال: ؟فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ؟[الذاريات: 54]، ولو كان منه صلى الله عليه وآله غير الاجتهاد لم يقل سبحانه: ؟فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ؟، فقد برأه الله من كل دنس ولوم.

فقد بطلت حجة من أراد الطعن على الأنبياء المهتدين، المؤدين لأمر الله الخانعين، بما قال عنهم وذكر فيهم رب السماوات والأرضين، والحمد لله وسلامه على المرسلين.

(تمت المسألة)

(379/1)

المسألة الثانية: من أخطر المعصية على بال إبليس وكيف علم إبليس عن ذرية آدم؟

ثم أتبع هذه المسألة، فقال: أخبرونا عن إبليس، ما أخطر المعصية على باله؟ أو من أوقع التكبر في نفسه؟

فإن قالوا: نفسه أمرته بالمعصية، وهواه حمله على التكبر.

فقل: من جعل نفسه أمارة بالمعصية، وهواه حاملاً على التكبر؟

فإن قالوا: الله؛ كان ذلك نقضاً لقولهم.

ويقال لهم: فمن أعطاه علم الخديعة والمكر؟ آلله جعل ذلك في نفسه؟ أو شيء جعله هو لنفسه؟

فإن قالوا: الله جعل ذلك له؛ كان ذلك نقضاً لقولهم. وإن قالوا: إن ذلك لم يكن من الله عطاء ولا قسماً؛ فقد دخل عليهم أعظم مما هربوا منه حين زعموا أن غير الله يجعل في خلقه ما لم يرد الله أن يكون فيهم، فما أعظم هذا من القول!!

وسلهم: من أين علم إبليس أن آدم يكون له ذرية، وأن الموت يقضي عليهم، وأنه يكون بينهم لله عباد مخلصون، وأنه يحتنكهم إلا قليلاً منهم؟

فإن قالوا: إن الله علمه ذلك؛ فقد نقض ذلك قولهم. وإن قالوا: إن إبليس علمه من قبل نفسه؛ فقد زعموا أن إبليس يعلم الغيب، فسبحان الله العظيم.

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه، وقاله من أمر إبليس فقال: من أخطر المعصية على باله؟ ومن أوقع التكبر والمكر والخديعة في نفسه؟

(380/1)

فإنا نقول في ذلك: إن الله أعطى إبليس من الفهم واللب ما يقدر به على التمييز بين الأمور، ويعرف به الخيرات من الشرور، ويقف به على الصالح من ذلك والطالح. وإنما أعطاه الله ذلك، وجعله وكل الخلق المتعبدين كذلك لأن يعرفوا قوله ويعرفوا ما افترض الله عليهم وعليه، فيتبع ذلك دون غيره، ويثابر عليه، ويعرف ما يسخط الله فيتجنبه ويتقيه، ويحاذر انتقامه فيه. ولو لم يعطه وغيره ذلك لم يهتدوا أبداً إلى فعل خير ولا شر، ولا تخير طاعة، ولا إيثار هوى، ولا اتباع تقوى، ولو كان الخلق كذلك لكان معنى الثواب ساقطاً عنهم، ولما جرى أبداً عقاب عليهم، ولو لم يجر عقاب ولم يُنَل ثواب لم يُحتَج إلى جنة ولا نار، ولما وقع تمييز بين فجار ولا أبرار، وقد ميز الله ذلك فقال:

؟لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ؟[الحشر:20]، ولو كان ذلك كذلك لكان معنى الملك والتمليك عند الله سبحانه ساقطاً هنالك. ولكنه سبحانه لما خلق الخلق لم يكن للخلق بد من عمل، ولم يكن العمل كله لله رضاً، ولا كله سخطاً طراً معاً، ولما كان من الأعمال مرضٍ لله ومسخط، لم يكن بد من الأمر بالعمل المرضي، والنهي عن العمل المسخط. فلما كان ذلك كذلك لم يكن بد من الترغيب على العمل الصالح بالثواب، والترهيب على العمل الطالح بالعقاب، فجعل الجنان ترغيباً، والنيران ترهيباً. وترهيب الشيء من الشيء الذي لا يستطيع أن يرهبه محال، كما أن ترغيب الشيء فيما لا يقدر على أن يرغب فيه فاحش من الفعال، ولا يكون ترغيب إلا لمن يقدر على الرغبة، ولا ترهيب إلا لمن يقدر على الرهبة، ولا أمر ولا نهي إلا لمن يميز بين المأمور به والمنهي عنه. فجعل الله وركب فيهم استطاعة وتمييزاً، ليعرفوا رضاه فيتبعوه، ويفهموا سخطه فيتجنبوه، فيثيبهم أو يعاقبهم على ما يكون من أفعالهم باختيارهم؛ لأن المثيب على فعله إنما هو مجاز لنفسه، ثم أمرهم عز وجل

(381/1)

ونهاهم، ثم قال: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ؟[الكهف:29]، ولو لم يعلم أن له مشيئة وتمييزاً واقتداراً على الفعل والترك لم يقل: ؟فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ؟، وقال سبحانه: ؟يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا؟[مريم:12]، ولو لم يكن فيه استطاعة مركبة قبل الأمر، ولم يكن قادراً على أخذ الكتاب، لم يقل ؟خُذِ؟، وهو لا يقدر على الأخذ؛ لأن القائل للحجارة، وما كان مثلها، يقال: مخطئ محيل في المقال، فتعالى الله عن ذلك. وقال: ؟قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ؟[الجاثية:14]، ولو لم يكن المؤمنون يقدرون على الغفران لمن أمروا بالمغفرة له لم يقل: ؟يَغْفِرُوا؟، وكان يحدث فيهم الغفران لأولئك، فيغفروا، ولم يكن ليأمرهم من الأمر بما لا يطيقون.

(382/1)

وأعطى إبليس اللعين ما أعطاه من الفهم والتمييز لأن يطيعه ولا يعصيه، وأراد أن يطيعه تخيراً وإيثاراً لطاعته، فكانت هذه إرادة معها تمكين واستطاعة، ولم يرد أن يطيعه قسراً، ولا أن يمنعه من المعصية جبراً، (فيكون إبليس اللعين في ذلك غير محسن ولا مسيء فلم يحل بينه وبين المعصية قسراً، ولم يحمله على الطاعة جبراً). فمكنه وهداه، ثم أمره ونهاه، فرفض – له الويل – تقواه، واتبع

هواه، وكفر نِعَم ربه، وكره تنزيله وحكمه، فكان كما قال الله سبحانه: ؟وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ؟[محمد:8]، فلو كانت الكراهةُ لما أنزل الله قضاءً له فيهم، وفعلاً أدخله سبحانه عليهم، لكانت من الله، لا منهم، ولكان الكاره لتنزيله لا هم، ولكانوا ناجين من العقاب، وكانوا متصرفين في أمره في كل الأسباب. وكذلك المهتدون، لو كان هو الذي فعل هداهم، وزادهم في تقواهم، لم يقل: ؟وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ؟[محمد:17]، ولو كان ذلك كما يقول الجاهلون، وينسب إلى الله الضالون، لكان من اهتدى ومن كره وأبى في الأمر عند الله شرعاً واحداً، إذ كان كلهم في أمره وقضائه له مطيعاً متقلباً متصرفاً في إرادته سريعاً.

وأما قوله: من أين علم إبليس أن آدم يكون له ذرية؟ وأن الموت يقضي عليهم؟

(383/1)

فإن جوابنا له في ذلك: أن الله أعلمه ملائكته، فسمعه إبليس من ملائكة الله فيما كان يسترق من السمع كما قالوا وحكى الله عنهم في قوله: ؟وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا؟[الجن:9]، فكانوا – قبل أن يبعث الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ويكرمه بما أكرمه من الوحي إليه – يسترقون السمع، فلما أن بعثه الله حجبهم عن المقاعد التي كانوا يقعدونها من السماء ويسترقون من الملائكة الأخبار فيها، فيهبطون بها إلى إخوانهم من كهنة الإنس وأوليائهم، كما قال ذو المن والجلال: ؟وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا؟[الأنعام:113]، فلما أرسل الله رسوله بالوحي البالغ، والنور الساطع حجبهم عن علم شيء من أخبار السماء، لكيلا يسبقوا به ولا يفشوه إلى إخوانهم من كهنة أهل الدنيا، فقذفهم بما جعل لهم من النجوم شهباً رصداً فرماهم بالنجوم من السماء، ولم يكن قبل ذلك بشيء منها يُرمى فهيل لذلك أهل الأرض والشياطين في الهواء، فقالوا في ذلك كما أخبر الله به عنهم وحكى من قولهم: ؟وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا؟ [الجن:9]، فمن الملائكة علم إبليس أخبار آدم وذريته. ولو لم يعلم الله الملائكة بذلك لم يعلمه إبليس ولا هم، كما لم يعلموا ما كتمهم من أسماء الأشياء التي أعلمهم آدم بأسمائها في وقت ما علمه الله أسمائها وكتم الملائكة إياها، كما قال سبحانه: ؟وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ

(384/1)

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ؟[البقرة:33.31]، فأنبأهم حين أمره الله أن ينبئهم بأسمائهم ما كان قد غبي عنهم علمه من الأشياء، فعندما رأى إبليس اللعين الرجس من كرامة الله لآدم وتعظيمه لقدره، وإسجاده الملائكة من أجله، ولما أظهر فيه من عجائب تدبيره وصنعه، حسده على ذلك غاية الحسد حتى أخرجه حسده لآدم (إلى الكفر) بربه، وخالف فيما ترك من السجود عن أمره، ثم خشي أن يؤاخذه الله تعالى مغافصة على ذنبه، فطلب الإنظار والتأخير من ربه، فأنظره وأمهله الله إلى يوم حشره.

ولو حجب الله علم آدم وذريته عن الملائكة لم يكن ليعلمه إبليس ولا هم. وليس إعلامه إياهم سبحانه أنه سيجعل لآدم ذرية إلا كإعلامه – من قبل إيجاده لآدم – بآدم حين يقول عز وجل: ؟وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً؟[البقرة:30]، وكما أعلمنا في كتابه على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، بما يكون في دار الآخرة من الثواب والعقاب والمجازاة بين العباد، وليس على الله في ذلك من حجة كبيرة ولا صغيرة.

وأما ما سأل عنه من استكبار إبليس، وقال: ممن هو؟ أمن الله؟ أم منه؟ أم من غيره؟

(385/1)

فسبحان الله! ما أبين جهل من شك في هذا! أيتوهم أو يظن ذو عقل أن الله ألزم إبليس التكبر والاجتراء عليه فأدخله قسراً فيه؟ وهو يسمع إخبار الله في ذلك عنه، وأنه نسب التكبر إليه، فقال سبحانه: ؟وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ؟[البقرة:34]، فذكر أن الاستكبار والكفر من فعل إبليس الكافر المستكبر، ولو كان الله أدخله في الاستكبار فاستكبر، وقضى عليه بالكفر فكفر، لم يقل فيه: ؟وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ؟، ولكان أصدق الصادقين يقول فيه: إنه أطوع المطيعين. وما كان من استكبار إبليس فهو كاستكبار غيره من الناس، قال الله سبحانه: ؟وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ؟[الأحقاف:20]، ولو كان الكبر والفسق من الله فيهم فعلاً، وله سبحانه عملاً، لم يجزهم عذاب الهون على فعله الذي أدخلهم فيه، بل كان يثيبهم عليه ويكرمهم لديه.

(386/1)

المسألة الثالثة: أكانت محبة الله ومشيئته في دخول آدم وزوجه الجنة أم في خروجهما؟

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد، المسألة عن آدم عليه السلام، وزوجته، فقال: خبرونا عن آدم وزوجته حين أسكنهما الله الجنة، أكانت محبة الله ومشيئته لهما في دخولهما فيها، وإقامتهما أم في خروجهما منها؟

فإن زعموا أن محبة الله ومشيئته كانت في خلودهما؛ فقد كذبوا، لأن أهل الجنة لا يموتون ولا يتوالدون ولا يمرضون ولا يجوعون ولا يخرجون، وقد قضى الله الموت على خلقه جميعاً، وقضى على آدم أن تكون له ذرية تكون منهم الأنبياء والرسل والصديقون والمؤمنون والشهداء والكافرون، ثم قال: ؟فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ؟[الأعراف:25]، ثم قال: ؟مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى؟[طه:55]، وكيف يكون ما قالوا، وقد قضىالله القيامة والحساب والموازين والجنة والنار، سبحان الله! ما أعظم هذا من قولهم.

وإن قالوا: إن محبة الله ومشيئته كانت في خروج آدم وزوجته من الجنة وهبوطهما إلى الأرض، فقد زعموا أنه لم يكن ليخرجهما من الجنة إلا الخطيئة التي عملاها، والأكل من الشجرة التي نهيا عنها، فقد أقروا لله بقدرته ونفاذ علمه، وفي ذلك نقض قولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

(387/1)

وأما ما سأل عنه من إرادة الله في آدم وزوجته حين أسكنهما الجنة، أكانت إرادته خلودهما فيها؟ أم خروجهما عنها؟ وما توهم من هذه الجنة التي كان فيها آدم وزوجته أنها جنة المأوى التي جعلها الله ثواباً للعاملين ومقراً دائماً لعباده المؤمنين، فإنا نقول: إن الجنة التي كان فيها آدم وزوجته هي من جنات الدنيا ذوات الأنهار والغرف والأشجار فسماها الله جنة، وهذا فموجود في لغة العرب غير مفقود، تسمى ما كان من الضياع والبساتين ذا فواكه وأشجار وعيون جناناً. أما سمعت إلى قول الله، سبحانه ما أبين نوره وبرهانه، وكيف حكى عن الأمم الماضين، الفراعنة المتجبرين، حين يقول سبحانه: ؟كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ؟[الدخان:26]، وقال: ؟وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ؟[الكهف:39]، فسمى الله ما كان من الأرضين على ذلك من الحالات في قديم الدهر وحديثه جنات، وأن آدم كان في موضع قد بوأه الله إياه كريم شريف عظيم، خلقه فيه وأجرى رزقه ومرافقه عليه، وليس كما ظن الحسن بن محمد، وتوهم من فاحش الظن والمقال أن أهل الجنة منها خارجون وعنها منتقلون، وأن آدم وحواء كانا فيها ثم أخرجا، وليس كذلك، بل هو كما قال رب العالمين،

وأصدق الصادقين فيمن صار إلى جنة المأوى من عباده الصالحين: ؟خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ؟[البينة:8]، وكما قال: ؟لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ؟[الحجر:48]، وأخبر أن من دخل جنة المأوى غير خارج منها أبداً، وأنه لن يذوق بعد دخوله إياها نصباً ولا شقاء، وقال عز وجل إخباراً منه أنه لا يدخل الجنة إلا المطيعون المجازون من العالمين، فقال: ؟فَأَمَّا مَن طَغَى

(388/1)

وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فإن الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فإن الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى؟[النازعات:37]، فأخبر سبحانه، أن الجنة لا يدخلها إلا من اتقى وتقدم منه العمل بالحسنى، فأولئك الذين تزلف لهم الجنة، قال الله تعالى: ؟وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ؟[ق:31].

وأما ما سأل عنه من قول الله: ؟فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ؟، ومن قوله: ؟مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى؟، وما توهم من ذلك أن هذه الأرض التي خلق منها آدم هي أرض الجنة وعرصتها، وأن كل العباد راجع إليها، فليس ذلك كما توهم ولا كما قال، وإنما عنى الله بكل ما ذكر من هذه الأقوال هذي الأرض التي منها خلقوا وفيها يدفنون ومن أجداثها يبعثون، قال الله تعالى: ؟أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا؟[المرسلات:25]، وقال سبحانه: ؟يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ؟[ق:44].

وأما ما سأل عنه، فقال: ما كانت إرادة الله في آدم وزوجته؟ أيخلدان في الجنة؟ أم أراد أن يخرجا منها ويهبطا عنها؟

(389/1)

فإنا نقول: إن إرادة الله في وقت خلق آدم وزوجته سكناهما في الجنة ومقامهما، وإن إرادته وحكمه عندما كان من غفلتهما واستزلال الشيطان لهما حتى كان منهما ما كان من معصيتهما لسبب الغفلة والنسيان لما عهد إليهما ربهما من اجتناب الشجرة التي عنها نهاهما – فطلبا البقاء والحياة والاستزادة من العمل الصالح، ورجوا أن يخلدا، فيزدادا طاعة لربهما وتكثر عبادتهما لخالقهما، فغوى صلى الله عليه، في الشجرة ناسياً، ولم يكن ذلك عن مباينة لله بالعصيان، ولا عن قلة معرفة بما يجب

للرحمن، قال الله تبارك وتعالى: ؟فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا؟[طه:115] – فلما أن كان ذلك منهما أراد الله أن يهبطهما من الجنة التي كان قد كفاهما فيها لباسهما وقوتهما، فأخرجهما منها إلى غيرها من الأرض، وبدلهما بالراحة تعباً، وبالكفاية للمؤنة طلباً وحرثاً وزرعاً. فكانت إرادته في وقت إيجادهما: الكفاية لهما، وفي وقت نسيانهما: ما حكم به من إخراجهما وإهباطهما منها إلى غيرها. فالهبوط فهو القدوم من بلد إلى بلد، تقول العرب: هبطنا من بلد كذا وكذا إلى بلد كذا وكذا، وهبطنا عليك أرضك، وقال الله المتقدس الأعلى فيمن كان مع عبده ونبيه موسى، ممن كان ينزل عليه المن والسلوى ويظلل بالغمام ويسقى زلال الماء، فطلبوا وسألوا التبدل بذلك مما هو أقل وأدنى، فقالوا: ؟يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ؟[البقرة:61]، (فقال: اهبطوا مصراً، أي اقدموا وانزلوا مصر تجدوا فيه ما سألتم) من هذه الأدنى. فأراد سبحانه أن يسكنها آدم أولاً، ويخرجه منها آخراً، كما شاء أن يسكن ذريته الدنيا ثم يخرجهم منها إذا شاء إلى

الآخرة، وكما شاء وأراد أن يصلي له نبيه صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس، ثم شاء أن ينقله عنه إلى ما هو أعظم، فينقله إلى بيته الحرام المكرم، كما شاء سبحانه أن يفترض على أمة موسى من الفرائض المشددة والأمور المؤكدة، فافترض ذلك عليهم، ولم يرض منهم بسواه من ذلك ما حرم عليهم من المآكل من الشحوم اللذيذة وغيرها، وما حظر عليهم من صيد البحر في يوم سبتهم، حتى كانت الحيتان يوم السبت تأتيهم وتظهر لهم وتكثر عندهم وتشرع قريباً منهم امتحاناً من الله لهم، فكانوا لله في تركها مطيعين، وكانوا عنده على ذلك مكرمين، ثم عتوا من بعد ذلك وفسقوا، وخالفوا فتصيدوا، فأخذهم الله بذنوبهم فجعل منهم القردة والخنازير، فقال سبحانه في ذلك: ؟وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ؟[الأعراف:163]، ثم أراد الله التخفيف عن عباده فبعث فيهم عيسى صلى الله عليه، فأحل لهم بعض ما قد حرم عليهم، قال الله تعالى يخبرنا عما جاء به عيسى وقاله مما أمره الله به جل جلاله حين يقول: ؟وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ؟[آل عمران:50]، ثم أراد التخفيف عنهم، والنقل لهم إلى أفضل الأديان، إلى دين أبيهم إبراهيم الأواه الحليم، فبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فصدع بأمر ربه، وأنفذ ما أرسل به، فكان ذلك إرادة من بعد إرادة، ومتعبداً من بعد متعبد، فصرف الله فيه العباد، فتبارك الله ذو العزة والأياد.

(391/1)

وكذلك حكم على من عصاه بالمعصية، فإن تاب حكم له بالطاعة، وإن عاد فعصى حكم عليه بما حكم على أهل الردى، وإن تاب وأناب إلى الله وأجاب، حكم له بالهدى والثواب.

فهذه أحكام من الله وإرادات، أراد الله سبحانه أن يتصرف في المخلوقين على قدر ما يكون منهم من العملين، فقال جل وعز: ؟مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ؟[فصلت:46].

وأما ما ذكر من العلم، وأن العلم لا يخلوا من أن يكون الله العالم بنفسه ويكون العلم من صفاته في ذاته لا صفته لغيره، أو يكون العلم غيره. فمن قال: إن العلم غيره؛ فقد جعل مع الله سواه، ولو كان مع الله سواه، لكان أحدهما قديماً والآخر محدثاً، فيجب على من قال بذلك أن يبين أيهما المُحدِث لصاحبه. فإن قال: إن العلم أحدث الخالق؛، كفر. وإن قال: إن الله أحدث العلم؛ فقد زعم أن الله كان غير عالم حتى أحدث العلم، ومتى لم يكن العلم فضده لا شك ثابت وهو الجهل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإن رجع هذا القائل الضال إلى الحق من المقال، فقال في الله بالصدق تبارك وتعالى ذو الجلال، فقال: إنه العالم بنفسه الذي لم يزل ولا يزول، وإنه الواحد ذو الأفعال، وإنه لا علم ولا عالم سواه، وإنه الله الواحد العالم؛ وجب عليه من بعد ذلك أن يعلم أن كل ما نسبه إلى العلم فقد نسبه إلى الله، وسواء قال: أدخله العلم في شيء؛ أو قال: أدخله الله فيه وحمله سبحانه عليه؛ فالله عز وجل بريء من ظلم العباد، متقدس عن أفعالهم، فأفعالهم بائنة من فعله، وأفعاله بائنة من أفعالهم، لم يحل بين أحد وبين طاعته، ولم يدخل أحداً في معصيته. فعلم الله بما يكون من أفعال عباده فغير أعمالهم، ولم يضطرهم إلى عمل في حال من حالاتهم، فالعلم بهم محيط فهم متصرفون فيه، وينتقلون من معلوم إلى معلوم بما ركب فيهم من الاستطاعة والقدرة، قد علم ممن عصاه أنه سيعصي، وأن من تاب فقد علم أنه سيتوب، وإن

(392/1)

عاد فقد علم أنه سيعود، وليس علمه بأنه سيختار المعصية أدخله في العصيان، لأن ضده قد يكون من العبد وهو التوبة والإحسان، فكيف يجوز على الواحد الرحمن أن ينقل من عباده أحداً من رضاه إلى سخطه، إذا لقد جبره على معصيته، ولو جبره عليها إذا لما كان بد للعبد من الدخول فيها، ولو دخل العبد فيما أدخلهربه فيه لوجب له الثواب عليه، ولكان لله من المطيعين، إذ هو جارٍ على مشيئة رب العالمين، ولما كان في الخلق عاص، ولكان الله عن كلهم راضياً، ولكان في القياس

إبليس عند الله مرضياً إذ هو يجب أن يدعوا إلى ما شاء الله لعباده ورضي، ولما ذمه في التكبر والعصيان؛ إذ الحامل له والمدخل له فيه الرحمن، ولما قال: ؟مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ وهو يعلم أنه المانع له من السجود، فتبارك الله عن ذلك الواحد المعبود.

(393/1)

ألا ترى كيف تبرأ من أفعالهم، ويأمر بالمجاهدة لهم على اليسير من أعمالهم، ولو كان المتولي لذلك فيهم لما عابه سبحانه منهم، ولما حض عباده على تغيير ما أحدث فيهم عليهم، ألا تسمع كيف يقول: ؟وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فإن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فإن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إن اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ؟[الحجرات:9]، فقال: ؟اقْتَتَلُوا؟، فألزمهم الفعل، وقال: ؟فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ؟، فأوجب على غيرهم من المؤمنين نصر المظلومين (على الظالمين)، فلو كان على قول الجاهلين، لكان قد ألزم المؤمنين قتال من لا يجب قتاله، ومن تجب ولايته، إذ أجاب الله في دعوته، وجرى له في طاعته، وبغى على من أمره بالبغي عليه، ولو كان الله المحدث البغي في الفاعل له، لكان قد أمر عباده بقتاله حصراً فيه دون غيره حتى يفيء هو ويرجع عن إرادته ومشيئته، ولكان أيضاً قتال عباده قتاله دونهم، فكان مقاتلاً نفسه على فعله، إذ كان فعل المقاتَل والمقاتِل له فعلاً واحداً، فتبارك الله المتقدس عن ظلم العباد، المتعال عن اتخاذ الصواحب والأولاد، كما قال سبحانه: ؟وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ؟.

والحمد لله الحميد على ما خصنا به من التوحيد، ودلنا به من الدلالات فيما أبان من خلق الأرضين والسماوات وغيرهما من الآيات.

تم الجواب

(394/1)

المسألة الرابعة: هل أراد الله تعالى خيراً في خلق النار ؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن أهل النار وعن النار، فقال: خبرونا عن أهل النار ألخير أراد الله بهم فوضعها فيهم؟ أم الشر أراد بهم؟ فإن قالوا: الخير أراد بهم، فيقال لهم: وكيف ذلك، وقد جعلها وقد علم أنهم لا ينتفعون بها، وأنها لا تكون إلا في مضرتهم، وإن زعموا أنه جعلها فيهم ليضرهم انتقض عليهم قولهم.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من أمر النار، وقال: لم خلقها الله الرحمن؟ الشر أراد بخلقه لها؟ أم الإحسان؟

(395/1)

فنقول: إن الله تبارك وتعالى، جعل النار في دار الدنيا مزجرة لمن اهتدى، لما فيها من التذكرة بالنار التي وعدها الله للكافرين في دار الآخرة، ولا شيء - والحمدلله - أبين نوراً ولا أظهر خبراً من أن يكون خلق خلقاً أراد منهم أمراً وكره منهم ضده، وأمرهم بما أراده، ونهاهم عما سخطه، ثم خلق لهم ثواباً، وأعد لهم عنده عقاباً، ثم استدعاهم إلى الطاعة بالثواب، ونهاهم عن المعصية بالعقاب، فعُبِد خوفاً من عقابه، وأطيع طمعاً فيما جعل من ثوابه، كما قال تعالى: ؟تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ؟[السجدة:16]، فجافوا، لمخافته وطلب مرضاته، منهم الجنوب، وطهروا أنفسهم من الذنوب، وطيبوا منهم السرائر والقلوب، فأمنوا بالطاعة أنفسهم من نحل العاصين، واستوجبوا بذلك اسم المؤمنين، فكانوا كما قال فيهم ووصفهم رب العالمين حين يقول: ؟إنما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ؟[الأنفال:2]، فخافوا ربهم واهتدوا، ومن عذابه نجوا. فلما أعلم الله العباد أجمعين أن الجنة مصير المؤمنين، وأن النار مقر الفاسقين، (ليحذر أولوا الألباب النيران)، فأعملوا أنفسهم في الفرار إلى الرحمن، راغبين فيما رغبهم فيه من الجنان، فسبحان من لطف بعباده بما جعل لهم من النار في بلاده، تخويفاً وترهيباً ومنافع وتقوية وترغيباً، ؟لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإن اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ؟[الأنفال:42]. ثم قال: ؟مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

(396/1)

أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إلا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ؟[الأنعام:160]، وقال: ؟فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ؟[الزلزلة:9]، فجعلها لهم في الدنيا مزجرة وتخويفاً وتحذيراً من نار الآخرة، مع ما لهم فيها في دار الدنيا من المنافع التي لا تحصى، والمرافق الجمة التي لا تستقصى، بها يطبخون ويخبزون، وبها من القر يحترسون، وبها في ظلمات الليل يبصرون، وبها ينالون من الحديد ما ينالون من تصريفه في أسبابهم، وتقويمه لمعاشهم من أدوات حرثهم

وحفرهم، وغير ذلك من منافعهم، وما يعدون لأعداء الله من السلاح، من السيوف والدروع التي تقيهم بأسهم، كما قال سبحانه: ؟وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ؟[الأنبياء:80].
ألا ترى وتسمع كيف قال رب العالمين حين يذكر بالآية عباده المتقين، فقال: ؟أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ؟[الواقعة:73.71]، فجعلها الله الواحد الأعلى منفعة في الدنيا للخلق طراً، ونكالاً في الآخرة لمن استأهلها لا تفنى.
ففي هذا، والحمد لله من الجواب ما أزاح من لب ذي الشك التحير والارتياب، وثبت في إيجاد النار، الحكمة لرب الأرباب.
تم جواب مسألته

(397/1)

المسألة الخامسة: هل يستطيع الإنسان أن يجهل ما عرف؟
ثم أتبع المسألة عن المعرفة، فقال: هل يستطيعون أن يجهلوا ما جعلهم الله به عارفين؟ أم لا يستطيعون؟
فإن قالوا: لا؛ فقد انتقض قولهم عليهم. وإن قالوا: نعم. فقل: هل يستطيعون أن يجهلوا معرفة الله، فلا يعرفون أنه خالق كل شيء، ومصور كل شيء؟ فإن قالوا: هذه الفطرة، وليس يثاب أحد عليها، فالخلق كلهم يعرفون أنه الله. فقل: هل يستطيعون أن يجهلوا الليل والنهار والسماء والأرض والدنيا والآخرة والناس والخلق كلهم أن الله خلقهم كما شاء وكيف شاء؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا، والناس كلهم شهود على كذبهم، وإن قالوا: لا؛ فقد تابعوك.
تمت مسألته
[جوابها:]
وأما ما سأل عنه، فقال: هل يستطيعون أن يجهلوا ما يعرفون؟ أو يعرفوا ما يجهلون؟ فإن مسألته تخرج على ثلاثة معان، ونحن لها مفسرون، ولكلها إن شاء الله مميزون:

(398/1)

فأولها: معرفة الخالق، وهي فلن تدرك إلا بالعقل الصحيح، والقلب النضيج، قال الله سبحانه: ؟فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ؟[الحشر:2]، وقال سبحانه: ؟لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ؟[ص:29]، وقال: ؟إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ؟[ق:37]،

فإذا صح مركب اللب، وثبت فهم القلب، ثم تدبر أمره جميع الخلق، وقصدوا في ذلك قصد الحق تفرع لهم من الألباب وجودة فكرهم وإنصافهم لعقولهم ما يدلهم على معرفة خالقهم، وقدرة سيدهم ومالكهم ودلهم ذلك على أن لِمَا يرون من خلق أنفسهم واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح وغير ذلك من الأشياء خالقاً، ليس كمثله شيء، ولا يشبهه من ذلك كله شيء، ألا تسمع كيف يدل على نفسه بما أبان من قدرته في خلق سماواته وأرضه وما بث فيهما كل أوان من صنعه، وينزل من السماء بقدر من رزقه، فقال سبحانه: ؟إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ؟[الجاثية:3]، فإذا صح للمخلوق لبه وطاب له بالطاعة قلبه، ثم فكر وفي أمره كله تدبر، بان له أمر خالقه، وثبت في صدره اقتدار مصوره.

(399/1)

وأما المعنى الثاني: فما أمر الله العباد بعمله، وحرم عليهم ما هم فيه من جهله، من الحلال والحرام، والصلاة والزكاة، والصيام والحج إلى بيته، والوقوف بمشاعره العظام، وكل ما جاء به محمد عليه السلام، مما تعبد الله به العباد، وألزمهم فيه الاجتهاد، وهذا فلا يعلم ولا يسمع إلا بمخبر عن الله مسمع متكلم بالحق مناد، ولمن خالفه في ذلك معاد، وكذلك وبذلك بعث الله الأنبياء إلى عباده ليؤدوا إليهم فرائضه وأمره، وينادوهم بذلك فيسمعوا، ويعلموهم إياه فينتصحوا فينجوا، ولو لم يكلموهم به ويسمعوهم إياه لم يقفوا على علم ذلك أبداً، ولم يعرفوا حدوده أصلاً، فلم يكن في الفرائض لهم بد من مبلغين، ومرسلين مبشرين ومنذرين، ففعل الله بهم كذلك، وبعث إليهم الرسل بذلك، رحمة منه سبحانه لهم، وعائدة منه بفضله عليهم.

وأما المعنى الثالث: فهو ما أُدرك وعلم بالتجربة مما لم يكن ليدرك أبداً إلا بها، ولا يصح لطالب إلا منها، من ذلك ما أدركه المتطببون من علم ما يضر وما ينفع، وما يهيج وما يقمع، وما يقتل من السموم وما يردع السم عن المسموم، وما يفسد العصب، وما يُجتلب بأكله العطب، وغير ذلك مما يطول ذكره، ويعظم لو شرحناه أمره، مما لا يدرك أبداً إلا بالتجربة أولاً.

فمن هذه الثلاثة المعاني تصح المعارف كلها للعارفين، ويثبت الفهم للمتفهمين، وقد يجهل ذلك كله من شاء أن يجهله، كما يعرفه من شاء أن يعرفه بأهون الأمر، وألطف الخبر.

فأما التجربة فيجهلها من لم يجرب الأشياء. وأما الفهم والتمييز بالعقل فقد يبطله شارب الخمر بشربه الخمرة فيزيل بذلك ما ركب فيه من لبه، ومن ذلك رقاد الراقد، إذا رقد لم يعلم ممن يدخل إليه أو يخرج عنه بأحد، والتبس عليه الليل والنهار، وعميت عنه بكليتها الأخبار، حتى ربما استرقد ليلاً فلا يعلم حتى يهجم عليه النهار، وربما رقد نهاراً فلا يعلم حتى يهجم عليه الظلام، ويزول الإبصار.

(400/1)

فكيف يقول أن أحداً لا يقدر على جهل ما علم ولا علم ما جهل لسبب يعلم ولا بحيلة تفهم؟ ألا ترى أن السكران يعلم في حال سلامة عقله بما يشينه وينقصه ويفضحه من عمله، حتى لو أعطى من يدعي المروءة منهم ورشى جزاء من الرشاء عظيماً، حين سلامة لبه، على أن يكشف له ثوباً أو يبدي من نفسه عيوباً لم يكن ليفعل، وإذا شرب وسكر لم يعلم له بسواية، وجاءت وظهرت منه في نفسه، ولها الفضيحة والنكاية، فهل ذلك إلا من جهله بما كان يعلم؟ وقلة معرفته في تلك الحال بما كان يعمل؟ أو ما رأى من علم علما وروى رواية وحكماً من علماء وحكماء، بل من أحكم القرآن وتلا عن ظهر قلبه الفرقان، ثم ترك قراءته دهراً فجهل ونسي ما علم منه طراً؟ أو ما رأى من كان دهره جاهلاً وعن كل خير وعلم غافلاً، ثم انتبه لنفسه، وأنف من جهله فتعلم فعلم ونظر ففهم؟
وكل ما ذكرنا والحمد لله فنقض لكل ما عنه سأل وظن بذلك أنه قد أحال في الكلام كل محال، ولم يعلم أنه في قوله قد أحال وأخطأ في كل ما عنه سأل وتعسف في مدلهمات ظُلَم المقال، وكشفنا عنه وعن غيره من الخلق ممن يريد ويقصد الحق طخياء ديجور جهله، وبينا له ما التبس عليه من أمره حين أقدم بالقول، فقال: هل يقدر إنسان أو قدر قط ذو بيان على أن يجهل ما علم أو يعلم ما جهل في حالة من الحالات أو وقت من الأوقات، وزعم أن أحداً لا يدخله في ذلك أبداً ارتياب، ولا يجهله بسبب من الأسباب، وقد وجدنا ذلك بخلاف قوله، وعلمنا أن فعل ربه بخلاف فعله، لا ما نسب هو إلى ربه وقلده سبحانه ما ليس من صنعة، فعلمنا أن الإبصار إلى ظلام الليل وإشراق النهار من فعل الإنسان لا من فعل الرحمن.

(401/1)

ثم إن المعرفة من العارف تفرعت من لبه عند استعماله لفكره، واستخراجه ما أمر باستخراجه من التمييز بعقله، وقد نجد المبصر بعينه يبصر إلى ما يحل له ويحرم عليه، ولو كان النظر من الله لكان الله المدخل له فيه، الناظر الباصر دون الإنسان إليه، تعالى عن ذلك رب العالمين، وتقدس عن مقال الجاهلين.
تم جواب مسألته

(402/1)

المسألة السادسة: من أنطق الناس ومن خلق الكلام؟

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، فقال: أخبرونا عن الناس، من أنطقهم؟ والكلام من خلقه؟ فإن قالوا: الله؛ فقد انتقض قولهم، وذلك لأن الكلام يكون فيه الصدق والكذب والتوحيد والإشراك، وأعظم الكذب الشرك بالله والتكذيب والافتراء عليه؛ وإن أنكروا أن يكون الله خلق المنطق والكلام فذلك الكفر والشرك بالله والتكذيب بما جاء به من عنده، فقل: خبرونا عن قول الله إذ قال في كتابه: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[فصلت:21].

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه مما ضل فيه ونسبه إلى الله وقال به من المنكر عليه، فقال: خبرونا عن الناس من أنطقهم؟ وعن الكلام من خلقه؟

فنقول: إن الله أنطقهم كما هداهم، وهداهم كما بصرهم، وبصرهم كما أسمعهم، وأسمعهم كما مشاهم، وأمشاهم كما أبطشهم، وأبطشهم كما أقامهم، وأقامهم كما أقعدهم، وأقعدهم كما أشمهم، وأشمهم كما أنكحهم، فلم يكن منه في ذلك كله فعل غير خلق الأداة؛ خلق الرِجل للمشي فمشى، وخلق الأذن للسمع فسمع، وخلق الأنف للشم فشم، وخلق العين للنظر فنظر، وخلق الفرج للنكاح فنكح، فما ناله الإنسان من تلك الأدوات فهو من فعله، وليس مِن فعل الله فعلُ عبده؛ الله خلق الفرج امتناناً عليه به لينال به من الشهوة ما نال، وفعل العبد فهو النكاح. فهل يرى الحسن بن محمد – الوسن الجاهل – بقول غير ذلك، أو يقدر على نقض حرف مما شرحنا أو به قلنا واحتججنا والحمد لله الواحد الأعلى.

(403/1)

وكذلك كان فعله سبحانه في إنطاقهم، خلق لهم الألسنة واللهوات، وما يكون به الكلام من الآلات، ثم أمرهم أن يذكروه ويسبحوه، فقال سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه: ﴿فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾[البقرة:198]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:152]، ونهاهم عن أن يقولوا عليه غير الحق، فقال: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلا الْحَقِّ﴾[النساء:171]، فجعل لهم سبب القول فيه، ونسبه إليهم، ولم ينسبه إليه، وجعله – جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله – عن افترائهم عليه، ولو كان الكلام من فعله، وكان الناطق به على ألسنتهم، لكان هو القائل في نفسه ما أنكره عليهم، من ذلك قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ

الأَعْلَى؟[النازعات:24]، وقول الكافرين لكتاب رب العالمين: ؟أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ؟[المؤمنون:83]، و ؟هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ؟[الأحقاف:11]، ومن ذلك ما قالوا للأنبياء المطهرين صلوات الله وبركاته عليهم أجمعين، وما رموهم به من السحر والجنون، قال الله تعالى: ؟كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ؟[الذاريات:52]. أفترى الجاهل المفتري، الظالم لنفسه الغوي، يقول: إن الله سبحانه كذب أنبياءه ورماهم بما قال الكافرون من السحر والجنون فيهم، وحمل الكافرين على أن يسيئوا بهم الظنون، وينسبوا إليهم الكذب والسحر والجنون؟! بل كيف ينطقهم بالتكذيب لهم والافتراء عليهم، وهو يأمرهم بالطاعة لهم، ويعطيهم الجنان على الإيمان بهم؟ فقال سبحانه: ؟سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ

(404/1)

يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؟[الحديد:21]، وقال: ؟وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ؟[الحديد:19]؛ كذب القائلون على الله بذلك، ووقعوا عنده في المهالك، فسبحان الرؤوف الرحيم، العدل الجواد الكريم.

وأما ما سأل عنه مما التبس عليه، وتحير فيه لقلة العلم بالله فيه، من قوله سبحانه: ؟وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟[فصلت:21]، فتوهم أن معنى: ؟أَنطَقَنَا اللَّهُ؟ هو: تكلم علينا وقال ما قلنا، وليس في ذلك كذلك، بل هو على ما شرحناه أولاً. ومعنى ؟أَنطَقَنَا اللَّهُ؟: أي جعل فينا استطاعة ننطق بها، وأذن لنا بالنطق فنطقنا، وشهدنا حينئذ بما علمنا. ولو كان الله الذي فعل الكلام بعينه، وولى قوله بنفسه دون غيره، لقالت جلودهم: نطق الله علينا فيكم، وشهد هو لا نحن عليكم، وتكلم علينا بما علم منكم؛ تعالى الله عما يقول المبطلون، ويضيف إليه الملحدون. وليس إنطاقه إياها في الآخرة إلا كإنطاقه للألسنة في الدنيا والآخرة، وليس إنطاقه للألسنة إلا كإسماعه السمع، فلما جعل في السمع استطاعة على أن يسمع سمع. وكذلك العين واليد والرجل؛ والعين الله خلقها، والنظر إلى الأشياء فعل العبد؛ واليد الله خلقها، والإنسان يبطش بها؛ والرجل فالله خلقها، والإنسان بها مشى. فمن الله سبحانه خَلْقُ الأدوات وإيجاد الآلات في الأبدان؛ وما تفرع منها فمن أفعال الإنسان، وذلك ولله الحمد والمن فيين الشأن لمن عرف الله على حقيقة العرفان.

تم جواب مسألته

(405/1)

المسألة السابعة: من خلق الحركات؟

ثم أتبع ذلك المسألة عن الحركات، فقال: من خلقها؟

فإن قالوا: الله خلقها؛ كان ذلك نقضاً لقولهم، وذلك أن كل عمل من خير أو شر، طاعة أو معصية، إنما يكون بالحركات. فإن قالوا: إن الله لم يخلقها؛ فقد أشركوا بالله، وذلك ابتلاء عمل، لأنه لا يتم خلق الإنسان إلا بالحركة.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه فقال: من خلق الحركات اللواتي تكون من الخلق في الحالات؟

فنقول: سبحان الله الرحيم، العدل الجواد، البريء من أفعال العباد، المقدس عن القضاء بالفساد، كما قال في نفسه ذو الأياد: ؟إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟[الأعراف:28]، ثم نقول: إن بين أفعال الله وأفعال خلقه فرقاً بيناً، وأنه واضح في الخلق عند من أراد معاني الحق.

فأفعال الله متتابعات متلاحقات في كل شأن، وأفعال المخلوقين ذوي العجز المربوبين فغير متلاحقات، بل هن عن التلاحق عاجزات، وآخر أفعال الله بأولهن لاحق، وأولهن لآخرهن غير سابق. فأفعال الخالق موجودات معلومات، ثابتات متجسمات، وأفعال الخلق فزائلات غير موجودات، بل هن في كل الحالات معدومات، وفي ذلك والحمد لله من البيان ما فرَّق عند ذوي العلم والإتقان بين أفعال الخالق ذي البقاء والجلال، وبين أفعال الخلق ذوي الفناء والزوال.

(406/1)

ألا ترى وتسمع كيف أكذب الله من نسب أفعال العباد إلى ربه؟ فأكذبه سبحانه، ونفاها عن نفسه، حين يقول: ؟وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟، وقال: ؟وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ؟[الزمر:60]، أفظن من جهل وعمي أن الله فعل كذبهم عليه، ثم رماهم به وقال إنهم قالوه فيه؟ فمن يا ويحه إذا الكذوب المبطل، الظالم المتعدي، الغشوم المدغل؟ من قال وفعل؟ أم من لم يقل ولم يفعل؟ أما سمع الحسن بن محمد قول الجليل، وما حكى في أوضح التنزيل، عمن ظلم وجار وأساء، وفعل فعلاً ثم رمى به إلاهه واعتدى من قصي بن كلاب، ومن به اقتدى ممن سلك مسلكه وتبعه، وشرع في ذلك مشرعه، فسنَّ لقريش سنة اتبعتها، واقتدى

جميع العرب بها، فبحر لهم البحائر، وسيب لهم السوائب، ووصل لهم الوصائل، وحمى لهم الحام، فكانوا على ذلك حتى ظهر الإسلام، وأكرمهم الله بمحمد عليه السلام، فقال الله سبحانه في ذلك، ونفى عن نفسه ما رموه به من ذلك، وألزمهم فعله، وبرأ منه تبارك وتعالى نفسه، فقال: ؟مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ؟[المائدة:103].

أَفَترى الحسن بن محمد، ومن استجهله فقال بقوله وذهب مذهبه، يقولون لله إذ نفى ذلك من فعلهم عن نفسه: بل أنت فعلته فيهم وخلقته وركبته لديهم، وأدخلتهم فيه، وقضيته عليهم؟ لقد كذبوا إذا الرحمن العلي الأعلى، وصدقوا قريشاً الجاهلية الجهلاء، وكفروا بالله كفراً يقيناً، واحتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً.

(407/1)

ففي هذا والحمد لله من الحجة كفاية لمن كانت له بالحق من الخلق عناية.

ومما نحتج به على الحسن بن محمد من المقال، وندحض به قوله المحال، أن يقال له: إذا كنت تزعم أن الله خلق هذه الحركات التي هي من أفعال العباد، من أخذ وإعطاء، وحذوا واحتذاء، ولبس وارتداء، وقول ومقال، وزور ومحال؛ فلا نشك نحن ولا أنت ولا أحد علم شيئاً أو فهم أن قريشاً بَنَت بنخلة العزى، وثقيفاً بالطائف اللات، فزينوهما بالجواهر والعقيان، ثم عبدوهما وجعلوهما قسماً من دون الله الرحمن؛ ومن ذلك ما جعلت ونحتت وأقامت ونصبت على الكعبة وفيها قريشٌ من الأصنام، وما كانوا يجلون ويعظمون ويذبحون لهبل وأشباهه عند بيت الله الحرام، فيقول الحسن بن محمد: إن الله تعالى بنى لهم اللات والعزى، وأمرهم بعبادتهما، والقسم دونه بهما، وأنه أقام لهم تلك الأصنام، وأضل بها كل من ضل بها من الأنام، وعظمهن وذبح – جل عن ذلك – لهن، وقرب تلك القرابين إليهن؛ لعمر الحسن بن محمد وأتباعه وأهل البدعة من أشياعه، لو كان الله خلق وفعل أفعال الفاعلين، لكان العابد دون من عبدهن لهن، فلذلك يلزم من قال ذلك بلا شك بهذا القول الكفر، إذ يقولون: إن الله فاعل أفعال قريش دونها، وفاعل كل ما فعله من الفواحش غيرها، فَلِمَ – يا ويحه! – إذا بعث محمداً إليهم يعيب ذلك عليهم؟! لقد بعثه إذا يعيب عليه فعله دونهم، ويبطل ما صنع، ويخفض ما رفع، وقريش إذا كانت لله مطيعة، وفي مرضاة خالقها ماضية سريعة فيما فعل، معظمة محلة لما أحل، ومحمد لله في فعله مضاد، وفي كل قضائه محاد؛ فلقد إذا هدم محمد صلى الله عليه وآله ما بنى الرحمن، وعانده وخالف عليه في كل ما شأن، فهذا أكفر الكفر، وأعظم الفرية على الله والأمر، فسبحان من هو بريء من عصيان كل عاص، وطغيان كل مفتر طاغ.

تم جواب مسألته

(408/1)

المسألة الثامنة: هل الأعمال شيء أم أنها ليست شيئاً؟

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن الأعمال، فقال: خبرونا عن الأعمال التي عمل بها بنو آدم، أشيء هي؟ أم ليست شيئاً؟ فإن قالوا: بل هي شيء. فقل: من خلق ذلك الشيء؟ فإن قالوا: الله خلقه؛ انتقض عليهم قولهم. وإن قالوا: ليس ذلك مخلوقاً؛ كان ذلك شركاً بالله، وتكذيباً لكتابه، لأن الله سبحانه خالق كل شيء. فقل لهم: ألم تعلموا أن أفعال بني آدم شيء؟ فإن قالوا: نعم. فقل: والله خلقها. فإن قالوا: ليست بشيء. فقل لهم: فقد زعمتم أن الله يثيب على غير شيء، ويعذب على غير شيء، ويغضب من غير شيء، ويرضى من غير شيء، ويدخل الجنة بغير شيء، ويدخل النار بغير شيء.

تمت مسألته

[جوابها:]

وأما ما سأل عنه من أفعال العباد، فقال: أشيء هي أم غير شيء؟ وقال: إن كانت شيئاً فمن خلقها؟ وإن لم تكن شيئاً فهل يعذب أو يثيب الله على غير شيء؟

فإنا نقول، وإلى الله سبحانه نؤول: إنها شيء وأشياء، وطاعة وعصيان، وإساءة وإحسان، ألم تسمع الله سبحانه يقول: ؟لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا؟[مريم – 88:92]، فسمى تحرك ألسنتهم بما قالوا من الكذب والافتراء شيئاً، ثم أخبر بأن السماوات لو كان فيهن من العقول والتمييز ما فيكم لانفطرن لإعظام ما جاء من قولكم، وكذلك لو أن الجبال كان فيها بعض ما ركب (فيكم من الفهم) لخرت لإعظام اجترائكم على الخالق بما به اجترأتم. وقال سبحانه: ؟وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ؟[القمر:52]، فسمى أفعالهم شيئاً، فقد أوقع في الزبر، والزبر فهي الكتب.

وقال ابن عباس: إن الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها هي هذه الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه من التوراة والإنجيل والفرقان الكريم الجليل.

(409/1)

ونحن فنقول: إن الزبر هي الكتب التي ذكر الله في قوله: ؟وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا؟[الإسراء:13]، وفي قوله: ؟هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إنا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟[الجاثية:29]، فهذه التي ذكر الله من الكتب عنده، وأنه يظهرها يوم

دينه وحشره هي الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها، لا ما قال ابن عباس من أنها هي المنزلة على أنبيائه، من توراته وإنجيله، وما نزل على محمد من فرقانه، ألا تسمع كيف يقول: ؟وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ؟[القمر:53،52]، وهذه الكتب المطهرة من التوراة والإنجيل والفرقان المكرمة ففيها بعض ما فعل العباد، وكثير منها لم يقص خبره، ولم يذكر جل جلاله أمره، كما قال ذو العزة والأياد، ورافع السماء وداحي الأرض ذات المهاد: ؟مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ؟[غافر:78]، وقال: ؟نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ؟[القصص:3]، يريد نقص عليك بعض خبرهما، وما كان من محاورتهما وأمرهما، وقال سبحانه في أهل الكهف، وما كان من سؤال قريش للنبي عنهم، فقال الله في ذلك: ؟إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاء ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ

(410/1)

أَحَدًا؟[الكهف:22،21]، وقال سبحانه: ؟مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ؟، وقال: ؟مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ؟، فأخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما كان من قول أهل بلدهم فيهم، وقص عليه قبل ذلك ما كان من فعلهم في أنفسهم – رحمة الله عليهم – واعتزالهم إلى الكهف، وإخلاصهم لله دينهم، ثم أمره بأن لا يماري فيهم إلا مراء ظاهراً، وكتمه عدتهم، ثم قال: ؟قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ؟، ففي كل ذلك يخبر أنه لم يعلمه صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يخبره في كتابه من أخبار من مضى وفات في قديم الدهر وانقضى إلا باليسير من القصص دون الكثير، ويدل على أن ما لم يقص عليه من أخبار الأمم الماضية، والحقب الخالية أكثر مما قص، وأعظم وأطول وأطم، وكل ذلك فدليل من الله في واضح التنزيل، على أن ما ذكر الله من الزبر التي فيها كل ما فعله العباد مستطر غير هذه الكتب التي ذكر فيها جزءاً وترك، ولم يذكر بعضاً؛ لأن ما جمع فيه كل شيء بخلاف ما جمع فيه بعض شيء، إذ نصف الشيء وبعضه خلاف الشيء كله.

(411/1)

فأما الكتب التي ذكرها الله في كتابه ونزل فيها ما نزل من وحيه وقرآنه، فهي ما أقسم به سبحانه حين يقسم فيقول: ؟وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ؟[الطور:1]، وقوله: ؟وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ؟[النحل:89]، وقال سبحانه فيما حكى عن مؤمني الجن إذ صرفهم إلى نبيه يستمعون من القرآن، فقال: ؟وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إنا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إلى الْحَقِّ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ؟[الأحقاف:29]. فهذا وما كان مثله في القرآن من ذكر الكتاب والكتب فهو ما أوحى الله ونزل سبحانه مما قص فيه من أخبار خلقه وما أراد، وترك ما لم يرد من أخبار العباد.

(412/1)

ثم نقول من بعد شرحنا ما أراد الله في قوله: ؟وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ؟: إن هذه الزبر، وإن الاستنساخ، وإن الكتاب الذي يخرج لهم فيه أخبارهم وما كان من أعمالهم، فهو كاللوح المحفوظ، واللوح والكتاب والزبر عند رب الأرباب، فهو العلم المعلوم، والمحيط بالملك المفهوم، الذي لا يزل شيء من الأشياء عنه، ولا يخرج ولله الحمد منه، وهو علم الله العالم بنفسه، المتقدس عن شبه خلقه. وإنما يحتاج إلى كتاب المعلومات من يكل علمه في بعض الحالات، فأما رب الأرباب فهو محيط بكل الأسباب. فكل ما عمل الخلق فهو في العلم المستطر، أي فمعناه: معلوم مختبر، يوقفهم في يوم حسابهم عليه فيعرفونه طراً لديه، فلا يضل عن أفهامهم بقدرة الله شيء من أعمالهم، ؟فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ؟[الزلزلة:7]، وقال: ؟وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا؟[الكهف:49]، وقال لقمان لابنه وهو يعظه: ؟يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ؟[لقمان:16]، وقال في ذلك رب العالمين: ؟وإن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ؟[الأنبياء:47]، فأخبر أنهم يلاقون كل ما كانوا يفعلون، وأن ذلك كله صغيره وكبيره مثبت في الزبر عنده، وكل هذه الأسباب تدل على أن الزبر خلاف ما نزل من الكتاب.

ثم قال: إن أثبتوا أن أفعال العباد شيء، فسلهم: من خلق ذلك الشيء؟

فنحن بحمدالله نقول، وعليه منا المعمول: إن خالق كل شيء عامله، وعامله ففاعله، قال سبحانه: ؟فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ؟[المؤمنون:14]، فسمى العاملين خالقين، وقال شاعر من فصحاء العرب:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ

(413/1)

ض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد: أنك تتم ما دخلت فيه وصنعته، وتكمل كل ما قمت به وعملته، وغيرك لا يُصدِر إذا أورد وأنت تصدر حين تورد.

وقد يُرى من يفسد ويسرق ويكذب ويفسق، فهل يقول الحسن بن محمد في ذي الجلال خالقه إنه المتولي لذلك الفعل دون فاعله؟ فيكون قد قال بخلاف قول الله، ورد في ذلك كله على الله حين يقول: ؟أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟[الواقعة:63]، فميز بين الحرث والزرع، فجعل شق الأرض وحرثها وتسويتها وبذرها لهم فعلاً، وجعل إخراجه وفلق حبه وزرعه وتقويته له فعلاً، فقال سبحانه: ؟إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى؟[الأنعام:95]، وكذلك تقول العرب للغلام إذا أرادت له الخير والإكرام: زرعك الله زرعاً حسناً؛ تريد: بلغك وأنبتك نباتاً حسناً، قال الله سبحانه: ؟فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا؟[آل عمران:37]، يريد أنشأها وكبرها وغذاها فأحسن بإرزاقه غذاءها.

وقد يكون من هذه الأشياء - التي هي أفعال - الزنا وشرب الخمر وارتكاب الرذائل، فماذا يقول الجاهلون في هذه الأشياء؟ من فعلها عندهم؟ الخالق؟ أم المخلوق؟ ومن أظهرها وأوجدها الرب؟ أم المربوب؟ فتقدس وتعالى ذو الجلال عما يقول المبطلون.

بل، ما يقول - ويحه وويله من الله سبحانه وعوله - في هؤلاء المجوس الذين أقاموا لأنفسهم ناراً وبنوا لها تعظيماً وإجلالاً داراً، ليلهم ونهارهم يؤججونها ويوقدونها، وهم في ذلك من دون الله يعبدونها، أهم اجترأوا على الله فيما فعلوا؟ أم الله أدخلهم في عبادة ما عبدوا؟

(414/1)

فإن قال: بل فعله المجوس الأنجاس، وتعدى به على الله العصاة الأرجاس؛ فقد أصاب الجواب وأجاب في ذلك بالصواب. وإن قال: إن الله فعله، وأدخلهم فيه، وقسرهم على ذلك، وأجبرهم عليه؛ فقد زعم أنهم يصبحون ويمسون لله مطيعين وفي مرضاته سبحانه ساعين، إذ هم في قضائه وإرادته متصرفون، وفيما أدخلهم فيه داخلون، وعما صرفهم عنه من طاعته منصرفون.

بل، فليخبرنا أهل هذه المقالة من أهل المحاربة لله والضلالة: ما الذي يجب عليهم ويرضونه في أحبابهم وفيهم، إذا رأوا مجوسياً يشتم الله؟ التغيير عليه؟ أم الإقساط إليه والإحسان؟ فإن قالوا: بل يجب عليه التغيير والنكير إن نحن سمعنا شاتماً يشتم الرحمن اللطيف الخبير. قيل لهم: لم ذاك،

وأنتم تزعمون في أصل قولكم، (أن الله الذي فعل أفعالكم وأفعالهم دونكم، فيجب في قولكم)، أن الشاتم بريء من شتمه، وأن الله سبحانه الشاتم دون المجوسي لنفسه، إذ زعمتم أن ذلك فِعل الله دون مخلوقه وعبده. فلئن كان عليه الله بذلك قضى فما قضى إلا بما أراد سبحانه وارتضى، أفتتكرون على المجوس المؤتمرين بما أراده منهم رب العالمين؟! لقد إذا سخطتم من الله ما ارتضى، ورضيتم له من ذلك له ما لم يرد ولم يشأ. بل الواجب في ذلك على كلكم - إن كان القول في الله كقولكم - تكرمة المجوس والإحسان إليهم، إذ قد قاموا لله بما قضى به عليهم، فهم لله في قولكم ومذهبكم مطيعون، وأنتم ومن قال بقولكم لله سبحانه عاصون، إذ أنتم لما أراد منهم ولم ينكره عليهم منكرون، وأنتم لهم ظالمون، وعليهم بالمنكر متحاملون.

(415/1)

ففي قليل مما احتججنا به من عدل الله ما كفى عن إعادة ما ذكرنا أولاً وشفى - والحمد لله - عن التطويل وأغنى، غير أنا لا نجد بداً إذا كرر وسأل من أن نشرح ونفسر كل ما يقوله من المقال، وإذا احتج بالمحال أبطلناه، وإذا عارض الحق بالباطل دمغناه، كما قال مولانا لا مولاه: ؟بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ؟[الأنبياء:18]، وقال في تولي المحقين وخذلان المبطلين: ؟ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ؟[محمد:11]، يقول سبحانه: لا ولي ولا متولي، ولا مرشد لهم، ولا كافي.

تم جواب مسألته

(416/1)

المسألة التاسعة: الآجال

ثم أتبع ذلك المسألة عن الآجال، فقال: خبرونا عن الآجال، من وقتها؟ أموقتة هي أم غير موقتة؟ فإن قالوا: الله وقتها؛ فقد أجابوك. فقل: هل يستطيع أحد أن يزيد فيها أو ينقص منها؟ إن شاء عجلها عن وقتها وإن شاء أخرها؟ فإن قالوا: لا؛ فقد انتقض عليهم قولهم. وإن قالوا: نعم. فقل لهم: فقد زعمتم أن الناس يستطيعون أن يقدموا ما أخر الله، ويؤخروا ما قدم الله، وهذا هو التكذيب لما جاء من عند الله، وذلك قوله: ؟وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إذا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ؟[المنافقون:11].

تمت مسألته

[جوابها:]
وسأل عن الآجال، فقال: هل يستطيع أحد أن ينقص منها أو يتعدى فيقطع ويتلف بعضها؟ وزعم أن ذلك لا يكون أبداً ولا يقدر عليه أحد أصلاً، ولا ينال أحد على أحد تعدياً.
فقول أهل الحق أجمعين، والله سبحانه على ذلك المعين: أن الله وقَّت لعباده آجالاً، وضرب لهم في أمورهم أمثالاً، وجعل فيهم قدرة على أن يقتل بعضهم بعضاً، فمن شاء خاف ربه في كل حال واتقى، ومن شاء كفر وظلم وأساء، وجار في فعله وخالف واعتدى. ألا تسمع كيف يقول رب العالمين لجميع من أمره من المأمورين: ؟وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلا بِالْحَقِّ؟[الأنعام:151]، فنهاهم عن قتل النفس، إذ علم أنهم عليه مقتدرون، وفي ذلك – ولله الحمد – مطلقون وله مطيقون، ولو لم يعلم أنهم كذلك، ولا أنهم يقدرون على شيء من ذلك لما نهاهم عنه ولا حذرهم منه؛ لأن نهي الإنسان عن الطيران مستحيل في اللغة واللسان، وعند كل من عرف البيان.

(417/1)

ولقد فرق الله بين فعل عباده في ذلك وبين فعله، وبين سبحانه لهم كل أمرهم من أمره، فقال سبحانه: ؟وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ؟[ق:19]، فأخبر أن سكرة الموت، وورود ما ينتظر من الفوت من الله، لا من الخلق، فصدق الله، إن الموت يأتي بالحق، وينزل بما وعد من الصدق. فسمى ما كان منه حقاً وحكماً، وما كان من عباده الظلمة عدواناً وظلماً، ولو كانا من الله شرعاً سواء، لذكر الله أنهما منه جميعاً حقاً.
وقال جل جلاله: ؟وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ؟[آل عمران:157]، ففرق بين القتل والموت، فكان القتل من عباده فعلاً، والموت منه – عز وجل – حتماً.
وقال: ؟وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا؟[الإسراء:33]، فقال: ؟قُتِلَ مَظْلُومًا؟، فأخبر بقوله مظلوماً أن له قاتلاً ظلوماً عنيداً، ؟وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ؟[فصلت:46]. فإن كان قتل بأجله فأين الظلم ممن قد استوفى كل أمله، وفنيت حياته، وجاءت وفاته، وفنيت أرزاقه، وانقضت أرفاقه؟ فما يرى إذا ذو عقل للقاتل في مقتول فعلاً، ولا عليه تعدياً ولا قتلاً، ولا جناية ولا ظلماً. ولا يرى له حاكم عليه حكماً أكثر من جرح إن كان جرحه؛ أو وكز إن كان وكزه؛ لأن قاتله ومفني أرزاقه ومبيد أيام حياته هو رب العالمين في قول الجاهلين. ولو كان ذلك كذلك لنجا القاتل من المهالك، ولم يكن على من جرح إنساناً متعمداً جرحاً فقتله أكثر من أن يجرح جرحاً مثله ويخلى، فإن مات منه مضى، وإن بريء منه فقد سلم ونجا.

(418/1)

وكذلك قال الله: ؟وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ؟[المائدة:45]، فما معنى قوله: ؟النَّفْسَ بِالنَّفْسِ؟ عندهم، وماذا يقع عليه حقاً ظنهم؟ أشيء سوى إخراج نفسه من جسده كما أتلف وأخرج نفس صاحبه بجرحه؟ ولو كان كما يقولون لكان واجباً على الحكام إذ يحكمون أن يقتصوا منه لأولياء المقتول جرحاً، وخلوا عنه بعد ذلك، ولا يطلبون لنفسه تلفاً ولا قتلاً، وإن انقطع أمله وحان أجله مات، وإن لم يحن أجله ونجا من القتل والفوات، فيكون قد أتوا على ما قال الله في قوله: ؟وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ؟. لا! بل أراد سبحانه من ولي الأمر إخراج نفسه وإتلاف روحه وقطع عمره، ليجد غب ما اكتسب من فعله.

(419/1)

وقال سبحانه: ؟وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا؟، فما هذا السلطان الذي جعله الله لولي المقتول عند من قال بهذا البهتان والزور من القول المخبول؟! فلا يجدون بداً ولله الحمد من أن يقولوا إنه ما جعل الله له من القتل عليه وأطلقه له فيه بجناية يديه، فله أن يقتله إن شاء، وإن شاء أخذ الدية أو عفى. ثم يقال لهم: هل جعل الله له سلطاناً على ما يقدر إذا شاء عليه أم على ما لا يصير أبداً إليه؟ فإن قالوا: على ما يقدر عليه؛ فقد رجعوا عن مقالتهم، وتابوا إلى الله من جهالتهم. وإن قالوا: على ما لا ينال؛ أبطلوا كتاب الله ذي الجلال ونسبوه سبحانه إلى الاستهزاء وقول الزور في ذلك والردى. ثم يقال لهم: هل يقدر أحد من المخلوقين على قتل أحد من المربوبين، وإن كان لم ينقطع أجله، ولم يفن في ذلك أمله، ولم يبلغ المدى الذي جعله الله مداه وصيره له أجلاً وجعله منتهاه؟ فإن قالوا: يقدر على ذلك منه بما جعل الله من الاستطاعة فيه؛ فقد تركوا قولهم، وقالوا بالحق، ورجعوا وقالوا على خالقهم سبحانه بالصدق. وإن هم قالوا بخلاف ذلك، فقد أبطلوا ما جعل الله لولي المقتول من السلطان، وأكذبوا الله فيما أنزل من البرهان. وإن قالوا: نحن نقول إن السلطان هو قتله بما قتل، ولم يمكن الولي تركه أبداً؛ لأنه إذا وجب عليه السلطان فقد انقطعت حياته، وحلت وفاته، فلم يقدر على تخلية سبيله، ولا بد للولي من أن يقتله بقتيله. قيل لهم: فأين قول الله جل جلاله وتقدس عن أن يحويه قول أو يناله: ؟فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ؟[البقرة:178]، فما معنى ؟عُفِيَ؟؟ وإن جحدوا القرآن وأبطلوه كفروا، وإن سلموا للحق، فقالوا: يمكنه العفو والصفح وأن يتصدق بذلك ويهبه ويأخذ الدية منه ويتركه. قيل لهم: يا سبحان الله! ما أشد تناقض قولكم وأفحش ما تجيبون به من مذهبكم ورأيكم!! ألستم تقولون في أصل مقالتكم إنه لا يوقف ولا يقدر عليه، ولا ينال

(420/1)

منه حتى ينقطع أجله فحينئذ يقتله من أطلق له قتله، وأنه إذا سلم إلى صاحبه فقد انقطع أجله وذهبت أيامه، فكيف إذا يقدر ولي القتيل على تركه والعفو عنه؟ وعلى تخلية سبيله يعيش ويأكل ويظل يمشي ويقعد ويورد ويصدر، ويقبل ويدبر، وقد انقطع أجله وذهبت أيامه، وفنيت أرزاقه؟ أيقدر هذا على أن يعفو والعفو يكون به للقاتل الحياة، وتزول عنه الوفاة؟ فكيف يقدر على ذلك وقد انقطع عنه بزعمكم أجله، وذهب عمله وفني رزقه، وكتب الله عليه موته؟ كذب العادلون بالله، وقالوا ظلماً، واستحقوا بذلك عند الله إثماً، وجعلوا أمور الله كلها عبثاً وهزؤاً.

ويقال لهم: ما تقولون في قول الله سبحانه: ؟وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ؟[البقرة:61]، فسمى الله الجليل قتلهم لكل من قتلوا من قتيل عصياناً، وذكره منهم جوراً وعدواناً، فما قولكم في ذلك؟ وما تدينون به وتعتقدون؟ أتقولون إن قَتْل الفاسقين لمن قتلوا من المؤمنين كان بأمر من رب العالمين، وقضاء منه على الكافرين؟ ولو كان ذلك كذلك لوجب لمن أنفذ قضاء ربه أجزل الثواب على فعله وأمره؛ وقد وعدهم الله على ذلك النيران، وألزمهم في ذلك اسم العدوان، وهذا فأعظم الكفر بالرحمن، وما لم يقل به عليه الشيطان. وإن قلتم: بل كان ذلك لمن فعله فعلاً، ومنهم على المؤمنين اعتداء؛ انتقض قولكم، ورجعتم إلى الحق في الله والصدق.

ويقال لهم: إذا زعمتم أن الأجل انقطع بأمر الله، وأن الله جاء به، وأن انقطاعه من عنده، فمن جاء بالقاتل حتى قتل المقتول، الله جاء به وقضاه عليه وأدخله فيه؟ أم إبليس أغواه وزين له قتله لديه؟ فإن زعمتم أن الله جاء بأجله وبقاتله لينفذ ذلك من علم الله فيه؛ فقد زعمتم أن الله جاء بالظلم والعدوان، وأدخل العبد في العصيان. فإن كان ذلك عندكم كذلك فعلام يعذب الله الإنسان (إذ كان في قولكم الله جمعهما على العصيان والظلم والبهتان.

(421/1)

ويُسألون فيقال: ألستم تزعمون أنه لن تخرج نفس من أحد، من حر ولا عبد، حتى يأتي أجله ويستوفي أمله وكل عمله؟ وذلك من الله زعمتم. فما تقولون في رجل ضرب السكين ضربة واحدة في نحر عبد مسكين، فمات وأنتم تنظرون، فما الذي أوجب الله عليكم من الشهادة؟ أتشهدون أنه قتله؟ أم (تقولون: بل نشهد أنه وَجَأه وجرحه، ولا ندري من قتله؟ أم تقولون: إن ربه الذي أتلفه؛ لأنه جاء بأجله، ولو لم يأت أجله لدامت حياته، وطال عمره، ولم يكن الجرح ليرزأه؟ فهكذا تقولون؟ أم عليه بتاً بالقتل تشهدون؟ فإن شهدتهم بالقتل أصبتم؛ وإن قلتم غير ذلك أحلتم. وماذا تحكمون على هذا

الذي رأيتموه وجأ نحر المقتول، وفهمتموه وقامت عليه بذلك شهود، وكلهم عند الإمام عدل محمود، أترون وتحكمون بقتله كما قتل؟ كما قال الله سبحانه: ؟النَّفْسَ بِالنَّفْسِ؟[المائدة:45]، أم تجرحونه جرحاً مثله؟ فإن مات فذاك، وإن سلم تركتموه لعلمكم أن الذي قتل الأول هو مجيء أجله وفناء أيامه، وانقضاء أمله، وتحلون عن هذا لما له من تأخير الأجل وطول الرزق والأمل؛ لقد أبطلتم إذا حكم ربكم، وفضحتم أنفسكم لأهل ملتكم.

ويُسألون، أيضاً، عمن قتل نفسه بيده، أقتلها وهي حية في بقية من أجلها؟ أم ميتة قد انقضى أجلها؟ فإن قالوا: قتلها وهي حية في أجلها، فقد أقروا أنه كانت له بقية فقطعها بيده، قلَّت البقية أم كثرت.

وإن قالوا: قتلها بعد أن فني أجلها، فكل ما فني أجله فهو ميت لا شك عند فناء أجله، وقتل ميت ميتاً محال. فلله الحمد على ما هدى إليه من الحجة والمقال، وله الحول في ذلك والقوة، وله الجبروت والقدرة.

(422/1)
